فهرست الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان

صحيفه

صحيفه

صحيفه

مطلب

صحيفه

صحيفه

مطلب دخوله

صحيفه

صحيفه

مطلب مقاصد

ب

صحيفه

مطلب عدم

صحيفه

صحيفه

مطلب انهزام

صحيفة

صحيفه

مطلب طلب

صحيفه

صحيفه

هــــــــــــــذا

كتاب اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان مسبوقا بمقدمته

المسماة اتحاف الملوك الالبا * بتقدم الجمعيات فى اوروبا منذ

انقراض الدولة الرومانية * الى اوائل القرن السادس عشر

من السنين المسيحيه * ترجمه من اللغة الفرنساويه *

ونظمه فى سلك التواريخ العربية * خليفة افندى

رئيس قسم ترجمة ادبيات بقلم ترجمة بديوان

المدارس المصريه * ادام الله ولى

النعم صاحب تلك الآثار *

وجعله وسلالته انصارا

لدولة العرفان

بامصار تلك

الديار

امين

(المجلد الاول)



بسم الله الرحمن الرحيم

امابعد حمد الله الاول الاخر* والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله ذوى المفاخر* فيقول مترجمه الفقير الى الله الودود* خليفة بن محمود* لما يسر الله تعالى تتميم اتحاف الملوك الالبا* بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا* وكمل طبعه بامر الخديوى الاكرم * ذى الفيض الاعم* وكان مقدمة لتاريخ الايمبراطور شرلكان استحسن ترجمة التاريخ بجمعه لما فيه من الفوائد السياسية الزاهرة* والفرائد البوليتيقية الباهرة* بذلت الهمة فى تعريبه* وتنقيحه وتهذيبه* وازداد تهذيبا بمقابلته مع رب البلاغة والتدقيق* من اوتى فى هذا الفن مفاتيح كنوز الحقيقة والتحقيق* حضرة رفاعة افندى ناظر قلم الترجمة والكتاب المذكور فى اللغة التى ترجمته منها اربعة مجلدات* غير ها مرتبة على عدد

المقدمة

المقدمة من الكتاب القديمة اعنى (اتحاف الملوك الالبا مرسومة بالمجلد الاول والثانى هو اول مجلد من التاريخ ولكن بنا على ان المقدمة كتاب مستقل برأسه وان كان يتوقف عليها فهم تاريخ الامبراطور شرلكان جعلت لمجلدات التاريخ المذكور نمرة مخصوصة كما حصل نظير ذلك فى الكتب العربية القديمة من جعل المقدمة والذيل مستقلين برأسهما كمقدمة كتاب ابن خلدون وذيل تذكرة داود وسميته باتحاف ملوك الزمان *بتاريخ الامبراطور شرلكان* ونسأل الله التوفيق * والارشاد الى اقوم طريق

(المقالة الاولى)

سنة ١٥٠٠
ولادة شرلكان

ولد شرلكان بمدينة غنده فى اربعة وعشرين من شهر اشباط سنة ١٥٠٠ مسيحية وهو ابن فيليبش لوبيل ارشدوق اوستوسيا ابن الامبراطور مكسميليان والاميرة مارية بنت كرلوس لوهردى اخر امراء عائلة بورغونيا ولم يكن له من الذرية غير هذه الاميرة وام شرلكان هى حانة بنت فرديننده ملك اراغون وايزابيله ملكة قسطيلة فبتداول عدة حوادث سعيدة مدة طويلة ورث شرلكان اراضى التراضية واسعة لم تحز على مثلها احد من ملوك اوروبا منذ زمن الامبراطور شرلمانيا لان اجداده اكتسبوا بالوراثة ممالك واقاليم عظيمة وان كانت اسباب ميراثهم فيها واهية بعيدة جدا وكان لا يخطر ببال احد ان الاراضى الواسعة التى كانت للاميرة مارية البورغونية تنتقل ذات يوم الى عائلة اوستوسيا لان اباها كان قد وعدها ان يزوجها الابن لويز الحادى عشر ملك فرانسا الذى لم يكن له غيره لكن ابى لويز المذكور ذلك لما انه كان مستهجن الطبع وكان يكره عائلة بورغونيا ورأى ان اخذه لبعض اراضى الاميرة مارية بطريق القهر والغلبة اولى من اخذها كلها بواسطة الزوجية فصارت عاقبة ذلك عاقبة سوء وشوم الذرية حيث ترتب عليه ان صارت مملكة البلاد الواطية وبلاد الفرنشقونتة بين ايدى خصمه •

مطلب
اصل اراضيه وممالكه

سنة ١٥٠٠

واما الملكة ايزابيلة بنت حنا الثانى ملك قسطيلة فكان يستبعد عليها

سنة ١٥٠٤
انها سترث الممالك الكبيرة التي آلت اليها فيما بعد وورثها عنها حفيدها شرلكان لانها قضت اوائل عمرها في الفاقة والخمول لكن لما غضب اهل قسطيلة من اخيها الملك هنرى الرابع لما انه مع سخافة عقله في الادارة والتدبير كان شقيا طاغيا زعموا انه عنين لا قدرة له على الجماع واتهموا امرأته بالزنا فبعد موته طرد القسطيليون بنته حانه عن الكرسي الملوكي وجبروها على الارتحال الى بلاد البورتغال وولوا عمتها ايزابيلة عليهم مع ان هنرى الرابع لم يزل ينفي ما اتهمت امرأته به ويعترف بان حانه بنته من صلبه الى ان حضرته الوفاة بل عقد في هذا الشان مشورة وكلاء المملكة وحكم اربابها بانها هي التي ترث ملكه من بعده

واما السبب في استيلاء فرديننsee على تاج مملكة اراغون فهو موت اخيه الاكبر فجأة فلما صار ملكا على اراغون بعد موت اخيه المذكور هتك حرمة المشارطات وحقوق القرابة وتغلب على مملكتي نابلي وسيسليا وزيادة على ذلك استكشف الماهر كرستوف كولومب بقدح فكرته وبهمته وجسارته في سعيه السعيد الذي هو اعظم سعي ذكر في التواريخ البشرية الدنيا الجديدة (وهي بلاد امريقة) فانضمت الى الممالك السابقة وصارت تحت حكم فرديننـد ولا شك ان محصولات امريقة كانت من اعظم الوسايط التي كان بها بأس ملوك اسبانيا وازدياد صولتهم

سنة ١٥٠٢
جيء فيليبش ابي رلكان وحانة امه الى بلاد اسبانيا
فلما رأى فرديننـد وايزابيلة ان ابنهما الامير حنا الذي لم يكن لهما غيره من الذكور وبنتهما البكرية ملكة البورتغال قد نشبت بهما اظفار المنية في عنفوان شبابهما تعلقت امالهما ببنتهما حانه ام شرلكان وقصر ارجا هما عليها وعلى ذريتها ولما كان الارشدوق غريبا عن اسبانيا واجنبيا من اهلها استصوب الملك فرديننـد وزوجته ايزابيلة ان يحضراه الى اسبانيا ليقيم بين اهاليها ويتعلم شرائعهم ويتعود على اخلاقهم حيث انه معد لان يصير ذات يوم ملكا عليهم وله هو وزوجته حانه حق في ولاية العهد لا تمنعه مشورة القورطس التي كان لها حينئذ صولة عظيمة

في مملكة اسبانيا بحيث كان لا ينفذ حكم ولا يثبت لاحد حق في التاج الا برضاء تلك المشورة وقدم فيليبش وامرأته بمملكة فرانسا وهما ذاهبان الى اسبانيا فتلقيا فيها بغاية الترحيب والاحترام واكرما الاكرام التام واذعن فيليبش لملك فرانسا لويز الثاني عشر بالانقياد والطاعة فيما يخص قونتية الفلمنك وعقد في مجلس پرلمان مدينة پاريس من جملة وجاق البير (اى رجال المملكة) ولما وصلا الى اسبانيا تلقيا مع احتفالات التشريف الجديرة بان يفعلها الملوك لابنائهم ومع غاية التعظيم والتبجيل من الرعايا وعما قليل ثبت لهما حق وراثة تاجي مملكة قسطيلة ومملكة اراغون باقرار وكلاء اهالى هاتين المملكتين

مطلب
غيرة فرديننند من فيليبش

ولكن مع هذه المسار الظاهرة كان كل من الامير فيليبش والملك فرديننند في عذاب اليم من الغم الذى كان يغلي في بطونهما كغلي الحميم اما غم فيليبش فلان رسوم ديوان اسبانيا وعوايده كانت صعبة متكلفة فلم يمكنه تحملها ولم تطقها نفسه لانه كان صغير السن حليم الطبع لين الجانب يحب مجالس الانس والخلاعة وانواع المسرات فلم يمكث مدة الا واظهر القلق وعزم على الرجوع الى اصل غرسه ومسقط رأسه لما ان اخلاقه وعوايده تلائم طبعه اكثر من اخلاق اهل اسبانيا وعوايدهم واما غم الملك فرديننند فلان صحة الملكة ايزابيله زوجته كانت دائما في الضعف والتناقص وكان يعلم انه بعد فقدها لا يبقى له حق في حكومة مملكة قسطيلة وكان قد ظهر له من حال الامير فيليبش انه متشوق جدا للحكم ومنتظر وقته مع القلق والجزع فكان يخشى ان هذا الامير بعد فقد ايزابيله لا يرضى ان يترك له شيأ في حكومة قسطيلة ولما كان في ذلك نقص لشوكته وممالكه وكان طماعا حريصا صار معذبا به في جميع اوقاته

مطلب
حيرة الملكة ايزابيله وآلامها من اجل بنتها

واما الملكة ايزابيله فكانت لا تهنأ لها عيشة بسبب بنتها جانه لما ان زوجها فيليبش كان يحتقرها ولا يحبها اذ كانت خالية عن جميع المحاسن الحسية والصفات الجيدة المعنوية التي تستميل بها المرأة قلب زوجها وكانت

بالطبع خفيفة العقل فكانت عرضة لخبل متواتر وكانت تحب زوجها فيليبش حبا شديدا او وده المودة التامة وهو يبغضها حيث كان حبها فيه يلجئها الى فعل امور يسأم منها وكانت غيرتها الشديدة عليه تفضى بها الى ما يعد من الجنون وان كانت معذورة فى ذلك وكانت امها ايزابيله لا تنكر عيوبها الا انها كانت تتاسف كثيرا على حالها المحزن وعما قليل زاد حزنها واشتدت آلامها حين عزم زوجها فيليبش فى فصل الشتاء ان يسافر الى بلاد الفلمنك ويتركها فى بلاد اسبانيا فجعلت امها ايزابيله تحاول بلا طائل تغيير مقصده وتخبره بان زوجته حانه قد قرب اوان وضعها واذا تركها كئيبة حزينة من بعده تكون عرضة لخطر عظيم وتضرعت اليه زوجته نفسها طالبة منه ان يؤخر السفر ولو ثلاثة ايام لتحظى بانسه مدة عيد الميلاد وكذلك الملك فرديناند ابدى له انه ليس من الحزم والاصابة ارتحاله عن اسبانيا قبل ان يعرف اخلاق اهلها ويستميلهم اليه حيث انه سيصير ذات يوم ملكا عليهم ولكن كان فيليبش مصمما كل التصميم على ما عزم عليه فلم يصغ لقول احد منهم فعند ذلك اوصاه فرديناند أن لا يمر فى سفره بمملكة فرانسا حيث كانت وقتئذ نيران الحرب مضطرمة بينها وبين اسبانيا فسافر فيليبش الى البلاد الواطية فى ٢٢ من شهر كانون الاول ومر فى سفره بمملكة فرانسا ولم يلتفت لما يقتضيه الحزم والمروة حيث خالف وصية فرديناند بمروره بالمملكة المذكورة ولم يرث لحال زوجته فلما سافر وترك زوجته حانه صارت فى احزان واشجان اورثتها ماليخوليا شديدة بحيث كان لا يمكن ان تتسلى بشئ بعده وفى اثناء ذلك وضعت فرديناند وكان ثانى ولد حملت به فصار اعلان السرور والفرح بولادة هذا الامير فى جميع بلاد اسبانيا كل ذلك ولم يحصل لامه فرح بولادته لانها كانت لا تتأثر بشئ من المسرات ولا ترغب الا فى اجتماعها بزوجها ولم يحصل لها راحة وامن كما لم يسكن عقلها الا بعد ان اجتمعت به فى العام القابل بمدينة بروسيله

سنة ١٥٠٢

ابـــــ
(١) هو فرديناند الذى صار امبراطور رافيا

ولما

ولما مر فيليبش فى سفره بمملكة فرانسا اجتمع بملكها لويز الثانى عشر وعقد معه مشارطة امل بها فض المشاجرات الحاصلة بين فرانسا واسبانيا ولكن لما كان لاهل اسبانيا وقتئذ ظفر عظيم ببلاد ايطاليا حيث كان لهم فيها الماهر غونسلودوكوردو وكان دائما ينتصر على الفرنساوية ويضعف قواهم حتى سمى بالسردار الاعظم لم يعبأ فرديننداد بالمشارطة التى عقدها زوج بنته مع ملك فرانسا واستمر الحال على ما كان عليه بل ازدادت نيران الحروب بين الفريقين

ومن وقتئذ لم يظهر ان فيليبش تصدى الى الدخول فى مصالح اسبانيا فى شئ بل جعل ينتظر بدون سعى موت فرديننداد او زوجته ايزابيله ليجلس على كرسى من يموت منهما فلم تمض عليه مدة طويلة الا وبلغ مرامه وذلك لان موت اولاد ايزابيله الذى ادركتهم فى زمن صباهم وريعان شبابهم اودع فى قلبها من الكآبة والحزن ما لا يطاق فكانت اولا تتسلى ببنتها حانه واولادها فلما رأت ان صحة بنتها آخذة دائما فى التناقص والضعف وان زوجها لا يرأف بها ولا يودها ولو فى الظاهر تراكمت عليها الهموم واشتد بها الحال واخذت قواها تضعف شيأ فشيأ حتى ماتت بعد شهور قليلة بمدينة المادن دلكمبو فى السادس والعشرين من شهر تشرين الثانى سنة ١٥٠٤ من الميلاد وكانت هذه الاميرة مشهورة بالفضائل والمعارف فهى جديرة بما اثنى به عليها مورخو اسبانيا من الثناء الجميل سواء كان ذلك بالنظر الى وصف كونها ملكة او زوجة او والدة يعنى انها كانت موفية بما يجب على النساء لازواجهن والملوك لرعاياهم والامهات لاولادهن

مطلب
ايصاء ايزابيله لزوجها فرديننداد بان يكون قيما على مملكة قسطيله

وقبل موتها بمدة كتبت وصيتها وذلك لانها لما كانت تعلم ان بنتها حانه لا يمكنها ان تمسك زمام مملكة قسطيله وكانت تابى نفسها ان تعطيها للامير فيليبش لانها ماتت مغضبة منه اوصت لزوجها ان يقوم بادارة المملكة المذكورة على سبيل النيابة حتى يبلغ سبطها كرلوس حد العشرين واوصت له ايضا بنصف الايرادات التى تأتى من الهند وبالرياسة على الطوائف العسكرية الثلاثة وهو

سنة ١٥٠٤

منصب يكسب صاحبه السطوة والصولة العظيمة حتى يكاد يجعله قائما بنفسه فمن ثم اضافته ايزابيلا الى المنصب الملوكى وجعلته من خصوصيات الملك ولكن قبل ان تقع امضاءها على الوصية اخذت على فرديننند ميثاقا ان لا يبحث بواسطة زواج او نحوه عما فيه حرمان بنتها حانه وذريتها من شئ من ممالكها

مطلب
اقرار فرديننند على نيابة مملكة قسطيله

وبمجرد موتها خلفها فرديننند ولقب ملكا على قسطيله واعلن ان حانه وزوجها فيليبش هما اللذان لهما الحكم الحقيقى على هذه المملكة واما هو فليس ملكا عليها الا بطريق النيابة واقرت ذلك مشورة وكلاء المملكة لكن بعد التوقف والصعوبة بسبب بغض اهل قسطيله واهل اراغون لبعضهم نعم انهم مكثوا قبل ذلك نحو ثلاثين سنة وهم فى الاتحاد والالفة الا ان البغضاء والعداوة التى بينهم من قديم الزمان كانت لم تزل فى قلوبهم حتى ان اهل قسطيله منعهم كبرهم وتعاظمهم ان يتقلد والحكومة ملك اراغون وابوا ان يتوجوا فرديننند بتاج مملكتهم وزيادة على ذلك كانوا يعرفون اخلاق فرديننند حق المعرفة فرأوا انه لا يصلح ان يكون ملكا عليهم وذلك انه كان كثير الوسوسة سئ الظن ينظر فى عواقب الامور ويسلك فى اموره سبيل الجد والصعوبة والاقتصاد المفرط حسودا ولوعلى سفاسف الامور يجازى صاحب العمل الجليل بالقليل فكثيرا ما كان يتأسف اهل قسطيله على فقد ملكتهم ايزابيله لما انها كانت لينة العريكة حلية الطبع ترفق بهم وتحبهم فكانت غالبا تلطف باخلاقها الجميلة شراسة اخلاق زوجها ومن المعلوم ان فرديننند كان مذهبه فى ادارته واحكامه الاجحاف بالاكابر والامراء فكثيرا ما سعى مع الاجتهاد فى اضعاف شوكة الاشراف الخارجة عن الحد وتقوية الشوكة الملوكية وطالما اخذ بناصر كل تابع تعدى عليه ملتزمه اوسيده وزاد فى مزايا المدن وخصوصياتها فبهذه الاسباب كلها تعصب عليه حزب عظيم من اهل قسطيله ومع ان هذا الحزب لم يصل خروجه الى حد الفتنة والقيام عليه الا ان فرديننند كان يتيقن انه لو حصل لهذا الحزب ادنى

تحريض

سنة ١٥٠٤

تحريض من الملك الجديد الذى هو فيليبش لكانت عاقبته عليه سيئة مشؤمة

مطلب
سعى فيليبش فى الاستيلاء على حكومة قسطيلة

وقد وقع الاضطراب ايضا فى البلاد الواطية حين وصل اليها خبر موت الملكة ايزابيله واستيلاء زوجها فرديننـد على حكومة قسطيلة لان فيليبش لم يكن عنده صبر ولا تجلد حتى يطيق مخمصله الملك فرديننـد من تغلبه على مملكة قسطيلة طمعا من غيران يكون له فيها حق فكان يزعم فيليبش انه ان كانت الاميرة حانة بنت ايزابيلة لا تصلح ان تكون حاكمة على مملكة قسطيلة لضعفها عن الادارة بسبب ما هو قائم بها من الداء العضال كان له الحق فى النيابة عنها لانه زوجها وان لم يمكن ذلك ايضا لكرلوس لكونه قاصرا فله ايضا الحق فى النيابة عنه لانه والده ووصيه بالطبع فعلى كل حال ينبغى ان لا يستولى غيره على المملكة ولا يخفى ان الوصية التى كتبتها ايزابيلة قبل موتها الاتكفى فى نقض هذه الحقوق الاكيدة الشرعية لاسيما ولم يقع الاتفاق على صحتها الا انها من باب الافتيات والتعدى وقد وافق ذلك حصول حادثة حملت فيليبش على التصميم على تنجيز غرضه وهى حضور منويل عنده وذلك انه كان الجيا من طرف فرديننـد فى ديوان ايمبراطور النمسا فلما اخبر بموت الملكة ايزابيلة سار الى مدينة بروكسيلة مؤملا ان يكون له بديوان ملك شاب سخى من نفوذ الكلمة والرفعة ما لا يمكنه ان يطمع فى نواله بديوان شيخ بخيل كفرديننـد وكان فيليبش مدة مكثه ببلاد اسبانيا قد استمال اليه هذا الامير الذى نشأ فى ديوان فرديننـد وتمكن من معرفة ادارة المصالح فكان فى وسعه معارضة مقاصد فرديننـد وسياسته بمعارف وحيل ليست دون معارف فرديننـد وحيله فانحط رأى منويل المذكور على ان يبعث رسلا الى فرديننـد ليلزموه بالذهاب الى مملكة اراغون ويسلم مملكة قسطيلة الى من يختاره فيليبش ويخصه بالنيابة عنه حتى يذهب بنفسه ويجلس على كرسيها ويجعل فيليبش حينئذ يستميل عقول اشراف قسطيلة الذين كانوا فى غيظ كبير من الملك فرديننـد

مطلب
بعث فيليبش الى فرديننـد أن يسلم مملكة قسطيلة ويذهب الى مملكته

سنة ١٥٠٤

ويحرضهم ويحثهم كل الحث على العصيان والخروج عليه وعقد ايضا مع لويز الثاني عشر ملك فرانسا مشارطة معتقدا انه بذلك يستميل قلب هذا الملك فيعينه على مشروعاته

هذا ولم يبق طريق الا وسلكه فرديننند لاجل ابقاء نفسه ملكا على قسطيلة فاتخذ له امينا من اشراف اراغون يسمى كونشيلوس واناطه بنقل المراسلات السرية بينه وبين بنته حانة ولما كانت ضعيفة العقل قليلة الحيلة بلغ هذا الامين منها أن كتبت لابيها فرديننند واقرته على النيابة على مملكة قسطيلة ولكن لم تخف هذه الدسيسة على الامير منويل لحذقه وفراسته فقبض على مكتوب الاقرار الذى كتبته حانة ووضع كونشيلوس فى ديماس مظلم وحجبت حانة فى جهة من القصر ومنع خدمها الاسبانيون أن يدنوا منها

فلما رأى فرديننند ما حصل من كشف سره لحقه غم شديد وازداد ذلك بما عاينه من نجاح الرسل المبعوثين من طرف فيليبش الى قسطيلة حيث ان بعض الاشراف احتجب وتحصن فى قصوره وبعضهم احتجب فى مدائنه التى له فيها شوكة ونفوذ كلمة وتعصبوا فيما بينهم على فرديننند واخذوا يجمعون اتباعهم حتى خلى ديوان فرديننند عن الاهل ولم يبق فيه من الاعيان الا اكزيمينيس ودوق البه والملتزم دوريه بخلاف بيوت رسل فيليبش فلا زال يتواردعليها كل يوم اكابر الاشراف واعيانهم فلما تخلى جميع الناس عن فرديننند ولحقه الخزى من كونه رأى الامير منويل مع صغر سنه قد تمكن بسياسته من افساد حيله وتدبيره غضب غضبا شديدا حتى هتك حرمة النواميس الطبيعية الرابطة بين الآباء وابنائهم وخلع برقع الحيا فعزم على حرمان بنته حانة وذريتها من تاج قسطيلة حيث رأى ان ذلك اولى عنده من خلعه بهذه المثابة عن نيابة تلك المملكة وهذا المقصد وان كان قبيحا فى ذاته صعب التنجيز الا انه صمم على تتميمه فطلب ان يتزوج بالاميرة حانة بنت الملك هنرى الرابع مع ان الملكة ايزابيله كانت

تخلى اشراف قسطيلة عن الملك فرديننند

لم ترث كرسي قسطيلة الابعد ادعاء اهل تلك المملكة ان هذه الاميرة متولدة من الزنا وانه لا حق لها في المملكة لكونها ليست بنت هنري المذكور فظن فرديننند انه ان تزوج بهذه الاميرة التي حاربها سابقا بنفسه مع جيوشه يمكنه ان يحيي حقوقها في مملكة قسطيلة ويعود الى الاستيلاء عليها الان اعمنويل ملك البورتغال الذي كانت حانة المذكورة قاطنة ببلاده وكان متزوجا باحدى بنات الملك فرديننند والملكة ايزابيلة لم يقر هذا النكاح حيث انه في غير محله خصوصا وحانة المذكورة بنت هنري مكثت مدة طويلة مترهبة في دير فزالت من قلبها علائق الدنيا ودواعي المعالي والفخار فاظهرت انه لا حاجة لها بمثل هذا الزواج

مطلب زواج فرديننند بنت اخت ملك فرانسا

ومع ذلك فبعد ان ايس فرديننند من تنفيذ ما طمع فيه وجد وسائل جديدة تعينه على تنجيز مقصده الذي صمم عليه فبعد ان خاب سعيه بمملكة البورتغال جعل مملكة فرانسا مطمح نظره وطلب ان يتزوج بالاميرة جرمين روفواكس بنت الويقونته دونربون والاميرة مارية اخت الملك لويز الثاني عشر وكان الحرب الحاصل وقتئذ ما بين لويز المذكور وفرديننند مشؤما على لويز فسر لما طلبه فرديننند وبادر بقبول هذا الامر حيث انه يكون به عقد الصلح على وجه لطيف لا يخل بمقامه هذا ومع ان فرديننند كان بمكانة من الكياسة والحزم بحيث لم يفقه في ذلك احد من الملوك لانه كان يوثر الاسباب السياسية على الاغراض التي تدعوه اليها نفسه ولا يتصدى لمقصد سولته له آماله الا بعد الوقوف على حقيقته ومعرفة عاقبته كان غضبه شديدا من صهره فيليبش حتى انه لاجل ان يفصل عنه حليفه لويز الثاني عشر ويخلعه عن كرسي اراغون عزم على تمزيق اسبانيا وتقسيمها الى عدة ممالك كما كانت قبل ذلك مع ان انضمامها الى بعضها وجعلها مملكة واحدة هو الذي اشهر حكومته واكسبه الفخار وكان مطمح نظره ورضيت نفسه ان يعيد الى اشراف نابلي الذين هم من احزاب الفرنساوية جميع املاكهم ومزاياهم وعرض نفسه للسخرية والاستهزاء

سنة ١٥٠٤ بحيث تزوج مع كبر سنه بفتاة لم تبلغ من العمر الا ثمانى عشرة سنة
فتأثر الامير فيليبش من هذا النكاح تأثرا شديدا حيث فصل عنه حليفه لويز الثانى عشر ولم يكن له حليف سواه فخشى ان يترتب على ذلك حرمانه من ممالك اسبانيا العديدة فعند ذلك رأى الامير منويل انه يلزم المبادرة الى سلوك طريقة اخرى فى شأن قسطيلة فارسل اعلاما جديدا الى رسل الفلمنك الذين كانوا ابدا بديوان اسبانيا وامرهم ان يخبروا فرديننند بان اميرهم فيليبش له رغبة عظيمة فى ان يبطل بالتى هى احسن ما بينهما من المشاجرة ويرضى بقبول كل شرط يعرض عليه لتجديد المحبة التى ينبغى دوامها بين الاصهار ولم يسبق لاحد من الملوك انه عقد او نقض من المشارطات اكثر من الملك فرديننند الا انه كان يصدق الغير ولا يمتنع ابدا عن استماع ما يعرض عليه فخنع من غير توقف الى قول رسل فيليبش وعقد بعد ذلك بمدة قليلة فى مدينة سلمنك مشارطة بها حصل الاتفاق على ان ادارة مملكة قسطيلة تكون باسم الاميرة حانة وزوجها فيليبش والملك فرديننند وان ايرادات ~~المملكة~~ محصولات المناصب تكون بالمناصفة بين فرديننند وفيليبش

مطلب المشارطة التى حصلت بين فرديننند وفيليبش فى ٢٤ من تشرين الثانى

ولكن كان فيليبش فى الباطن لا يعتبر هذه المشارطة الا آلة يتوصل بها الى مآربه وبعد ذلك يبادر بنقضها فكان قصده بها مشاغلة فرديننند حتى يمكنه ان يسافر الى بلاد اسبانيا من غير ان يتصدى فرديننند لمنعه ويسد السبل امامه وقد نجح بهذه الحيلة وبلغ مآربه وذلك ان فرديننند مع ما كان عليه من الحزم والتبصر مكث مدة وهو لا يخطر بباله مقصد صهره فيليبش وبمجرد ما اخبر به طلب من ملك فرانسا ان يحسن للامير فيليبش العدول عن هذا السفر بل ويزجره عنه بالتهديد والتخويف وطلب ايضا من دوق غولدرة ان يشن الغارة على دولة التى بالبلاد الواطية ليشغله عن السفر ولكن جميع هذه الاحتراسات لم تمنع فيليبش وزوجته حانة عن السفر فسافرا فى دونمة كبيرة واخذا معهما طائفة كبيرة من العساكر البرية الا انه

مطلب سفر فيليبش وزوجته حانة الى بلاد اسبانيا سنة ١٥٠٦

فى اثناء

في اثناء السفر هبت عليهما رياح عاصفة حملتهما على ان يرسوا ببلاد انكلتره فجعل فرديننذ يترجى ملكها هنري السابع حتى حجزهما عنده اكثر من ثلاثة اشهر وبعد ذلك رخص لهما في الرحيل فسافرا من غير ان يحصل لهما عائق يمنعهما في ٢٨ من شهر ابريل حتى وصلا سالمين الى قورونه في غاليسة فلم يتجاسر فرديننذ على ان يجند الجنود ليمنعهما عن الخروج من السفن كما كان مصمما عليه

مطلب ميل اشراف قسطيلة الى حزب فيليبش

وكان اشراف قسطيلة الى ذلك الوقت لم يتجاسروا على افشاء ما في ضميرهم فعند وصول فيليبش اليهم انضموا الى حزبه وصاروا ياتون اليه من اطراف المملكة وارجائها وهرع اليه من سائر مملكة قسطيلة الاكابر والملتزمون مع اتباعهم ليدخلوا في خدمته وانعقدت مشورة حكم فيها ببطلان المشارطة التي تحصلت في سلمنك واتفقت الاراء على طرد فرديننذ من مملكة قسطيلة حيث رضي بانفصالها عن مملكتي اراغون و نابلي لان ذلك يدل على انه لا يرغب فيما فيه مصلحتها وراحة اهلها فلما تخلى جميع القسطيليين عن فرديننذ وخرجوا عليه صار متحيرا ما بين ترك حكومة قسطيلة بدون حرب وشقاق واشهار الحرب لنزعها من خصمه فاعرض للامير فيليبش انه يريد مقابلته ليتفاوضا في هذا الشان والح عليه في ذلك فلم يبلغ مرامه لان الامير منويل كان يمنعه من ذلك وكان فرديننذ يرى ان حزب فيليبش دائما في الازدياد فعلم انه لا طائل في التصدي الى مقاومة احزابه التي كانت كالسيل العرم فعقد مشارطة جديدة مضمونها انه يتخلى للامير فيليبش عن نيابة قسطيلة ويذهب الى مملكة اراغون التي هي وراثية له ولكن تبقى له الرياسة على الطوائف الثلاثة العسكرية ولا يحرم ايضا من الايراد الذي اوصت به زوجته ايزابيلة له قبل موتها فلم يظهر حينئذ داع قوي يستدعي مقابلتهما لبعضهما ولكن لما كان الملايم للمروءة والانسانية مقابلتهما لان فرديننذ كان يرغب في ذلك كل الرغبة ذهب فيليبش الى المحل المعد بينهما للمقابلة في رونق ومحفل عظيم من اشراف قسطيلة واعيانها وطائفة

مطلب تخلي فرديننذ عن نيابة قسطيلة وذهابه الى مملكة اراغون في ٢٨ من شهر حزيران

سنة ١٥٠٦

كبيرة من العساكر المتسلحة واما فرديننــد فذهب ولم يكن معه الابعض خدم لا سلاح بايديهم فاخذ منويل حينئذ يباهى فرديننــد ويفتخر عليه بما اكتسبه فى خدمة فيليبش من الشوكة والصولة والحظوة عنده فلحق بفرديننــد من ذلك الخزى بين اهل قسطيلة الذين كانوا رعيته سابقا وصارت نفسه تكابد ألمين شديدين لا يطيق تحملهما ملك طماع مخادع مثله احدهما هو انه مع كبر سنه وخبرته ومكانته من السياسة والحزم ظهر عليه مثل هذا الشاب الصغير وحطه عن درجته وافسد عليه ما دبره والثانى هو ضياع مما لكه منه

وبعد ذلك بمدة قليلة سافر فرديننــد الى مملكة اراغون وكان يامل ان يساعده الدهر فى رجوعه ملكا على قسطيلة فاشهد بعض الناس سرا على بطلان المشارطة التى انعقدت بينه وبين صهره فيليبش واقر بانها قد انعقدت كرها فتكون ملغاة لا اعتداد بها

مطلب
اقرار مشورة وكلاء المملكة فيليبش وزوجته حانة على حكومة مملكة قسطيلة

فاستولى فيليبش على مملكته الجديدة مع السرور الذى يحصل عادة للشبان من مثل هذا المنصب واما زوجته حانة سيئة البخت التى كانت سببا له فى تلك السعادة فقضت عليها مدة هذه المنازعات وهى فى عذاب اليم وكرب عظيم من المالنخوليا التى كانت قائمة بها فكان لا يؤذن لها فى الخروج بين الناس الا نادرا حتى ان اباها فرديننــد طلب ان يراها فلم يمكنه وكان قصد زوجها فيليبش ان ارباب مشورة وكلاء المملكة يحكمون بانها لا تصلح للحكم حتى لا يشركها احد فى مملكة قسطيلة الى ان يبلغ ابنه كرلوس رشده ولكن لم ينجح فى هذا القصد لما ان اهل قسطيلة كانوا يحبونها لانها هى بقية عائلتهم الملوكية الاصلية نعم قد امكن للامير منويل بسياسته وحزمه ان يأخذ بعقول بعض الناس من ارباب المشورة التى انعقدت فى مدينة ولادوليد وكان هناك اناس آخرون مستعدون لتنفيذ مقاصد فيليبش ولكن لم يرض جمهور ارباب تلك المشورة باقراره على ذلك لما انهم كانوا يعدونه نقصا فى حق عائلتهم الملوكية فحكموا بان المملكة تكون لكل من فيليبش

وزوجته جانة وان ابنهما كرلوس يكون اميرا على اقاليم استوري
ولم يكن لفيليبش من الحوادث السياسية الشهيرة سوى هذه
الحادثة وبعدها انهمك على الشهوات واللذات فاصابته حمى شديدة مات بها
وكان فى عمره الثمانية والعشرين فلم يحظ ثلاثة اشهر كاملة بالمنصب الملوكى
الذى شمر عن ساعد الجد فى طلبه وتحصيله

سنة ١٥٠٦

مطلب
موت فيليبش فى ٢٥ من شهر ايلول

وبموته صارت مملكة قسطيلة لزوجته جانة . لا يشركها فيها احد ولكن
حصل لها تأثر من موته اوجب خلل عقلها وصارت . لا تصلح بالكلية لادارة
المملكة رأسا فكانت لا تفارق فراش زوجها مدة مرضه ولم يمكن باى وجه
ابعادها عنه ولو طرفة عين مع انها كانت حاملا فى ستة اشهر وعند
خروج روحه لم تدمع عينها ولم تتأوه ابدا بل كانت آلامها خفية وكآبتها باطنية
لا تظهر عليها ولم تزل عاكفة على جثة فيليبش وتنظر اليه بعين الشفقة
والرأفة كما لو كان حيا وبعد ان أذنت بدفنه ودفن اخرجته من القبر وحملته الى
قصرها ووضعته على سرير نفيس مكسو بحلل فاخرة بهية من انواع الحرير
والديباج لانها كانت سمعت فى حكايات بعض الرهبان والقسوس ان بعض
الملوك حلت فى بدنه الحياة بعد موته باربع عشرة سنة فكانت دائما تشخص
البصر الى جسم فيليبش مترقبة الوقت السعيد الذى تعود فيه اليه الحياة
واغرب من ذلك انها كانت تغار عليه وهو ميت كما فى حال حياته فكانت
لا تأذن لنسائها التى يخدمنها ان يقربن من فراشه واما النساء الاجنبيات
فكانت لا تأذن لهن فى الدخول الى الجهة التى بها جثته حتى انها عند وضعها
لم ترض بان يدخل بعض القوابل لاجل مساعدتها على الولادة مع ان هذه
القابلة قد انتخبت قصدا من العجائز فوضعت الاميرة كاترينة من غير
مساعدة احد غير خدمها

مطلب
ازدياد اختلال عقل جانة

ومن المعلوم ان المرأة اذا كانت بهذه المثابة لا تصلح لادارة مملكة عظيمة كمملكة
قسطيلة وزيادة على ذلك كانت لا تنفك تنحب على زوجها وتدعو له بالرحمة
حتى كانت ترى انها لو التفتت لمصالح الدولة لما وفت بما يجب عليها له فابت ان

تقوم بتدبير المملكة ولغيرتها لم تطق ان تقيم لها وكيلا على المملكة يقوم بمصالحها وادارة امورها فصار رعاياها يتضرعون اليها كل التضرع فى ان تقيم لها وكيلا او تضع امضاءها على الاوامر اللازمة لاجراء القوانين ونشر الامن والاطمئنان فى المملكة فابت ان تفعل شيأ من ذلك •

فصار اهل قسطيلة فى حيرة عظيمة حيث انهم عند جنون ملكتهم كان ولدها كرلوس لم يبلغ سن الرشد حتى يقيموه محلها فرأوا انه لابد من اقامة وكيل على المملكة يقوم بامورها لكن لم يجدوا فى اشراف قسطيلة احدا ذا فضل شهير فى المعارف والحزم حتى يكون جديرا بان يدعى الى هذا المنصب الجليل فتعين عندهم للقيام به الملك فرديننـد او الايمبراطور مكسيمليان اما الاول فيستحق ذلك بوصف كونه نائبا عن بنته حانة لاسيما وكان يعضده فى ذلك وصية امها ايزابيلة واما الثانى فوجه استحقاقه للوكالة ان حفيده كرلوس لعدم صلاحية امه للحكم له الحق فى مملكة قسطيلة وحيث انه صغير السن فجده من جهة ابيه يكون وليه ووكيلا عنه وقد حصل لمن سعى فى طرد فرديننـد من مملكة قسطيلة غم شديد حيث رأوه قريبا من الاستيلاء عليها ثانيا وكان جبارا بالطبع لايعرف العفو ابدا لاسيما اذا تذكر ما صدر منهم فى حقه من الاساءة فانه يزداد بذلك قسوة وغلاظة واما مكسيمليان فلم يكن له شئ من هذه الاسباب يمنعه عن الاستيلاء على تلك المملكة الا انه كان لايعرف اخلاق اهلها ولاقوانينهم ولم يكن له جيوش ولامال حتى يمكنه تنفيذ اغراضه فى هذا الشان وايضا لايثبت له حق فى قسطيلة الابعد ان يعلم الخاص والعام بحال الملكة حانة وعدم صلاحيتها لادارة المملكة ومع ان حالة هذه الاميرة لم تكن اذ ذاك خافية رأى اهل قسطيلة انه ليس من المروءة اشاعة ذلك بين الناس لما انه يورث العار ويزرى بالعرض

ولكن لما كان الامير منويل وبعض اشراف قسطيلة يعتقدون انهم اول من ينتقم منهم فرديننـد ويذيقهم العذاب الاليم بسبب ما فعلوه معه جعلوا انفسهم فى حزب مكسيمليـان والتزموا بانهم يعضدونه ويدافعون عنـه

بجميع طاقتهم وكان مكسيمليان مع جسارته واقدامه على المشروعات بطيأ (سنة ١٥٠٦)
ضعيف الهمة فى تنجيزها فيقدم فى ذلك رجلا ويؤخر اخرى فبادر بالقبول
لقصد منويل ومن معه لكن لم يترتب على ذلك الا مجادلات ومحاورات
لا طائل تحتها فابدى هذا الايمبراطور حقوقه مع الابهة والتفاخر كما هى عادته
ووعد باشياء شتى لكنه لم ينجز شيأ منها

مطلب
سفر فرديننداالى مملكة نابلى

وكان فرديننند قبل موت فيليش ببعض ايام قد سافر الى مملكة نابلى
لما انه كان يسىء الظن بنائبه غونزلودوكورد ومع انه كان حسن السلوك
ذا صدق ونصح فى خدمته لا يهمل فى ادارة المملكة ومصالحها سافر
فردينند اليه ليسلبه الصولة التى اكتسبها من منصبه ولم يكتف بارسال احد
من طرفه لهذا الشان بل رأى ان الاحسن والاليق ان يذهب بنفسه الى نابلى
ويمسك بعنان حكومتها بعد عزل نائبه المذكور فلما بلغه فى مدينة بورتوفينو (سنة ١٥٠٧)
بارض جنوينه موت صهره فيليش رأى ان ذهابه الى مملكة نابلى
ليكشف الدسائس التى كان يتهم بها نائبه ويعزله من حكومة نابلى اولى من
رجوعه على عقبيه وهان عليه ان يترك مملكة قسطيلة على مثل هذه الحالة
وكان حينئذ لا يوجد بها من يقوم باصلاح حالها وادارة مصالحها فلربما كان
يترتب على غيبته ضياع حكومة قسطيلة منه وثبوتها لغيره
ولم يكن هناك ما يمنع من حصول الامور الشنيعة التى كان يمكن تسببها عن غيبة
فردينند الا معارف ندمائه وحزمهم وسداد رأيهم لا سيما كبيرهم
اكزيمينيس مطران طليطلة فانه وان كان لا يامل نيل صولة عظيمة تحت
حكم فردينند لما رآه من تنغصه منه حين ولته الملكة ايزابيلة منصب
المطرانية لم يعتبر اغراضه النفسانية بل آثر نفع المملكة على نفع نفسه واعرض
ان قسطيلة لا يحسن ادارتها سوى الملك فردينند حيث انه بكثرة
تجاربه يعرف ما يضر تلك المملكة وما ينفعها اكثر من غيره ولاجل ان يحسن
لابناء وطنه هذا الرأى ويستميلهم الى قبوله رأى انه لا بد ان يكون لين العريكة
والجانب فى حق الناس وان كان ذلك على خلاف طبيعته فخفض جناحه وصار

سنة ١٥٠٧

يواسى من يناقضه من الاشراف فجمع بين المداهنة والبراهين ليستميلهم اليه واعانه على ذلك ما ابداه فرديننده من السياسة المحكمة والتدبير العجيب حيث استمال بعض الناس بالاقطاعات والمزايا وبعضهم بزخرفة القول والمواعيد واستحوذ على الجميع بمراسلات لطيفة تسر الخاطر حتى توصل الى جذب قلوب عدة من اكبر اخصامه ونجح فى هذا المقصد غاية النجاح مع ما كان حاصلا وقتئذ من الفتن فى هذا الشان حتى انه بعد ان اصلح حالة نابلى ورجع

مطلب
رجوع فرديننده الى اسبانيا
حسن تدبيره

الى اسبانيا حظى من غير معارض ولا مناقض بنيابة مملكة قسطيلة وسلك فى الحكم بين الاهالى طريقة لطيفة وان كانت لا تخلو عن الصعوبة والتشديد فالقوم جميعا احبوه وعاش فى الامن والراحة مع وجود الحكومة الالتزامية التى من شانها الفتن والتحزبات ولم يزل بها فى امن واطمئنان حتى مات مع ان قوانين الحكومة الالتزامية كانت باقية فيها على عنفوانها وعتوها والفضل لفرديننده على سبطه كرلوس فى ابقاء السكون والامن فى مملكتى اراغون و قسطيلة بل له الفضل عليه ايضا فيما هو اعظم من ذلك وهو ان دولة كرلوس الوراثية ازدادت فى مدة نيابة جده فرديننده واتسعت دائرتها بسبب فتوحاته الجديدة التى اضيفت اليها وذلك انه اضيف الى مملكة

مطلب
فتوح مدينة وهران

قسطيلة مدينة وهران وغيرها من المدائن الحصينة الموجودة فى اطراف بلاد البربر التى هى بلاد الغرب وكان ذلك بهمة الكردينال اكزيمينيس حيث سار بالعساكر الى اهل الغرب وابدى فى قتالهم العجب العجاب من الشهامة والحمية الدينية التى شانها ان تصدر عن امناء الدين واغرب من ذلك ايضا ان جميع المصاريف التى نفدت فى هذا الحرب كانت من امواله وقد تململ فرديننده من جهة اخرى بحجج واهية غير مقبولة يعد اهتمامه بتحيزها

مطلب
اخذ مملكة نوار

من قبيل الخيانة والجبن وطرد الملك حنا دالبرطه من مملكة نوار واستوى على كرسيها بدلا عنه مع ان حق حنا المذكور فى هذه المملكة كان حقا شرعيا لا ريب فيه فاتسعت اراضى اسبانيا بهذه المملكة حتى صارت ممتدة من جبال البرنات الى حدود بلاد البورتغال

ولم

سنة ١٥٠٧ ولم يكن قصد الملك فرديننند من مشروعاته التي كان يفعلها تكثير الممالك
لسبطه كرلوس الذي ورثها بعده لانه كان يعتبره خصما يسلب منه مملكة
قسطيلة في المستقبل لا سيما قاصرا جعل هو وليا عليه ليقوم بادارة ممالكه
على سبيل النيابة والامانة حتى يبلغ رشده فكان يغار منه حتى صار يقابله منه
بغضا لا توارى فلما وضعت زوجته جرمين دوفوا كس ولدا فرح فرحا شديدا
حيث ان هذا الولد يرث ممالكه من بعده ويحرم كرلوس من مملكة اراغون
ومملكة نابلي ومملكة سيسليا ومملكة سردينيا الا ان هذا الولد لم تطل مدة حياته
وعند موته صار فرديننند كانه يتقلب على الجمر لعدم الذرية وظهر عليه القلق
سنة ١٥١٣ والجزع واظهر التلهف على ان يكون له اولاد يرثون عنه ممالكه والظاهر انه لم
ينشأ عن جزعه فائدة غير انه عجل باقامة كرلوس على كرسي اسبانيا على خلاف
مرامه وفي ذلك انه وان كان لا ينبغي له ان يتوقع نسلا لانه كان وقتئذ قد طعن
في السن وكان في مدة شبوبيته قليل العفاف منهمكا على اللذات الا انه لتلهفه
على الذرية قص امره على الاطبا وطلب منهم ما يعينه على مقصده فاعطوه
شرابا من الاشربة التي يزعم ان خاصيتها تقوية الباه مع انه لا ينشأ عنها سوى
ضعفه واتلاف الصحة كما تحقق ذلك في فرديننند فانه بعد تعاطيه هذا
الشراب اخذت صحته في التناقص والضعف خصوصا وان بنيته قبل ذلك
كانت ضعيفة فاعتراه مرض شديد وشفي منه الا انه لازمه داء السل فجعل
يزداد في السقم والنحول واختل عقله حتى صار غيره احق لادارة ممالكه واتبع
من انواع اللعب واللهو ما لا يليق بالرجال ويئس من الذرية لضعف بنيته الا انه
ازدادت غيرته من سبطه الارشدوق كرلوس وصار ينظر اليه بعين الشانئ
المبغض كما هي عادة اغلب الملوك من انهم يبغضون من هو معد لان يخلفهم على
ممالكهم وحيث بلغ بغضه لكرلوس الى هذه الدرجة كتب وصية
للامير فرديننند بالنيابة على الممالك حتى يحضر كرلوس اخوه لما انه
كان يعلم ان الامير فرديننند المذكور قد نشأ في اسبانيا فيرغب فيه اهلها
اكثر من اخيه كرلوس وقلده ايضا رياسة الطوائف العسكرية الثلاثة

مطلب
عزم الملك فرديننند على حرمان سبطه كرلوس من مملكة اسبانيا حتى كتب الوصية بذلك للامير فرديننند اخ كرلوس
سنة ١٥١٥

سنة ١٥١٥

ولا يخفى ما للملك فرديننند فى ذلك من التدبير والمكر حيث ان الامير فرديننند بالامر الاول وهو النيابة يكون له حق فى التاج الملوكى فينازع اخاه فيه وبالثانى وهو رياسته على الطوائف العسكرية يكون قائما بنفسه فى جميع احواله واطواره حتى لا يكون لاحد عليه ولاء

ولم يزل فرديننند يغار على ممالكه من غيره غيرة عجيبة الى ان مات حتى انه قبل موته بقليل دعته تلك الغيرة الى ان ينتقل من محل الى آخر كانه يفر من مرضه او يتلاهى عنه وكان حفدته يرون ان صحته دائما فى التناقص والضعف ومع ذلك كانوا لا يتجاسرون على خطابه فى هذا الشان حتى كانوا لا يأذنون لقسيس الاعتراف المرتب عليه ان يدنو منه وكان هذا القسيس يود ان يخبره بحاله لانه كان يرى ان مراعاة خاطر الملك واخفا حقيقة حاله عليه يعد من الكبائر المنهى عنها شرعا فلما اتسع الخرق عليهم وعظم خطر الملك لم يمكنهم كتمان الحق فاخبروه بان اجله قد دنا فلم ينذعر فرديننند من ذلك ولم يرعوا ابدا واحضر اليه حينئذ اقدم ندمائه واحبهم اليه وهم ثلاثة كرواجال و راباطة و وركاس ورجوه ان يغير وصيته التى كتبها واعلموه بانه ان اعطى الامير فرديننند نيابة الممالك وقع الحرب بينه وبين اخيه كرلوس لا محالة وان اعطاه رياسة الطوائف العسكرية الثلاثة ضاع من التاج الملوكى رونقه وبهجته وجرد عن اعظم قوته فاستصوب رأيهم ورثا لحال كرلوس ورأى ان ما صمم عليه فى حقه من باب الظلم والتعدى وغير هذين الامرين من وصيته وكتب ان كرلوس هو الذى يرثه وحده فى جميع ممالكه وجعل للامير فرديننند فى نظير التاج الملوكى الذى توهم انه ثبت له ارضا ايرادها فى السنة خمسون الف دينار معاملة من النقود المسماة دوقات ومات الملك فرديننند بعد ان وضع امضاءه على هذه الوصية ببعض ساعات كان ذلك فى ٢٣ من شهر كانون الثانى سنة ١٥١٦ من الميلاد

مطلب
تغيير الملك فرديننند وصيته التى كتبها

مطلب
موت فرديننند

فلما مات فرديننند ورثه شرلكان فى دوله الكثيرة وكان قد بلغ حينئذ من العمر ست عشرة سنة وكان الى ذلك الوقت قاطنا بمملكة البلاد الواطية

مطلب
ولاية كرلوس الخامس المسمى شرلكان

سنة ١٥١٦

التي ورثها عن ابيه والذي اعتنى بتربيته في صغره هي عمته مرغوريطة اميرة
الاوستريسيا ومرغوريطة اميرة بورقة اخت ادوارد الرابع ملك
انكلترة وارملة الملك كرلوس لوهردي وكانت كلتاهاتين الاميرتين ذات
فضل شهير وعلم غزير وقد منحت من كنوز المعارف والفضائل نفائس شتى وبعد
موت ابيه فيليبش اعطى اهل الفلمنك مملكة البلاد الواطية لابيه
الامبراطور مكسمليان على سبيل الوكالة لكن كانت تلك الوكالة ظاهرية
لا حقيقية حيث كان لا يتصرف في المملكة بجميع ما يقتضيه حق النيابة
فاختار مكسمليان غليوم دوكرواي ملتزم شيوره وجعله ناظرا على
حفيده كرلوس ليحسن تربيته وكان هذا الامير مستكملا لجميع الصفات
والمعارف اللازمة لمثل هذا الامر المهم فجعل يوفي به كما ينبغي وانتخب كذلك
ادريان كوتر يقطه وجعله مودبا للامير كرلوس فرقي هذا القسيس بتلك
الوظيفة اعلا مرتبة ارتقى اليها القسيسون والاحبار ولم يدع اذلك لطيب نسبه
وحسبه لانه كان مجهول الاصل ولا لصولته ونفوذ كلمته لانه لم يكن له مدخل
في مصالح الدولة وانما كان ذلك لمعارفه التي اشتهر بها بين ابناء وطنه لانه كان
ممتازا بين اقرانه بالعلوم الهزئية التي مكثت عدة قرون وهي تدعى بالعلوم
الفلسفية واشتهر ايضا بشرح وضعه على كتاب مشهور للمؤلف بطرس لومبرد
يسمى معلم الحكم كان وقتئذ معتبرا كمفتاح لكنوز العلوم اللاهوتية المستعملة
في المدارس فقبل هذا الشرح اتم القبول واستحق مؤلفه المدح والثناء ولكن
مع هذه الشهرة التي حظي بها ادريان في ذلك العصر الذي كان عصر
جهالة لوحظ بعد مدة قليلة ان مثل هذا الرجل الذي لم يخرج من المدرسة ابدا
ولم يعاشر الناس حتى يعرف امور الدنيا ويكون ذا ذوق وادب لا يصلح لتربية
الامير كرلوس وتأديبه ولا يمكنه ان يستميله الى التعليم والتحصيل ولذلك
اظهر كرلوس من صغره النفرة من العلوم وكان له رغبة شديدة في تعليم
العسكرية التي كانت وقتئذ مطمح نظر الاشراف ولا يعتنون بغيرها فكان
الرجل منهم يفخر ويتباهى بفوقانه الاقران فيها وكان الامير شيوره يستحسن

سنة ١٥١٦ منه ذلك ويقره عليه ولا يعلم هل كان ذلك تملقا منه للامير كرلوس ليستميله به اولان نفسه كانت ايضا لا تميل الى العلوم الادبية ومع ذلك بذل الهمة فى تعليمه علم الادارة والتدبير واقرأه تاريخ ممالكه وتاريخ الدول التى كان بينها وبين دوله علاقات وروابط فلما تولى كرلوس على بلاد الفلمنك سنة ١٥١٥ اهتم شيوره ان يعوده على الشغل والاجتهاد فحمله على ان يقرأ جميع الاوراق التى تخص مصالح الدولة وان يحضر مذاكرات شوراته الخاصة وان يقص بنفسه على اربابها المواد المحتاج فيها الى ارائهم وبهذه التربية تعود كرلوس على الانفة والتعالى ومالا يليق بصغر سنه مع انه فى مبدء امره لم يظهر منه ما يدل على البراعة والنجابة التى امتاز بها فيما بعد فلم يكن عنده وهو صغير من النشاط والحمية ما يظهر عادة على من يكون كثير الجد والمشروعات اذا بلغ حد الرجولية وذلك انه كان فى مبدء امره منقادا بالكلية لما يامره به الامير شيوره وغيره من ندمائه ويقبل منهم النصيحة بدون توقف وبمثل ذلك كان لا يلوح منه انه يحوز هذا العقل الواسع الثاقب والرأى الصائب الذى قام فيما بعد بمصالح نصف ممالك اوروبا وادارتها ولكن كان رعاياه مغرورين بحسن صورته ومهارته العظيمة فى المصارعة وغيرها من الالعاب البدنية فاحسنوا فيه الظن كما هى عادة الناس فى حق ملوكهم وقت الشبوبية وحكموا بان يكون له مستقبل سعيد وتزيد به بهجة الممالك التى ورثها عن جده فرديننند

مطلب طباع كرلوس فى مبدء امره

وكانت حينئذ ممالك اسبانيا تستدعى عظيم حزم وكبير عزم فى ادارتها وتحيز مصالحها كما يفهم مما ذكرناه فى اتحاف الملوك الالبا وذلك ان العوايد الالتزامية التى ادخلها كل من امة الغوطيين وامة السويوه وامة الوندالى فى اقاليمها كانت باقية بها على قوتها الاصلية وكان للاشراف شوكة قوية ومهارة فى الفنون الحربية وكانوا قد مكثوا زمنا طويلا يتمتعون بالمزايا الواسعة التى اثبتتها لهم تلك العوايد الالتزامية وكانت مدائن اسبانيا كثيرة العدد والاهل على خلاف ما تقتضيه الحكومة الالتزامية التى هى لا تلايم

التجارة والعمران ولا الضبط والربط الذى يكون به امن البلاد وراحة العباد سنة ١٥١٦
وكان لاهل تلك المدائن مدخلية عظيمة وتأثير قوى فى شأن السياسة وكان لهم
حقوق شخصية عظيمة جدا واما شوكة الملك فكانت ضعيفة بسبب مزايا
الاشراف وتطلبات الاهالى لخصايصهم وكانت محصورة فى حدود
ضيقة جدا وبالجملة فمادامت هذه الحكومة المختلة موجودة كانت اسباب
الفشل والشقاق كثيرة لا تحصى وكانت الروابط الجامعة بين اجزاء اسبانيا
واهية ضعيفة فكانت اسبانيا فى اشد المشاق والمكابدات التى تنشأ عادة
من خلل الحكومة الالتزامية وزيادة على ذلك كانت عرضة لمصائب اخرى تنشأ
عن بعض امور مختلة فى ترتيبها وقوانينها
نعم لم يقع مدة حكم فرديننـد الطويلة شئ من التعكيرات والفتن الداخلية
فى اسبانيا لانه عرف بجودة قريحته وحزمه كيف يقمع نفوس الاشراف
حتى لا تغار منهم الجمعيات البلدية فبحسن تدبيره وسياسته فى داخل بلاده
وبمهارته وحزمه فى تجهيز مشروعاته فى البلاد الاجنبية صار له موقع عظيم
فى قلوب رعاياه وثبت له عندهم فضل جزيل وقدر جليل فى المعارف وبذلك
امكنه ان يحفظ فى دولته الامن والاطمئنان وان كان الترتيب السياسى وقتئذ
لا يسوغ ذلك بل كان يلايم الفتن والتعكيرات فلما مات فرديننـد انعدمت
بموته موانع الفشل والشقاق وعادت التحزبات والتعصبات وتسلطن الهم
والحزن فى ممالك اسبانيا بعدان مكثت زمنا طويلا مستريحة منها وصارت
بعد موت فرديننـد اشنع وافظع مما كانت عليه قبله
وكان فرديننـد يتبصر فى العواقب فادرك انه لابد من وقوع هذه الفتن
والتعكيرات بعده فبحث قبل موته عما يحترس به من حصولها فكتب فى وصيته
ان اكزيمينيس مطران طليطلة هو الذى يكون نائبا عنه فى مملكة
قسطيلة حتى يحضر حفيده كرلوس الى اسبانيا وانما خص هذا المطران
بذلك لانه كان لحزمه وحسن طباعه وجميد صفاته جديرا بمثل هذا المنصب
العظيم ولذلك راينا من اللائق ان نتكلم عليه هنا بخصوصه ونذكر بعض

سنة ١٥١٦ مناقبه وصفاته العجيبة ثم نرجع الى موضوعنا فنقول كان من عشيرة طيبة الاصل
الا انها كانت قليلة الغنى والثروة تحملته العيلة والفاقة على الدخول فى زمرة
القسيسين لاسيما وقد كان يميل بالطبع الى ذلك فلما انتظم فى سلكهم فاز فى اقرب
وقت باقطاعات انعامية عظيمة حتى صار ذا ثروة فتحت له ابواب السودد
ومهدت له سبلا رقى بها الى اعلا مراتب الكنيسة ومناصب الاقسة ثم رغب
عن هذه الانعامات الكبيرة واراد الدخول فى دير سنتفرنسيس وهو من
اصعب مراتب كنيسة رومة فامتحنوه امتحانا شديدا صعبا ودخل هذا الدير
وعما قليل امتاز فيه ايضا بالعفة والزهد وحسن الاخلاق وغاية التدقيق
الذى كان اذ ذاك من اجل اخلاق المترهبين وفى اثناء مجاوزات الحد فى الدين
التى لا يقع فيها عادة سوى العقول السخيفة الزائغة التى تميل الى البدع
والترهات كان اكزيمينيس باقيا على حدة ذهنه ووفور عقله لانه كان بالطبع
جيد الرأى حاد الذهن فتنزهت قريحته عن الزيغ والضلال فلما رأى اهل
طائفته القسيسية انه يفوقهم جعلوه رئيسا على اقليم وكان مشهورا بالزهد
والتقوى فعما قليل دعى الى ان يكون قسيس اعتراف عند الملكة ايزابيلة
ومع شرف هذا المنصب وعظمه توقف فى قبوله ولم يقم به الا كرها بغير رضا وبعد
دخوله فى خدمة هذه الملكة لم يزل مستمرا على اخلاقه من الزهد والتقوى والورع
التى اشتهر بها فى الدير فكان اذا اراد الذهاب الى محل يذهب راجلا كعادته وكان
لا يتعيش الا من الصدقات وكان يكلف نفسه بالامور الشاقة كما كان قبل ذلك
فحصل للملكة ايزابيلة منه غاية الفرح والسرور وقلدته منصب مطرانية
طليطلة وهو اعظم مناصب الكنيسة الرومية بعد منصب الپاپا ومع ذلك
ابى ان يقبله حتى صدر له امر مخصوص من طرف الپاپا ولكن لم تتغير
اخلاقه بارتقائه الى هذا المنصب العالى الا انه جبر على ان يظهر فى الناس
بما يقتضيه مظهر منصبه من الابهة والرونق ومع ذلك بقى على ما كان عليه من
الشدة الدينية والصعوبة القسيسية فكان يلبس دائما تحت ثياب منصبه
الحبريه ثوبا خشنا من ثياب رهبان سنتفرنسيس وكان يخيطه بنفسه

سنة ١٥١٦ اذا تمزق وكان لا يلبس القماش الرفيع الناعم على بدنه مباشرة وكان ينام دائما من غير ان يخلع ملبوسه وينام فى الغالب على التراب او على الواح من الخشب وقل ان نام على فراش وكان لا يأكل شيأ من الاطعمة اللذيذة اللطيفة التى تقدم له فى مائدته بل كان يكتفى فى ذلك بما توجبه قوانين طائفته القسيسية فكان يقنع بلقيمات تسد الرمق وكان له معرفة غزيرة فى مصالح الدولة واحوالها حتى انه لما دعى الى الادارة بموجب رأى الملك فردينند وزوجته ايزابيلة اظهر من الفضل والمعارف الجلية ما جعل له شهرة فى القريحة والحزم مماثلة لشهرته فى الزهد والتقوى وكان لا يقع بصره الاعلى كل امر جديد لم يسبقه به غيره ولا يهم الا بتنجيز كل مقصد صعب ومشروع خطب وكان حسن نيته فى تلك المشروعات يحمله على ان يتبعها مع الهمة التى لا تكل والتصميم الذى لا يمل حتى ينجزها ويبت امرها ولما كان متعودا من صغره على قمع نفسه وعدم اتباع شهواته كان لا يعفو ابدا عمن مال الى الشهوات واتبع هوى نفسه وكان يعلم بموجب الدين ان الزينة والرفاهية ممنوعة فكان يبغض كل ما يلوح عليه دلائل التصنع والعجب ولم يكن لين العريكة بل كان لا ينفك عنه تدقيق القسوس وتشديدهم الذى يوجب السآمة والنفور خصوصا فى بلاد اسبانيا التى كانت تجهل بها طباع الاقسة ومع ذلك فلم يصفه احد بالفظاظة والغلظة

هكذا كانت حالة اكزيمينيس الذى اقامه فردينند نائبا على مملكة قسطيلة وكان قد بلغ من العمر نحو الثمانين ويعرف صعوبة هذا المنصب ومشاقه الجمة التى لا تنفك عنه ومع ذلك لم يتوقف فى قبوله لانه كان بالطبع قوى العزم وكانت له رغبة تامة فى تنجيز ما به تكون مصلحة البلاد ونفع العباد لكن كان ادريان دوتريقطه الذى ارسل الى اسبانيا قبل موت فردينند ببعض شهور واظهر اوامر من الارشدوق كرلوس بالنيابة على مملكة قسطيلة بعد موت الملك فردينند المذكور غير ان اهل اسبانيا كانوا يبغضون حكومة الغرباء فيهم ويعلمون ان الفرق بين فضل هذا الرجل ومعارفه

مطلب
جعل كرلوس ادريان نائبا على مملكة قسطيلة

سنة ١٥١٦

وتفضل اكزيمينيس كما بين الثريا والثرى فلم يكن له اعتبار عندهم كاكزيمينيس بحيث كان يمكن ابطال سعيه وخيبة آماله لولا ان اكزيمينيس امتثل اوامر كرلوس واقره على النيابة لكنه شاركه فى الادارة والتدبير على ان نيابة ادريان على المملكة المذكورة لم تكن الا بمجرد الاسم والصورة واما اكزيمينيس فانه بحسن سياسته اخذ يعامل ادريان مع المراعاة والاحترام التام حتى آلت اليه الكلمة النافذة فى الدولة وصار بيده الحل والعقد فى جميع المصالح

مطلب انفراد اكزيمينيس بادارة الدولة وتجهيز مصالحها

واول شئ لاحظه اكزيمينيس وتدارك ما يترتب عليه من العواقب السيئة المضرة هو حال الامير فرديننند بن فيليبش الذى اوصى له الملك فرديننند اولا بالحكومة وكان اقرب من غيره للاستيلاء عليها فلما بدلت الوصية وحرم مما كان يامله لحقه الاسف والتحسر واظهر من الجزع ما لا يليق بشبوبيته وصغر سنه فخشى اكزيمينيس ان ما لحق فرديننند من الغم لضياع الحكومة منه يحمله على السعى فى ايقاع فتنة او حادثة مشؤمة وبحث عن احضاره ليمكنه ملاحظته فى سلوكه وافعاله وتعلل فى تنفيذ ذلك المارب بانه يريد مباشرة تربية هذا الامير ليكون تحت رعايته فى الحفظ والصون فنجحت حيلته واحضر فرديننند من مدينة وادى لوب التى نشأ بها الى مدينة مدريد التى جعل بها حينئذ الديوان الملوكى ولما حضر فرديننند الى تلك المدينة اخذ اكزيمينيس بلاحظه فى جميع اموره واناط اناسا بالالتفات اليه والى اتباعه فى جميع حركاتهم وافعالهم

واول خبر بلغ اكزيمينيس من البلاد الواطية اورثه الحيرة والقلق حيث بلغه انه فعل امرا صعبا باحضاره للامير فرديننند عنده وجعله تحت ادارة اناس لا يعرفون قوانين اسبانيا ولا اخلاق اهلها وبمجرد ما وصل خبر موت الملك فرديننند الى مدينة بروكسيله انحط راى مشورة الفلمنك على تلقيب الامير كرلوس ملكا على دول فرديننند فقبل قولهم وبحث عن التمكن من ذلك ولكن بموجب قوانين اسبانيا كان كل من مملكة اراغون ومملكة قسطيلة لا يثبت الا للامير خاتة دون غيرها مع انها كانت

مطلب تلقيب كرلوس ملكا

سنة ١٥١٦،

لا تصلح للحكم بسبب امراضها واختلال عقلها الا ان ذلك لم يثبت بتقرير صحيح صادر من مشورة وكلاء مملكة اراغون او مملكة قسطيلة حتى يعلمه الخاص والعام وبناء على ذلك كان اهل اسبانيا يعتبرون ان هذا المقصد من طرف كرلوس محض تعد وافتيات على مزاياهم وحقوقهم بل ومخالف لنواميس الطبيعة حيث انه يريد ظلم امه والتعدى على حقوقها ورأوا ان فى ذلك اهانة لاميرتهم لم يحصل لها مثلها من جهة رعاياها ٠

ولكن بعد مداولات بين ديوان مدينة بروكسيله و البابا و الايمبراطور اقر كل من هذين الاخيرين تلقيب كرلوس ملكا على قسطيلة وكان لهما وقتئذ الحق فى ذلك اما الاول فلانه رئيس الكنيسة واما الثانى فلانه رئيس الايمبراطورية وصدر الامر الى اكزيمينيس بان يعلم اهل اسبانيا باستيلاء كرلوس على كرسى مملكتهم وكان اكزيمينيس هو اول من عارض فى هذا الامر لانه كان يرى انه يغضب الملة من غير ان يجدى نفعا للامير كرلوس فلما اقر كل من البابا و الايمبراطور تيقن النجاح وبذل غاية جهده فى حمل الناس على اقرار كرلوس ملكا على اسبانيا فجمع الاشراف الذين كانوا حينئذ بالديوان واعلمهم بمرام كرلوس فاخذوا يتضجرون من ذلك لان فيه سلب مزاياهم واتفق الجميع على ان هذا حق حانة لا ينتقل الى غيرها الا انه كان بينهم وبينها ميثاق اكيد لا يمكنهم نقضه فعند ذلك قطع اكزيمينيس كلامهم وهم قائلا باعلا صوته انى لم اجمعكم لاشاوركم فى هذا الامر واعمل برأيكم وانما جمعتكم لاعلمكم به فما عليكم الا الطاعة والامتثال حيث ان ملككم كرلوس ارسل يطلب منكم الطاعة لا الاستشارة فيلزم ان ينشر ذلك فى يومنا هذا بمدينة مدريد ليعلم الخاص والعام ان كرلوس هو ملك قسطيلة وتقتدى بها غيرها من المدائن وصدرت الاوامر فى هذا الشان لسائر جهات المملكة واقر الخاص والعام بالملوكية لكرلوس وان كان كثير من الاشراف قد حصل له فى الباطن غم شديد من ذلك هذا فى مملكة قسطيلة واما فى مملكة اراغون فلم تنفذ اوامر كرلوس ولم يقر الاهالى على التملك لان اهلها

مطلب
اقرار كرلوس على الملوكية فى مملكة قسطيلة وكان ذلك باتقاس اكزيمينيس وهمته فى ٥ من شهر نيسان

سنة ٥١٦

كانوا يتمتعون بمزايا اعظم من مزايا اهل قسطيلة لاسيما وقد كان الملك فرديننده قبل موته جعل مطران سراغوسة نائبا على تلك المملكة وكان في الصولة والمعارف دون اكزيمينيس وبهذا السبب مكث كرلوس غير معترف له بالملوكية في اراغون حتى حضر بنفسه الى اسبانيا

مطلب
شروع اكزيمينيس في تقوية الشوكة الملوكية وتوسيع دائرة مزاياها

ومع ان شوكة اكزيمينيس كانت بمجرد النيابة فقط وكان لكبر سنه لا يطمع ان تدوم له الشوكة زمنا طويلا رأى انه بمنزلة الملك في قسطيلة حيث انه نائب عنه فيها فاخذ يتصرف في ادارته كانه ملك حقيق فشرع في مقاصد مهمة ليقوي بها الشوكة الملوكية ويوسع دائرة مزاياها واخذ يبذل غاية جهده في تنجيز تلك المقاصد حتى كانه هو الملك وان ثمرة ذلك تعود عليه هذا وكانت مزايا الاشراف حينئذ في قسطيلة قد جاوزت الحدود حتى لم يبق للملك سوى حقوق واهية هينة فرأى اكزيمينيس ان اثبات تلك المزايا للاشراف مع حرمان الملك منها ليس الا محض ظلم وعدوان فصمم على حرمانهم من بعضها ولا يخفى ان مثل هذا الامر خطر ولكن كان اكزيمينيس يرى ان مقتضيات الاحوال تعينه على تنجيزه وتكسبه نجاحا لم يسبق لاحد من ملوك قسطيلة وذلك انه بحرصه وتوفيره في صرف ايرادات المملكة واموالها السنوية جمع من الاموال النقدية ما لا يمكن لاحد من ملوكهم ان يجمعها في اي وقت كان وكان لحسن اخلاقه ورأفته واحسانه قد تسلطن حبه في قلوب الاهالي حتى كان الاشراف لا يخشون منه فتنة او غدرا او غير ذلك مما يضربهم فلم يلاحظوه في حركاته وافعاله كما كانوا يلاحظون بعض ملوكهم

مطلب
خفضه للاشراف واضعافه لشوكتهم

وبمجرد ما جعل اكزيمينيس نائبا على مملكة قسطيلة توهم جماعة من الاشراف ان الشوكة الملوكية ستضعف وتضمحل صولتها فاخذوا في جمع اتباعهم وجندوا جنودهم وعادوا الى تطلب المزايا التي لم يمكنهم تحصيلها في زمن فرديننده لما انه كان ثابت الجنان قوي العزم والحزم ولكن كان لاكزيمينيس حينئذ جيش عظيم من العساكر المستأجرة فافسد عليهم امالهم وجعل سعيهم هباء منثورا من غير ان يحصل له في ذلك ادنى مشقة لكنه

لم يرض ان يكون قاسي القلب شديد الحقد على من كان سببا فى تلك الفتن ولم يذقهم من العذاب ما استوجبوه بجرمهم وانما طلب منهم المبايعة على الطاعة والانقياد وجعل الاعز منهم الاذل

ومادام اكزيمينس لا يصيب بسهام صولته الامزايا بعض اناس مخصوصين وكانت افعاله تحسن بمقتضيات الاحوال بحيث يترآى انها من قبيل العدل والانصاف وكان تشديده فيها مشوبا بنوع من الرفق ولين الجانب قل ان حصل للناس منها غم اوتشك لكنه لما صمم على امر منهم يعود بالضرر على مزايا الاشراف الذاتية اغضب ذلك سائر طائفتهم وكانت وقتئذ قوية الشوكة والصولة وتلك المزية الذاتية هى فن العسكرية وذلك انه بموجب المذهب الالتزامى كان هذا الفن من خصوصيات الاشراف لا يشركهم فيه غيرهم فكان لا يسوغ لاحد من الرعاع ان يحمل السلاح ليبرز الى ميدان الحرب الا اذا كان من اتباع بارون اوامير منهم واما الملك فكانت ايراداته قليلة بسبب ضيق دائرة مزاياه وحقوقه فكان يجب عليه مراعاتهم ليعينوه فى جميع مشروعاته وحروبه لانه كان لا غنى له عنهم عند الهجوم على اعدائه او المدافعة عن دولته اذ كان لا جيوش وقتئذ الا جيوش الاشراف وكانت هذه الجيوش لا تطيع لغير الاشراف امرا فكانت شوكة الملك بهذا السبب ضعيفة لا تستقيم بنفسها وكانت ايدى الاشراف فوق يد الملك فاراد اكزيمينس ان ينقذ الشوكة الملوكية من هذا التضييق الذى هو نوع من الاستعباد لكن رأى انه لم يعهد فى الحكومة الالتزامية ترتيب جيوش من العساكر المستأجرة مكثت ملازمة للدولة لا تنفك عنها ولا تسرح فعلم انه ان رتب جيوشا مستأجرة على سبيل الاستمرار والدوام يغضب عليه اهل قسطيلة لانهم كانوا اولى انفة وكان لهم تولع عظيم بالحرب فاستصوب ان يرتب جيوشا من الاهالى وامر ان يجعل فى كل مدينة من مدائن قسطيلة مقدار من الاهالى يشتغل بالتعليمات الحربية فى ايام المواسم والاعياد وسعى حتى جعل ماهيات ضباطهم على طرف الدولة ووعد العساكر تشجيعا لهم بان يعافيهم من جميع انواع

سنة ١٥١٦

مطلب
شروع اكزيمينس فى ترتيب جيوش من الاهالى

الغرامات والجرائم المضروبة على الاهالى وابدى علة مقبولة مستحسنة
فى تجديد هؤلاء العساكر وهى ان اغارات اسلام الغرب على بلاد اسبانيا
كانت لا تنقطع فقال لابد من وجود جيوش تلازم الدولة دائما وابدا حتى تكون
اسبانيا فى امن من اعدائها مع ان غرضه الحقيقى من ذلك هو ان يجعل للملك
جيشا مخصوصا غير تابع للبارونين ليكون ذا قوة بينهم ويمنعهم عن تعدى
الحدود فى فعل ما يخل بالدولة والامن العام ولكن لم يخف هذا الغرض على
الاشراف بل علموا كنه سره وادركوا حقيقة امره وايقنوا ان ذلك من طرق
سياسته الدقيقة وحزمه المحكم وانه سينجح ويبلغ غرضه الا انه لم يمكنهم التصدى
لمنعه عن انشاء هذا الامر لان العلة الظاهرة التى ابداها وهى منع المسلمين عن
البلاد كانت مقبولة مستحسنة عند الاهالى لما انهم كانوا اهل حمية جاهلية
لا يعرفون حقيقة الحال ولا يدركون العاقبة والمآل فداخل الاشراف اليأس
ولم يمكنهم التصدى بانفسهم لرده عن مقصده خوفا ان ينسبهم الاهالى الى
اغراض نفسانية او مصلحة خصوصية فلازموا الصمت والسكوت وان
كانت افئدتهم تضطرم بنيران اليأس والخوف ولكنهم بذلوا سرا غاية جهدهم
فى حث المدائن على ان لا تسلم فى تنجيز ذلك ولا تطيع لا كزيمينيس فيه امرا
حيث انه مخالف لقوانينها ومزاياها فنجحوا بهذه الحيلة حيث عصت مدينة
بورغوس ومدينة ولادوليده وعدة مدائن اخرى واخذ بعض الاشراف
فى تعضيدها وتأييدها والمدافعة عنها وصار اهل المدن يخاطبون الملك كرلوس
بالانذار والتحذير حتى داخله الفزع والرعب واضطربت قلوب ارباب مشورته
الفلمنكيين ولم يبق من اهل الدولة ثابت القلب سوى اكزيمينيس فانه لم
يلحقه جزع ولا روع من ذلك بل اخذ يسلك مع العاصين طورا سبيل التحذير
والتهديد وطورا سبيل المداهنة والمخادعة ويسلك تارة مسلك القسر والقوة
وتارة مسلك اللين والملاطفة حتى ظفر باعدائه وقمع المدائن العاصية وارغم
انوف طغاتها وجعل الاعز منهم الاذل ولم يزل ترتيب العساكر مدة حكم
اكزيمينيس كل يوم فى ازدياد فلما مات اهمل هذا الامر وعاد الحال الى ما كان
عليه

سنة ١٥١٦

مطلب شروعا كزيمينيس فى ان رد للتاج الاقطاعات التى قطعها الملوك الاولون للاشراف والاكابر

عليه اولا

فلما شرع اكزيمينيس فى اضعاف شوكة الاشراف التى كانت قد تجاوزت الحدود شرع فى تقليل املاكهم والتزاماتهم حيث كانت قد ازدادت حتى تعدت اطوارها وذلك انهم لما كانوا لا يغفلون ابدا عما فيه جلب مصلحة اومزية لهم امكنهم بسبب التعكيرات والفتن التى كانت سابقا لا تنفك عن الدولة ان يستفيدوا فائدة جليلة من ضعف شوكة الملوك واحتياجهم اليهم فتغلبوا بالغصب او بالحيلة على الاراضى الملوكية وجعلوها من جملة التزاماتهم حتى لم يبق للتاج الملوكى شئ من الاملاك والاراضى الواسعة التى كانت له فكانت املاك اغلب الاكابر والتزاماتهم كناية عن اراض اغتصبوها من الملوك لضعف شوكتهم او اقطاعات اقطعها لهم الملوك قهرا عنهم بسبب مقتضيات احوال الجأتهم الى ذلك ولكن لما كان يعسر البحث عن اصل هذه الاراضى المقطعة او المغصوبة لان مبدء استيلاء الاشراف عليها كان حين ظهور المذهب الالتزامى لاسيما والبحث عنها بالنظر الى اصلها يترتب عليه حرمان كل من الاشراف من بعض اراضيه رأى اكزيميس ان ذلك يؤدى الى فتن عامة جسيمة وتقلبات عظيمة لا يمكنه مع حزمه وعزمه وسداد رأيه ان يسد بابها ويقمع اربابها فاقتصر على ان يبحث عن اصل هذه الاراضى من عهد الملك فرديننـد فبدأ بقطع المرتبات التى كان رتبها هذا الملك وتعلل بان من تبرع بها قد مات وانتقل الحق فيها لغيره فلا معنى لبقائها بعد موت من رتبها وبحث عقب ذلك ايضا عن نزع الاراضى الملوكية التى انتقلت الى الاشراف فى عهد الملك المذكور واسترجع بأمر واحد جميع الاراضى التى كان اقطعها لهم فردينند فجرد بهذا الوجه عدة من صدور الاعيان عن املاكهم والتزاماتهم نعم وان كان فردينند لم يبلغ فى السخا والكرم درجة كونه يعطى املاكا كبيرة واقطاعات عظيمة لكن لا يخفى انه وزوجته ايزابيلا لم يحظيا بكرسى مملكة قسطيلة الا بمساعدة حزب عظيم من الاشراف قام معهما فاضطر كل منهما الى مكافأة من اعانهما مكافأة عظيمة ولم يكن لهما شئ يتصرفان

سنة ١٥١٦

فيه لاجل هذا الغرض الا الاراضي الملوكية
فلما ازداد بذلك ايراد الملك وكان اكزيمينيس صاحب توفير غريب واقتصاد
في المصاريف عجيب امكنه ان يقضي ديون الدولة التي تراكمت عليها في حكم
فرديننند وارسل الى الملك كرلوس ببلاد الفلمنك مبالغ جسيمة جدا
وصرف لضباط العساكر التي جددها ماهياتهم وانشأ ترسانات ومخازن ملأها
من انواع الاسلحة والمهمات الحربية بما لم يسبق بمثله في اسبانيا وبالجملة
فكانت جميع مصاريفه من اموال الدولة في محلها حيث لم يصرف منها الا في
مصالح الدولة العامة حتى ان الاهالي استحسنوا ما فعله من نزع المرتبات
والاراضي الملوكية ممن كانت بيده وعرفوا ان ذلك من باب العدل والانصاف
لا التعسف والاجحاف

مطلب
تعدي الاشراف لمنعه
عن تنجيز مشروعاته

فلما اضرت افعاله بمزايا الاشراف وحقوقهم ورأوا ان مشروعاته في هذا الشأن
دائما في الازدياد رأوا انه لا بد لهم من الاحتراس منه بكل وسيلة تقيهم منه
ويكونون بها في امن وطمأنينة فتعددت منهم العصب والفتن واتت شكاويهم من
سائر الجهات حتى ان بعضهم صمم على فعل مقاصد مهولة عجيبة وما رب غريبة
توقع الحكومة في الخطوب والكروب الا انهم قبل شروعهم في ذلك عينوا ثلاثة
منهم للبحث عن القوانين التي استند اليها اكزيمينيس فيما فعله وعما سوغ له تلك
الاشياء التي لم يفعلها احد قبله وهؤلاء الثلاثة هم اميرال قسطيلة ودوق
انفنتادو وقونتة بنيونطة فلما ذهبوا الى اكزيمينيس لم يقابلهم
بالبشاشة والطلاقة ولم يجبهم عن سؤالهم الا بكونه ابرز لهم وصية الملك
فرديننند بجعله نائبا على مملكة قسطيلة وابرز لهم ايضا فرمان خليفته
كرلوس الذي اقره على النيابة فاخذوا يفسدون عليه هذين الامرين
ويبرهنون على انهما ليسا مشتملين على شروط الصحة وهو يبرهن لهم على صحتها
فلما اشتد الجدال بينهم هم اكزيمينيس وهم معه حتى اتى بهم الى فرجة فاذا هم
ينظرون الى جيش عظيم باسلحته ومقدار جم من المدافع فقال لهم اكزيمينيس
باعلى صوته هذه هي مستندي واعتمادي بها احكم قسطيلة حتى يأتي

سنة ١٥١٦

ملكا كرلوس فاسلم عنانها فحين سماعهم هذا القول المشوب بالجراءة والانفة عن عليهم الصمت وتوجهوا وهم متحيرون منه وعلموا انه لا ينفعهم العصيان والخروج على رجل تبصر فى العواقب وأهب ما يدافع به عن نفسه ويجز مقاصده ولم يكن فى وسعهم ان يحزبوا عليه عصبة عامة لمعارضته فى مشروعاته ولذلك لم يحصل فى مدته شئ مما يوجب خلل قسطيلة ويقال راحتها ما عدا بعض فتن صغيرة جزئية نشأت عن بعض الاشراف لما قام بنفوسهم من الغيظ

مطلب
تحزب وزراء الفلمنك على اكزيمينيس

وكان هناك من غير الاشراف من ينازع اكزيمينيس ويمنعه عن تنفيذ مقاصده وذلك ان ارباب مشورة الملك كرلوس ببلاد الفلمنك كان لهم عند هذا الملك كلمة نافذة وقول غير مردود فارادوا أن يجعلوا ادارة اسبانيا كادارة مملكة البلاد الواطية لاجل اضعاف شوكة اكزيمينيس لانهم كانوا يغارون منه لمعارفه وفضله لاسيما وكان لا يبحث عما يوجب بينه وبينهم المحبة والمودة بل كان مستقلا عن غيره فى جميع اموره فكان عندهم بمنزلة خصم يمكن ان يضربهم لا كوزير يبذل جهده فى علو شان ملكهم وتقوية شوكته فكانت كل شكوى قدمت فى اكزيمينيس تقبل فى ديوان مدينة بروسيله ببلاد الفلمنك من غير توقف وبذلك حصلت عدة موانع لا ثمرة لها الا كونها ضيقت على اكزيمينيس فى مشروعاته ولكن لما لم يمكن لوزراء الفلمنك ان يخلعوه عن

مطلب
تولية الملك كرلوس لاثنين يشركان اكزيمينيس فى نيابة قسطيلة

النيابة بدون خوف على انفسهم اواعراضهم بحثوا عن اضعاف شوكته بجعل اناس معه فى نيابة قسطيلة وذلك لانهم وجدوا ان ادريان دوتر يقطه الذى ارسل نائبا على قسطيلة مع اكزيمينيس لا يبلغ شأوه فى الحزم والعزم حتى يمكنه ان يرده عما تتعلق آماله بتنجيزه فحملوا الملك كرلوس على ان يولى معه فى نيابة قسطيلة الشهير لاشو احدامرا فلندره وكان بمكان من وفور العقل وكمال الفطنة والامير امرستوف احد اشراف الفلمنك وكان شهيرا بالعزم والثبات فلم يخف على اكزيمينيس قصد الفلمنكيين من تولية هذين الاميرين معه ومع ذلك لما وصلا اليه تلقاهما مع ما يليق بمنصبهما واظهر لهما من الاحترام والتبجيل ما لم يكن فى سريرته ولكن

لما ارادا ان يدققا في شأن الادارة ويعرفا اصولها وفروعها تكبر عليهما وصار يعاملهما كما عامل به ادريان وقام وحده بادارة مصالح المملكة هذا واهل اسبانيا هم اشد الملل كراهة لحكومة الغرباء عليهم فلا يطيقون امارة احد اجنبي فاستحسنوا من اكزيمنيس ما كان يفعله لاجل بقائه على شوكته في منصبه حتى ان الاشراف لهذا السبب نسوا ما اساءهم به اكزيمنيس واحبوا ان تبقى النيابة بيده لانه من ابناء وطنهم وبقاء الشوكة الملوكية بيد احد من بلدهم يخشون صولته او جوره احب اليهم من جعلها بين ايدى اناس غرباء لا يألفونهم بالطبع ولا يطيقون حكمهم فيهم

وكان اكزيمنيس حينئذ قد ثقل حمله وتراكمت عليه الخطوب لما انه مع اتساع دائرة مقاصده السياسية الداخلية التي كان وزراء الفلمنك بحيلهم ودسائسهم يمكرون عليه في تنجيزها كان مشغولا بحربين عظيمين مع البلاد الاجنبية احدهما كان في شأن مملكة نوار حيث كان اغار عليها عن قريب الملك جنادلبرطه واراد نزعها من حكومة اسبانيا وذلك ان المملكة المذكورة كانت لهذا الملك فغصبها منه فرديننند فلما مات فرديننند ظن جنادلبرطه انه يمكنه استرجاعها لا سيما وكان ظاهر الاحوال يغريه ويزين له آماله حيث كان كرلوس لم يحضر الى اسبانيا وكان اشرافها في فشل وشقاق فظن بذلك جنادلبرطه انه ينجح في مشروعه ويأخذ بلاده من غير مشقة ولكن تيقظ اكزيمنيس وفطانته افسدا عليه ما كان دبره في هذا الشان حتى ذهب سعيه هباء منثورا فكان اكزيمنيس بفهمه الثاقب ورايه الصائب قد ابصر العاقبة وادرك انه يخشى على هذه المملكة فكان اول شئ بدأ به حكمه هو انه ارسل اليها جيشا عظيما يقوم بحفظها وضبطها فبينما كان الملك جنادلبرطه مشغولا مع بعض عساكر من جيشه بحصار مدينة سنضانبيدوبورط اذ هجم القرم الخبير ويلالواه على البعض الآخر من هذا الجيش وبدد شمله فعند ذلك اخذ الملك جنادلبرطه في الفرار فكانت هذه الواقعة آخر الحروب المذكورة لكن لما كانت مملكة نوار وقتئذ كثيرة المدائن

سنة ١٥١٦

والقلاع الغير المحصنة بحيث لايمكن ان تدافع عن نفسها ان اغار عليها جيش ذو انتظام وضبط ودراية بالفنون العسكرية بل ربما كانت هذه القلاع تضر ولاتنفع بان يتخذها الاعداء ملجأ يأوون اليه امر اكزيمينيس الذى كانت لاتفتر له همة بهدمها كلها ماعدا مدينة پيلون فانه ابقاها وعزم على ان يحصنها تحصينا جيدا ولولا هذا الاحتراس العظيم لانتزعت نوار من بلاد اسبانيا لان جيوش الفرنساوية اغاروا عليها بعد ذلك المرار العديدة واخذوها بدون مشقة الا انه كان يحصل لهم بعد الاستيلاء عليها جميع المشاق التى تحصل للجيوش فى ارض اعدائها واما اهل اسبانيا فكانوا يأخذون من الاقاليم الاسبانيولية القريبة منهم جميع مايحتاجون اليه من العساكر وينقضون عليهم كالعقبان فكانوا اذا اشتد الحال بهم لايجدون قلعة يتحصنون بها ويأوون اليها فيتركون البلاد فى اقرب مدة كما فتحوها ويركنون الى الفرار

واما الحرب الثانى فكان ببلاد افريقة مع الشهير هوروق برپروس اى ذى اللحية الصفرآ وكان من ارباب الصيال فى البحر فصار بشجاعته ملكا على بلاد الجزائر وتونس ولكن لم ينجح اكزيمينيس فى هذا الحرب كما نجح فى الاول وذلك ان سرعسكر الجيش الاسبانيولى سلك مسلكا رديئا وكذلك الضباط خاطروا بانفسهم من غير تبصر ولا حزم فانتصر عليهم هوروق بدون مشقة وهلك مقدار جسيم من عساكر اسبانيا ومن بقى منهم رجع يجر ذيل الخزى والعار ومع ذلك لم يتغير حال اكزيمينيس من هذه الهزيمة التى لم يسبق له غيرها وتنذيل بقى ثابت الجنان وازدادت بهجته ورونقه وما كان احد يظن فيه ذلك لانه كان اذا شرع فى مقصد لايهنأ له عيش الا بعد تتميمه وتنجيزه

وقد نسيت هذه المصيبة فى اقرب زمن ولكن حصل بعدها بقليل امر اوقع اكزيمينيس فى الحيرة واغضب سائر اهالى اسبانيا وهو قبح سلوك الفلمنكيين ارباب ديوان كرلوس وذلك لان الامير شيوره نديم الملك كرلوس واعظم وزرائه كان مع فضله ومعارفه له خصلة ذميمة وهى طمعه

سنة ١٥١٦

ودناءة نفسه فلما تولى كرلوس ملكا على اسبانيا امكن لهذا الامير ان يشفي غليل طمعه وذلك ان كرلوس ما دام ببلاد الفلمنك كان كل من يطلب منصبا او انعاما يذهب اليها فكان الناس يدخلونها افواجا افواجا الا انهم رأوا انه لا يمكنهم نيل مرامهم الا بواسطة الامير شيوره فاخذوا يتوسلون اليه ويستميلونه بالرشوة الى اعانتهم على قضاء اوطارهم فانتقلت كنوز اسبانيا وخزائنها الى البلاد الواطية وصارت المناصب وغيرها تباع في ديوان كرلوس وربما كان المنصب وما اشبهه يطلبه عدة اناس فيتزايدون فيه بالرشوة كأنه بضاعة في سوق ينادى عليها بالمزاد ولا يثبت الا لمن يشتريه باغلى الاثمان واقتدى سائر ارباب الدولة بالامير شيوره في هذا الامر الموجب للعار والفضيحة وجعلوا كلتهم بضاعة يتجرون فيها على رؤوس الاشهاد فاغتاظ اهل اسبانيا من ذلك حيث رأوا ان اعظم مناصب بلادهم كان يبيعها اناس غرباء من الفلمنك لا يرغبون في سعادة اسبانيا ولا في فخارها ولما كان اكزيمينس بطبعه يمج مثل هذه الامور الدنيئة وكانت نفسه عزيزة شريفة تجل عن مثل هذه الرذائل التي تدنس المرء وتزرى بالعرض اخذ يتشكى من قبح سلوك الفلمنكيين واخبر الملك بذلك حيث كتب له ان اهل اسبانيا اصحاب حرية وانفة لا يطيقون قبح سلوك الفلمنكيين وقد ازداد غيظهم واشتد غضبهم حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وان اسبانيا صارت في حالة تستدعي حضوره اليها بدون تراخ ولا مهلة لكي يزيل بنفسه غمامات الكروب وضبابات المخاوف والخطوب التي انعقدت وتراكمت على المملكة

مطلب
دعوة اكزيمينس لكرلوس الى الحضور الى اسبانيا

وكان كرلوس يعرف انه قد تأخر زمنا طويلا عن الذهاب الى اسبانيا ليأخذ بعنان ممالكه ولكن كان ثم دواع قوية تمنعه عن ذلك مدة اخرى ولا تاذن له بالارتحال من مملكة البلاد الواطية وذلك ان الحرب الذي انعقد في بلاد ايطاليا بسبب عصبة كمبريه كان لم يزل باقيا على حاله لم تخمد نيرانه وان كانت جيوش الاحزاب في هذا الحرب قد سلكت طرقا مختلفة وحصل بينهما الفشل والشقاق حيث تعاهدت مملكة فرانسا مع جمهورية البنادقة

البنادقة

البنادقة . بعد أن كانت من جملة المتعصبين عليها وكان الامبراطور سنة ١٥١٦
مكسيمليان والملك فرديننند منذ بعض سنوات يحاربان مع الفرنساوية
بعد أن كانوا فى مبدء الامر متعاهدين معهما حتى ان الجيوش الفرنساوية هى
التى نصرتهما واثبتت لعصبتهما النجاح والظفر فكما ان فرديننند ترك لحفيده
كرلوس ممالك عظيمة ترك له ايضا هذا الحرب الكبير والظاهر ان الامبراطور
مكسيمليان كان يحرض كرلوس على ان لايدع محاربة الفرنساوية لما انه
كان شديد التولع بالمشروعات الجديدة ولكن كانت تجارات الفلمنك قد
تأسست مدة هذا الحرب على ما بقى من آثار تجارة اهل البنادقة وصارت
تنمو وتزداد فابوا ان يحاربوا الفرنساوية خوفا من ان يجر ذلك الى اضرارهم
وتعطيل تجاراتهم وكان الامير شيوره ذا فراسة عظيمة ودراية كبيرة
فى معرفة مصلحة بلاده ولكن كان طمعه فى الغالب يلهيه عنها الا انه فى تلك المرة
لم يتبع شهوات نفسه بل اظهر ان الصلح بين الفلمنك و فرانسا ضرورى
لابد منه وان الحرب يضر ببلاد الفلمنك كل الضرر فكتبت مراسلات الصلح
الى فرنسيس الاول ملك فرانسا وكان حينئذ لا حليف له يعينه حتى
يعتمد عليه ويامن على فتوحاته الجديدة التى كان استولى عليها فى ايطاليا
فحصل له السرور والفرح باعراض هذا الصلح عليه وكان وكيل كرلوس الامير
شيوره المذكور ووكيل فرنسيس الامير بوازى وكان كل منهما ناظرا
على ملكه فى صغره فتربى كرلوس تحت ادارة شيوره وفرنسيس تحت
ادارة بوازى وكان كل من هذين الوزيرين يرغب فى الصلح لما انهما كانا
يعلمان ان معاهدة الملكين معا هى اسعد حادثة لهما ولرعاياهما فتذاكر
الوكيلان فى شان ذلك بمدينة نوايون وبنا هذا الامر فى مدة يسيرة وكان
الغرض من ذلك عقد مشارطة بين الملكين بها تكون معاهدتهما معا
ومدافعتهما عن بعضهما عند الضرورة بحيث لا يتخلى احدهما عن الآخر وكان
من جملة الشروط الاصلية زواج كرلوس للاميرة لويزة بنت
فرنسيس الاول ولم يكن له سواها وكان عمرها وقتئذ سنة واحدة وكان

مطلب
عقد الصلح بين كرلوس
وملك فرانسا فى (١٣)
شهر اب

سنة ١٥١٦

فرنسيس قبل هذه المشارطة ينازع كرلوس في مملكة نابلي فتركها له حينئذ في نظير شوا رينته وجهازها ولكن حيث كانت هذه المملكة بيد ملك اسبانيا جعل على كرلوس ان يدفع لملك فرانسا مائة الف ريال في كل سنة حتى يحصل عقد النكاح وبعده ان يدفع خمسين الف ريال مادامت الاميرة لم تلد من كرلوس وايضا الراي ايضا على انه حين وصول كرلوس الى اسبانيا يذهب اليه ورثة الملك حنادلبرطة ليطلبوا حقهم في مملكة نوار فان لم يرضهم كرلوس وجب على فرنسيس ان يساعدهم بجميع طاقته فنشأ عن هذه المعاهدة اتحاد كرلوس و فرنسيس وكان لها ثمرة اخرى عظيمة وهي ان مكسيمليان رأى انه لا يمكنه مقاومة مملكة فرانسا وجمهورية البنادقة معا فاضطر الى عقد الصلح معهما وابطل الحرب الطويل المهول الذي ترتب على عصبة كمبريه وبالجملة فقد ترتب على معاهدة كرلوس و فرنسيس ان بلاد اوروبا بتمامها مكثت بعض سنوات وهي في الراحة والاطمئنان وان كان قد حصل فيما بعد بين هذين الملكين عداوة كبيرة نشأت عن طمعهما فعكرا بلاد اوروبا واوقعا فيها الفشل والشقاق مدة حكمهما

مطلب منع اهل الفلمنك كرلوس من السفر الى بلاد اسبانيا

ثم انه بمشارطة مدينة نوايون فتحت سبل اسبانيا لكرلوس وصار لا يخشى شيأ اذا سافر اليها ولكن كان اهل الفلمنك لا يحبون منه أن يعمل هذا السفر حيث يعلمون انه يعود عليهم بالخسارة والضرر وذلك ان كرلوس مدة اقامته ببلاد الفلمنك كان يصرف ايراده وسنوياته وكانت فائدة تبذيره تعود على ندمائه الفلمنكيين من غير ان يشركهم فيها احد لان بلادهم كانت تحت الحكومة وجميع الانعامات الملوكية كانت توزع بايديهم وشتان بين حالهم في تلك الصورة وما لهم في صورة ما اذا سافر كرلوس الى اسبانيا لانه من الجائز ان يحرموا من تلك الفوائد الجليلة وذلك انه عند حلوله باسبانيا ربما اعطى لاهلها عنان ادارة بلادهم فتصير مملكة البلاد الواطية معتبرة كاقليم تابع لبلاد اسبانيا وبعد ان كان اهل الفلمنك يتصرفون كيف شاؤا

سنة ٢٥١٦

مطلب
خوف الفلمنكيين من اكزيمينيس

فى الانعامات الملوكية ويعطونها لمن ارادوا ويضطرون الى طلبها من ايديهم اهل اسبانيا وما كان يخشاه الامير شيوره زيادة على ذلك هو مقابلة اكزيمينيس للملك لان هذا الحبر باستقامته وشرف نفسه كان له فى عقول الناس تأثير قوى فكان من الممكن انه بفضله ومعارفه وجلالته وكبرسنه يأخذ بعقل الملك كرلوس لما انه كان شابا قابلا لان تؤثر فيه النصائح العظيمة وتتمكن منه شعار النفوس الكريمة التى يبديها له اكزيمينيس واذا عرف كرلوس فضائله وخصاله الحميدة قل وثوقه باهل الفلمنك لانه يرى ان طباعهم مباينة بالكلية لطباع هذا الحبر الصادق ورأوا رأيا آخر وهو ان كرلوس ان ترك لوزراء الفلمنك ما كان لهم فى مصالحه من الحل والعقد فان اكزيمينيس يغضب من ذلك ويراه من المعرة للملة الاسبانيولية التى هو منها فيبذل جهده فى المدافعة عن حقوق بلاده كما فعل ذلك لاثبات المزايا والحقوق الملوكية فكل هذه الاسباب دعت وزراء الفلمنك لبذل جهدهم فى منع كرلوس عن السفر الى بلاد اسبانيا وحيث كان هذا الملك امنة سريع الميل لا تجربة له حتى يعرف قلوب الرجال لاسيما وكان يحب الوطن الذى ولد به ابقى السفر الى وقت آخر ومكث بمملكة البلاد الواطية سنة كاملة بعد مشارطة مدينة نوايون

مطلب
سفر كرلوس الى اسبانيا

ولكن كان اكزيمينيس دائما يرسل الى كرلوس ويلح عليه فى الحضور الى اسبانيا وكان جده مكسيمليان يحثه على السفر حين اظهر اهل اسبانيا القلق من غيبته عنهم فعزم كرلوس على السفر ولم يرجع عن عزمه ولما سافر صحبه الوزير شيوره وعدة من اشراف الفلمنك وبكثرة اتباعهم فى ابهة ورونق عظيم وانما صحبوه لرغبتهم فى مشاهدة جلالته وقدرته فى غير بلادهم

فى (١٣) من شهر ايلول سنة ١٥١٧

وليكون لهم حظ فى فيض احسانه ونعمه فركب السفينة ومعه هؤلاء المذكورون وبعد أن جاب مسافة كابد فيها اهوالا واخطارا رسا على مدينة ويلاويسيوزه فى اقليم الاستورى مع ابهج موكب واعظم احتفال وسر بحضوره سائر الناس لانهم كانوا ينتظرونه مع مزيد التشوق كما هو شان ملوكهم

مكثت زمنا طويلا تنتظر ملكا جديدا ترغب فى الوقوف على حقيقته واخذ سنة ١٥١٧
اشراف اسبانيا يهرعون اليه من كل فج عميق واظهروا من بهاء الرونق
والزينة مالا يمكن لاهل الفلمنك ان ينسجوا على منواله

وكان اكزيمينيس مسرورا بحضور الملك ويعد ذلك من اعظم ما تمتنه
اسبانيا من الامور السعيدة فاخذ يهرول بين يديه بقدر ما يأذن له به هرمه
وضعف بقيته لان هذا الرجل العجيب مدة نيابته على المملكة كان لم يزل على
تقشفه وزهده الخارج عن الحد وكان مع ذلك له مواظبة عظيمة على الاشغال
الصعبة ولا شك ان هذا يهدم اعظم القوى ويضعف صحة الاجسام فكان
يعتكف كل يوم عدة ساعات للعبادة ويؤدى الصلاة والادعية على الوجه الاتم
ثم يشتغل بالمطالعة وقرآءة الكتب هذا وكان لا يتخلف اصلا عن حضور المشورة
ويقراء جميع الاوراق والعريضات التى تقدم له وعلى المراسلات والاعلانات
اللازمة وينجز بنفسه سائر مصالح الدولة مدنية كانت او عسكرية او قسيسية
فجميع اوقاته كانت لا تخلو عن اشغال مهمة جسيمة وكان اذا اراد ان يريح
نفسه من الشغل يمكث مع الرهبان وعلماء اللاهوت ويناظرهم فى مسائل
مشكلة من علوم اللاهوت التدريسية فبعيشته على هذا الوجه وطعنه
فى السن صارت صحته كل يوم فى التناقص والهبوط فسافر لمقابلة الملك وهو
على هذه الحالة فاصيب فى مدينة بوزيكيلوس ببلاد اسبانيا بمرض
شديد وظهرت عليه علامات مخوفة عجيبة حتى زعم من كانوا معه فى هذا السفر
انهم رأوا فيه علامات السم الا انهم لم يعرفوا من فعل ذلك معه هل هم اشراف
اسبانيا لينتقموا منه بما فعله معهم اوهم وزرآء الفلمنك لغيرتهم منه

فلما ثقل على اكزيمينيس المرض ولم يمكنه السفر مكث بمدينة بوزيكيلوس
المذكورة وكتب الى كرلوس ما كان قائما بنفسه من غير ان يخفى منه شيأ
كما هو دأبه فنصحه بان يطرد جميع الامرآء الفلمنكيين الذين كانوا معه لان
افعالهم السابقة اغضبت اهل اسبانيا واذا استمروا معه ولم يطردهم يغضب
منه الاسبانيوليون ويبغضونه ودعاه ان يمن عليه بمقابلته واجتماعه به

سنة ١٥١٧ م

ليفهمه حالة الملة الاسبانيولية ويوقفه على طباعها فتعزب امراء الفلمنك
وامراء اسبانيا وبذلوا جهدهم فى منع الملك عن مقابلة اكزيمينيس
حتى انهم بعد ان انتقل اكزيمينيس الى مدينة ارانده صاروا يبذلون
جميع وسعهم ويحاولون كل المحاولة فى ابعاد الملك عن هذه المدينة حتى لا يجتمع
به وبسعيهم بطلت جميع المقاصد التى اوصى بها اكزيمينيس واخذ كل من
امراء اسبانيا والفلمنك يفعلون ما يفهم اكزيمينيس والملة
الاسبانيولية ان شوكته قريبة السقوط ولم يبق على فقده اياها بالكلية
الا اليسير واهتموا فى اذاعة هذا الخبر بين الخاص والعام فى اسبانيا حتى انهم
فى الاشياء الواهية التى يستوى وجودها وعدمها عند اكزيمينيس كانوا
يبذلون جهدهم فى فعل ما يظنون انه يغضبه ويوجب غمه وحزنه ومع انه كان
من عادته التجلد على تحمل الاساءة والاذى حصل له فى تلك المرة كل الجزع
والضجر ولم يمكنه تحمل هذه المعاملة السيئة لانه بسبب نصحه فى الخدمة
واستقامته كان يؤمل من كرلوس ان يكافئه باحسن من ذلك حيث انه
احيى له مملكته مدة حكمه واصلحها حتى صارت فى حالة زاهية زاهرة لم تحظ بها
قبل ذلك وصار للتاج الملوكى شوكة عظيمة متينة لم يثبت مثلها لغيره ممن حكم
قبله من الملوك فلم يقدر اكزيمينيس فى عدة احوال على ان يخفى غضبه وغمه
ويكتم ما يوجب تشكيه وهمه واظهر التاسف على سوء حظ وطنه وبلاده واخبر
بانه سيحصل لها مصائب شتى بسبب سفه الغرباء وظلمهم وجهلهم فبينما كان
متحيرا فى امره بسبب هذه الامور اذ جاءه كتاب من الملك كرلوس ليس فيه من
الاحترام ما يكفى فى الدلالة على اهتمام المرسل بالمرسل اليه لبرودة عبارته وفيه
اذن له بالذهاب الى ابرشيته ليقضى فيها مع الراحة ما بقى من عمره الذى لم يسترح
فيه لحظة واحدة فحين وصل هذا الكتاب الى اكزيمينيس وقرأه ازداد غما واشتد
المه وكانت عزة نفسه تقضى بانه لا يعيش بعد هذا الخذلان وربما اضر به ما كان
قطعا بنفسه من انه سيحصل لوطنه مصائب شتى وبالجملة فلم يتحمل الغم الذى قام
بنفسه من هذه الفكرة فمات بعد ان قرأ كتاب الملك ببعض ساعات واذا نظر

مطلب
خيانة كرلوس

موت اكزيمينيس فى ٨ من شهر تشرين الثانى

سنة ٥١٧ الانسان الى كثرة مشروعات هذا الوزير وعظمتها ونجاحها مع انه لم يقم بالنيابة الاعشرين شهرا اشهد بانه قد استوجب المدح الجليل والثناء الجميل لفراسته في المشورات وفطنته وحزمه في المشروعات وشدة عزمه في تنجيزها وشهرته بالقريحة والدهي والتقوى وجميع تلك الخصال الحميدة مرسومة الى الان في اذهان اهل اسبانيا فتراهم يثنون عليه في كل وقت وحين وقد اشتهر في عصره من بين الوزراء بالتصوف حتى انه بمفرده هو الذي شرفه ابناء وطنه باسم الصوفي وقال عليه الاهالي مدة ادارته للمملكة ان الله قد اكرمه بظهور خوارق العادات على يديه

مطلب عقد مشورة القورطس بمدينة ولادوليدة سنة ١٥١٨

وبعد موت اكزيمينيس بمدة قليلة دخل كرلوس في محفل عظيم بمدينة ولادوليدة وجمع فيها مشورة وكلاء مملكة قسطيلة ومع انه كان ملقبا بالملك لم تقره تلك المشورة على ذلك وكان اهل اسبانيا لم يزالوا يرون ان التاج الملوكي انما هو حق امه حانه فقط اذ لم يوجد في التاريخ ان ابنا بويع بالمملكة في حياة ابيه او امه ولهذا السبب لم تقره مشورة وكلاء المملكة على ذلك مراعاة للرسوم القديمة واجتنابا لاحداث امور جديدة كما هي عادة المشورات الاهلية من انها لا تعدل عن الرسوم الجارية ولا تميل الى ابتداع حادثة او بدعة ولكن حين حضر اليهم كرلوس وصار وزراؤه يبذلون غاية جهدهم من التهديد والتحيل والحذق سلمت مشورة وكلاء المملكة في هذا

مطلب مبايعة كرلوس بالملوكية في قسطيلة

الامر ورضيت بان يكون ملكا مع امه بشرط ان يوضع اسمه بعد اسم امه في جميع ما يتعلق بالمصالح العامة ووقع الاتفاق ايضا على انه ان برئت حانة من اختلال عقلها وجنونها المتقطع تنحصر الملوكية فيها من غير ان يشركها احد وانحط الرأي ايضا في تلك المشورة على ان يعطى للملك كرلوس على سبيل التبرع ستمائة الف من الدوقات يأخذها بالتقسيط على ثلاث سنوات وهو مبلغ جسيم لم يعط مثله لاحد من ملوك قسطيلة

مطلب غم اهل قسطيلة

ولما طلب كرلوس ذلك المبلغ من ارباب مشورة وكلاء المملكة اجابوه من غير توقف الا ان ذلك كان اول ما فعله بعد تقريره في الملوكية فنشأ عنه غم عظيم

في سائر اقطار المملكة وكان الوزير شيوره مودب كرلوس قد صار عنده سنة ١٥١٨
بمنزلة ابيه حتى كان لا يتكلم ولا يحكم بشئ الا بموجب ما يقتضيه رأى هذا
الوزير وكان دائما لا ينفك عنه امراء الفلمنك بحيث كان لا يمكن لاحد من
اهل اسبانيا ان يدنو منه الا باذنهم ولا يكلمه الا بحضرتهم ولما كان لا يعرف
من اللغة الاسبانيولية ما يكفى كان اذا سئل عن شئ يجيب بجواب قصير جدا
وفى الغالب لا يحسن العبارة فى الافصاح عن مقصده فظن معظم
الاسبانيوليين انه بطئ الفهم قاصر الذهن وزعم بعضهم ان بينه وبين امه
شبها عقليا حتى اخذ الناس يقولون فيما بينهم انه لا يصلح لادارة المملكة اكثر
منها واما الذين وقفوا على حقيقة طبعه فلم يأخذوا بظواهر حاله بل عرفوا ان له
معارف غزيرة وفطنة كبيرة الا انهم اتفقوا كغيرهم على انه يميل لاهل الفلمنك
لكونهم ابناء وطنه لاسيما وندماؤه منهم ولكن لسوء حظ كرلوس كان جميع من
معه من الامراء الفلمنكيين غير جديرين بوثوقه بهم وركونه اليهم لانهم كانوا
لا يحبونه محبة صادقة ولا يسلكون مسالك النصح فى مصالحه بل كان مطمح
نظرهم جمع الذهب وكانوا يخشون ان يدرك كرلوس حقيقة حالهم او يغضب
منهم الاسبانيوليون فيكون ذلك سببا فى حرمانهم من شوكتهم وقوة
كلمتهم فى اسبانيا فكانوا اذا وجدوا فرصة يتعدون الحدود فى السلب
واكل اموال الناس لانهم كانوا لا يطمعون ان يبقوا زمنا طويلا على صولتهم
ونفوذ كلمتهم فكانت جميع المناصب الرفيعة والوظائف الشريفة والانعامات
لا يحظى بها الا اهل الفلمنك او من يشتريها منهم على رؤوس الاشهاد وكان
شيوره وزوجته والامير سوايج الذى لم يصب كرلوس فى توليته
قنجليير قسطيلة بعد موت اكزيمينيس يتسابقون الى كل ما كان فيه
ازدياد هذا الاختلاس واتساع دائرة بيع المناصب وما اشبهها ولم يذكر هذه
الحوادث المورخون الاسبانيوليون دون غيرهم حتى يتوهم عدم صحتها
او تعد من مبالغات المورخين بل ذكرها المورخون الاجانب ففى مكاتبات
المولف بطرس مارتير انكلوريا الذى كان وقتئذ بديوان اسبانيا مبالغات

سنة ١٥١٨

زائد تقى وصف شره الفلمنكين وطمعهم يستبعدها العقل كل الاستبعاد مع انه لم يكن ثم سبب يحمل هذا المولف على ارتكاب الكذب فى مراسلاته وتدوين اشياء ليس لها وجود وقد قال المولف المذكور انه فى ظرف عشرة اشهر نقل من اسبانيا الى مملكة البلاد الواطية من الدوقات (صنف معاملة) مليون ومائة الف فاكثر وهناك حادثة اخرى اغضبت اهل اسبانيا اكثر من جميع تلك المظالم وهى تقليد غليوم دوكرواى وهو من اقارب شيوره منصب المطرانية على طليطلة مع انه كان شابا لم يبلغ السن الذى عينته القوانين القسيسية لمن يتولى هذا المنصب فظهر لهم ان ترقية هذا الامير الغريب الى هذا المنصب الذى هو اعلا المناصب الدينية بمملكتهم واعظم مناصب بلادهم على الاطلاق ايرادا وثروة محض ظلم واجحاف بل وفيه ترذيل للملة الاسبانيولية فحملت المصلحة او البغضة كلا من القسيسين وامرآء اللاديك على المعارضة فى هذا الشان

مطلب كرلوس مشورة وكلاء كذا راغون

ثم سافر كرلوس من مملكة قسطيلة وترك اهلها فى غم شديد يتشكون من ادارته وتوجه الى مدينة سراغوسة ليجمع فيها مشورة وكلاء المملكة فاجتمع فى سفره باخيه فرديننذ وكان يريد أن يبعده عن ممالك اسبانيا بوجه حسن فتعلل بان جدهما مكسمليان منشوق الى رؤيته ومتشوف الى مقابلته وارسله الى بلاد المانيا ولاريب ان هذا الاحتراس عظيم ناشئ عن الحزم وسداد الرأى لانه لولا هذا الاحتراس لفقد كرلوس جميع ممالك اسبانيا لانه بعد سفر الامير فرديننذ بقليل حصلت ببلاد اسبانيا فتن واقلابات مهولة بحيث لم يشك احد فى انه لو كان فرديننذ موجودا اذ ذاك لاعطاه الاسبانيوليون تاج مملكتهم لانهم كانوا يحبونه حبا جما ويميلون اليه كل الميل وكان فرديننذ طماعا بحيث لا تأذن له نفسه مع اشارة خاصته عليه ان يعرض عن التاج اذا اعرض عليه

مطلب توقف الاراغونيين فى هذا الشان وعصيانهم من القسطيليين

وكان الاراغونيون الى ذلك الوقت لم يقروا كرلوس ملكا عليهم ولم تجتمع مشورة وكلاء المملكة بامره ولا باسمه بل اجتمعت باسم الجوستوريا

(اى القاضى الاعظم) لان هذا الحق كان من خصوصياته ومزاياه مدة خلو سنة ١٥٢١
الكرسى الملوكى عمن يشغله ولما انعقدت هذه المشورة واجتمع اربابها
وعرض كرلوس عليهم ان يبايعوه على الملوكية انكروا عليه ذلك ونازعوه
اكثر من ارباب مشورة وكلاء قسطيلة لكنهم بعد مدة طويلة فى المنازعة
وعدم التسليم نال منهم ذلك على ان تشركه فيه امه حانه وكان ذلك منهم
بعد ان اخذوا عليه موثقا على رؤس الاشهاد انه لا ينتهك حرمة الاراغونيين
ولا يتعدى على ادنى شئ من حقوقهم ومزاياهم كما هى عادتهم مع كل من تولى
عليهم وقد توقفوا ايضا غاية التوقف حين طلب منهم كرلوس مبلغا على
سبيل التبرع كما طلب من مملكة قسطيلة فانه لما طلب منهم ذلك تمكث
ارباب مشورة وكلاء المملكة عدة اشهر ونفوسهم لا تسمح باعطائه هذا المبلغ
قائلين نعده لنفع المملكة ونصرفه فى ديون التاج فقضوا منه تلك الديون
التى كانت قد تنوسيت منذ زمن طويل بحيث لم يبق منه للملك كرلوس
الا مبلغ قليل ولما شاهد اهل اراغون ما حصل فى قسطيلة صاروا
فى حذر عظيم واحترسوا بقدر ما يمكنهم وجعلوا يدافعون عن بعضهم لما رأوا
ان المحافظة على حقوق ابناء وطنهم وما يدعونه من المزايا والخصوصيات
مهما كانت اولى من كونهم يسلمون للغرباء فى امور مملكتهم فيسلبون اموال
وطنهم كما فعلوا بمملكة قسطيلة

وفى اثناء انعقاد المشورة بمدينة سراغوسة اتت رسل الملك فرنسيس
الاول ورسل ملك نوار الذى كان شابا الى تلك المدينة ليطلبوا
من كرلوس ان يتخلى عن مملكة نوار كما هو مقتضى الشروط
المتفق عليها فى المشارطة التى انعقدت بمدينة نوايون ولكن لما كان
كرلوس لا يريد تسليم هذه المملكة فوض الامر فى شأنها الاشراف قسطيلة
فلم يرضوا به وبعد مدة حصلت مذاكرة بين الفريقين فى مدينة موتبيليه
(احدى مدن فرانسا) لاجل انهاء هذا الامر بالتى هى احسن ولكن كانت هذه
المذاكرة لا طائل تحتها ولم ينشأ عنها اتفاق بين الاسبانيوليين والفرنساوية

لان الرسل الفرنساوية كانوا يتعللون بان عدم تسليمها لاصحابها من محض التعدى والظلم واما رسل اسبانيا فلم ينظروا الا الى عظم تلك المملكة فشق على نفوسهم تسليمها

ثم سافر كرلوس من مملكة اراغون الى مملكة قتالونيا فمكث فيها ايضا زمنا طويلا واهلها يمتنعون من مبايعته وما اخذه منهم من النقود كان اقل مما اخذه من مملكة اراغون هذا وكان اهل اسبانيا يبغضون الفلمنكيين لما ارتكبوه من الظلم والاختلاس فى سائر اقطار الاسبانيولية لاسيما وكانوا اصحاب حرية وعزة نفس فلم يطيقوا أن يفعل الاجانب فى بلادهم على ما تقتضيه شهواتهم النفسانية واطماعهم الفاحشة فبذلوا جهدهم فيما يكون به انقاذ بلادهم من اختلاس هؤلاء الاغراب وظلمهم

ولما اشتد ظلم الفلمنكيين فى قسطيلة صمم اهلها على ان يتركوا الاهمال الذى افضى بهم الى امور شنيعة وجعلهم محتقرين عند غيرهم من اهالى اسبانيا وتعاهدت مدينة سيغوبيا ومدينة طليطلة ومدينة اشبيلية وعدة مدن اخرى من اكبر مدائن قسطيلة على المدافعة عن حقوقها ومزاياها ومع ان الاشراف قد لزموا السكوت فى هذه الفرصة ولم يبذلوا جهدهم كما كان يؤمل منهم كتبت المدائن المتعاهدة للملك تقريرا بينت فيه على وجه التفصيل ان المملكة فى اسوء حال لقبح ادارة ندمائه الفلمنكيين وكان موضوع هذا التقرير هو التشكى من تقليد الغرباء بمناصب اسبانيا ونقل اموالها الى بلاد الفلمنك وزيادة الجرائم والغرامات وطلبت من الملك أن ينصفها فى هذه الاشياء ودققت فى ذلك غاية التدقيق وتجاسرت كل الجسارة حتى قدمت هذا التقرير اولا للملك فى مدينة سراغوسة ثم فى مدينة برسلونه فلما لم يعتن الملك به اغتاظت المدائن المتعاهدة وتعصبت مع بعضها على الملك وترتب على ذلك فى مملكة قسطيلة المعاهدة الشهيرة بمعاهدة الجمعيات البلدية ونشأ عن تلك المعاهدة فى ممالك اسبانيا اختلال عظيم وفشل كبير حتى تزلزل الكرسى الملوكى واضطرب وكادت صورة اسبانيا تتغير

بالكلية ونسخ ترتيبها الذى كانت عليه

سنة ١٥١٩

مطلب

موت الامبراطور مكسيليان فى ١٢ من شهر كانون الثانى

ولم يمكث كرلوس مدة قليلة بمدينة برسولونة الا وبلغه وقوع حادثة مشؤومة تأثر منها اكثر من عصيان القسطيليين وتوقف مشورة مملكة قشالونيا معه وامتناعها من اعطائه مايطلبه منها وتلك الحادثة هى موت جده الامبراطور مكسيليان نعم لم يكن موته فى حد ذاته عظيم امر لانه لم يكن صاحب شوكة ولا فضل ومعارف حتى يتأسف على فقده الا انه ترتب عليه عواقب شنيعة صار بها من اعظم الحوادث التى ذكرت فى تواريخ القرون المتأخرة وذلك لانه نشأ عنه تعكير الهدء والصلح العام الذى كان ببلاد الافرنج وترتب عليه أن صار بين فرنسيس الاول وكرلوس عداوة وبغضاء نشأ عنها تعكير اوروبا بتمامها حيث اضطرمت فيها نيران حروب مهولة عمت معظم ممالكها وطالت مدتها اكثر من سائر الحروب التى حصلت فى عهد جمهورية الرومانيين

وكانت التقلبات والفتن التى تسببت عن اغارة كرلوس الثامن ملك فرانسا على بلاد ايطاليا قد افهمت ملوك اوروبا اهمية المنصب الامبراطورى (منصب امبراطورية المانيا) وذلك ان الامبراطورية الالمانية كانت تدعى ان لها حقوقا فى بعض ايالات ايطاليا وان لها التصرف المطلق والسيادة والولاء على بعض آخر نعم ان الاعبراطرة الذين كانوا قليلى المعارف والشوكة كانوا لا يدعون تلك الحقوق وكانوا لا يستعملون تلك السيادة الا نادرا ولكن كان من المعلوم انه متى حكم فى المانيا ايبراطور ذو شوكة ودهاء وحزم ونهى واجتهد فى هذا الشأن ينجح كل النجاح ويدخل تحت حكمه معظم بلاد ايطاليا ومع ان مكسيليان كان ضعيف الشوكة كثير التردد فى المشروعات عرف أن يجلب لنفسه فوائد جليلة من جميع الحروب والمشارطات التى حصلت فى ايطاليا مدة حكمه هذا وكان رئيس الامبراطورية الالمانية له الكلمة على سائر ملوك النصارى وكان للمنصب الامبراطورى حقوق عظيمة لاسيما اذا كان المنصب المذكور بيد ايبراطور ماهر يمكنه احياؤها

سنة ١٥١٩

وتعضيدها فانها تزداد عظما ورونقا وبتلك الاسباب كان هذا المنصب جديرا بان يكون مطمح انظار ملوك الافرنج وميدانا تتسابق فيه اطماعهم

مطلب
سعى مكسيليان فى اثبات التاج الايمبراطورى لحفيده كرلوس

ثم ان الايمبراطور مكسيليان كان قبل موته بمدة قد بذل جهده فى ابقاء المنصب الايمبراطورى لعائلة الاوستريا وسعى فى ان يجعل حفيده كرلوس ملك اسبانيا خليفته فى الايمبراطورية ولكن حيث كان من الشروط المقررة وقتئذ ان البابا هو الذى يتوج الايمبراطور فى محفل عام وكان مكسيليان لم يتوجه البابا كان معتبرا انه ايمبراطور ولى بطريق الانتخاب لا غير ولم ينبه احد من المؤرخين على ان هنا فرقا بين ايمبراطور توجه البابا وايمبراطور ولى بطريق الانتخاب ومع ذلك فلم يثبت لمكسيليان فى كل من دواوين ايطاليا و المانيا سوى تلقيبه بملك الرومانيين وحيث لم يثبت فى التواريخ ان ملكا من ملوك الرومانيين قد جعل له قبل موته خليفة يحل محله فى الحكم وكان اهل المانيا يحترمون قوانينهم ورسومهم القديمة ابوا ان يمكنوا كرلوس من هذا المنصب حيث لم يكن له فيه اسم مقيد فى قوانين الايمبراطورية وامتنعوا كل الامتناع عن تنفيذ اغراض مكسيليان فى هذا الشان

مطلب
سعى كل من كرلوس و فرنسيس فى نيل المنصب الايمبراطورى

ولما مات مكسيليان جد كرلوس بنفسه فى طلب المنصب الايمبراطورى الذى اهتم جده قبل موته فى اثباته له ولم ينجح وبارزه فى تطلبه الملك فرنسيس الاول وحصلت بينهما معاداة ومخاصمة عظيمة صارت مطمح انظار ملوك اوروبا لعظم مقام المتسابقين الى هذا الغرض واهمية ما كانا يتطلبانه فكان كل منهما يسعى فى تحصيل هذا المنصب بثبات قلب كانه متيقن النجاح فى سعيه

مطلب
دعوى كرلوس فى شأن المنصب الايمبراطورى ووجه طمعه فى النجاح

فاما كرلوس فكان يرى ان المنصب الايمبراطورى منذ زمن طويل لم يخرج من عائلة الاوستريا فهو حق ثابت له بطريق الوراثة لا سيما وكان لا يرى فى الايمبراطورية اميرا صاحب قوة وشوكة ينازعه فيه وكان يعلم ان اهل المانيا لا يرضون بترقية ملك اجنبى عليهم حيث ان المنصب الايمبراطورى

منذ قرون عديدة لم ينتقل الى غيرهم لاسيما وفرنسيس الاول زيادة على كونه سنة ١٥١٩
اجنبيا منهم كان له اسباب اخرى تمنع من صلاحيته لان يكون ايمبراطورا
فى المانيا منها ان رعاياه الفرنساوية كانوا مباينين لاهل المانيا
فى العوايد والاخلاق والحكومة بحيث لا يمكن التأليف بين قلوب هاتين
الامتين هذا وكان كرلوس يأمل ان ما عرضه مكسيمليان قبل موته
فى شأنه ان لم ينجح فقد القى ذكر كرلوس فى اذهان الامراء المنتخبين وثم امر
اخر كان يقويه فى تطلبه للتاج الايمبراطورى وهو ان دولة الوراثية فى المانيا
كانت حاجزا حصينا تحمى ايمبراطورية المانيا من اغارات الدولة العثمانية
التى كانت تخشاها وتتهدد جميع ممالك اوروبا وكان السلطان سليم الثانى
بفتوحاته العديدة الكبيرة ومعارفه الغزيرة واطماعه قد اوقع الرعب فى قلوب
الملوك الافرنجية لانه هزم دولة المماليك ومحقهم عن آخرهم وضم بلاد مصر
و الشام الى دولته فحصل من ذلك الوقت فى الدولة العثمانية اطمئنان عام
وخلت عن الفتن والتعكيرات الداخلية حتى كان يمكن لهذا السلطان الماهر
ان يشن الغارة على جميع ملوك الافرنج ويوجه اليهم جيوشه التى كانت الى ذلك
الوقت تظفر حيثما توجهت ولا يمكن لاحد من الملوك مصادمتها ومقاومة
قواها التى كانت لا تكل ولا تفتر فلم يكن هناك واسطة فى حماية الايمبراطورية
من قوى هذا السلطان التى كانت كسيل العرم احكم واتقن من كونهم يولون
على الايمبراطورية ملكا مثل كرلوس له دول واسعة فى البلاد الالمانية
التى كانت اذ ذاك عرضة لاغارات الدولة العثمانية بل وكان لا يصلح احد لذلك
اكثر منه حيث كان قوى الشوكة فيمكنه عند الضرورة أن يقاتل جيوش
الاسلام بقوة عزم وثبات جنان لكثرة عساكره وامواله التى كانت ترد له من
محصولات معادن الدنيا الجديدة (امريكه) ومن تجارات البلاد الواطية
فهذه هى الاسباب التى كان كرلوس يعضد بها مقاصده فى شأن الاستيلاء
على الايمبراطورية وقد استحسنها اولو العقول الزكية والاراء السديدة
بل ورأوا انها براهين قاطعة لا يمكن خدشها بشئ ومع ذلك فلم يقتصر هذا الملك

سنة ١٥١٩

على تلك الاسباب القوية بل اخذ يستميل عقول ارباب الحل والعقد فى هذا الشان بمبالغ جسيمة من الاموال حتى لم يبق شئ الا وفعله لاجل الظفر بمقصده واخذ سرا على طرفه الجيش العظيم الذى كانت رتبته مشورة وكلاء اقاليم سوابه وبالجملة فقد استمال بالهدايا النفيسة عقول من يبيع عرضه بقبول الرشوة وحل بذلك كل مشكل قوى واما ضعفاء الناس فانه اخرس السنتهم بالتخويف والتهديد .

مطلب الاسباب التى بنى عليها فرنسيس دعواه

واما فرنسيس الاول فكان ايضا يبذل جهده مثل كرلوس فى اخذ المنصب الايمبراطورى ويأمل النجاح والظفر فاذاع رسله الذين بعثهم سرا الى المانيا انه يجب على من يحب مصلحة الايمبراطورية ان يفهم امرآء عائلة الاوسترسيا ان التاج الايمبراطورى انتخابى لا وراثى بمعنى انه يجوز لغير امرآء تلك العائلة ان تطلبه ولا يليق ان يبلغ من سفهها وحمقها ان تعتبره كانه متاع من امتعتها او شئ من املاكها لانه ربما لم يكن فى امرآئها من يصلح له وانه يلزم للايمبراطورية ملك يكون بكبر سنه قد تربت له ملكة وصارله دراية وخبرة بكثرة تجاريبه حتى يمكنه ان يتقن حكومة تلك الايمبراطورية التى كانت وقتئذ فى اضطراب وانقلاب بسبب المذاهب الدينية الجديدة التى كانت متولعة بها عقول بعض الناس وكان يخشى ان تصير لها عاقبة مشؤمة شنيعة واذاعوا ايضا ان كرلوس حيث انه صغير السن قليل الخبرة لعدم تجاريبه وممارسته للامور ولم يظهر منه ما يدل على براعته فى الفنون الحربية لا يمكنه ان يقاوم عدوا مثل السلطان سليم الذى قضى عمره فى الحروب وتمكن من فنونها وانتصر فى غزوات عديدة ولا تصعب مقاومة هذا السلطان الجسور الذى فتح بلاد آسيا على ملك مثل فرنسيس ارغم فى صغره انوف السويسيين وقتل بجيوشهم مع انهم كانوا اهل ضبط وربط ودراية تامة بالعسكرية حتى كان لا يظن احد الى ذلك الوقت انه يمكن لاى ملك كان أن يقهرهم ويظهر عليهم فاذا حكم فرنسيس فى الايمبراطورية وضم الخيالة الفرنساوية المشهورة بالشجاعة والشهامة الى القرابة الالمانية المشهورة بالضبط والربط

والثبات

سنة ١٥١٩

والثبات تأهبوا من مجموعهما جيش عظيم يفزع منه العدو وبذلك يمكنه عند اقتضاء الحال ان لا ينتظر الجيوش العثمانية حتى تأتى الى بلاده بل يبادر بالاغارة عليهم فى بلادهم واذاعوا ايضا ان تولية كرلوس على الامبراطورية مخالفة لقانون من قوانينها الاصلية وهو ان كل ملك كانت بيده مملكة نابلى لا يجوز له ان يحكم على الامبراطورية لا سيما و كرلوس يتطلب دوقية ميلان فلا بد وان يحصل بينه وبين ايطاليا حرب عظيم فاذا تولى على الامبراطورية ربما جر ذلك الحرب الى اضرارها وصارت عواقبه مشؤمة عليها

وبينما كانت رسل فرنسيس الاول تبدى هذه الاسباب وما اشبهها فى جميع دواوين المانيا اذ بلغ هذا الملك ان توليته على الامبراطورية فيها عسر لكونه اجنبيا عن ديارها ولا يعرف لغتها ولا اخلاق اهلها وعوايدهم فاخذ يبذل جهده فيما تكون به ازالة تلك الموانع وجعل يستميل عقول ارباب العقد والحل بالهدايا العظيمة والوعود الجسيمة ولين الكلام وزخرفة القول وحيث ان اوراق الحوالات لم تكن معلومة وقتئذ صار رسل فرنسيس يسافرون من بلدة الى اخرى ومعهم قطارات من الخيل محملة بالذهب ولا شك ان هذا الامر مما يوجب العار والفضيحة لباذلها وقابلها

مطلب آراء ملوك الفرنج الاخرين

وكان ينبغى لملوك اوروبا الآخرين أن يدخلوا واسطة فى هذا الشأن الذى له سريان عظيم وتأثير كبير فى مصالح ممالكهم حيث ان مصلحتهم العامة كانت تقتضى أن يتعصبوا مع بعضهم على هذين الملكين المتطلبين للامبراطورية لانه ان ولى احدهما عليها تقوت شوكته وازدادت صولته حتى يخشى منه اضاعة حرية اوروبا باجمعها ولكن لم يمكن لاحد منهم ان يعرف حق المعرفة انه من من الضرورى اللازم لتحصيل الراحة والامن العام ان يكون هناك ميزان تعادل بين قوى الممالك وبعضها بحيث لا يتعدى القوى منها على الضعيف لان اذهانهم اذ ذاك كانت لم تصل الى معرفة اهمية هذا التعادل لانه لم يندرج فى مذاهبهم السياسية الا قبل تلك الحادثة بمدة قليلة هذا وكانت الاغراض متسلطنة على نفوس بعضهم وكان البعض الآخر عاجزا عن ادراك العواقب

والتبصر فيها لاسيما وكان منهم من يخشى ان يغضب احد الملكين المتطلبين للامبراطورية فلم يأخذوا فى شئ من اسباب تلك العصبة او المعاهدة التى كانت لازمة لتحصيل الراحة العامة ومن جملته نفسه منهم على ان يكون واسطة فى هذا الشأن لم يبذل جهده كما ينبغى ولم يعتن به كل الاعتناء سنة ١٥١٩

مطلب
اراء السويسين

فاما اهل السويسة فكانوا يخشون ان يرقى فرنسيس او كرلوس الى المنصب الامبراطورى ويرغبون فى تولية ملك آخر يكون ضعيف الشوكة قليل الممالك والاراضى ولكن كانوا يبغضون الفرنساوية فبذلوا جهدهم فى تعطيل مقاصد فرنسيس وافساد مادبره وأبدوا ان الاصوب تولية كرلوس على الامبراطورية

مطلب
آراء اهل جمهورية البنادقة

وكذلك اهل البنادقة كانوا يرون ان مصلحتهم تقتضى ان يمنعوا كلا من هذين الملكين عن الاستيلاء على الامبراطورية ولكن كان بغضهم لعائلة الاوسترسيا اكثر واشد لطمعها ولان مجاورتها لهم كانت مشؤومة عليهم حيث اضرت بعظم جمهوريتهم وفخار دولتهم فعدلوا عما كانت تقتضيه الاصول السياسية وقتئذ وبادروا بالدخول فى حزب ملك فرانسا

مطلب
راء هنرى الثامن

وكان هنرى الثامن ملك انكلترة مقتدرا اكثر من غيره على منع كل من ملك فرانسا والملك كرلوس من الاستيلاء على هذا المنصب الذى يفوق صاحبه سائر ملوك الافرنج ولكن مع ان هنرى المذكور كان يفتخر غالبا بانه ميزان التعادل ببلاد اوروبا لم يكن جامعا لما تستدعيه هذه الوظيفة من التبصر وادراك العواقب واصابة الرأى والتؤدة والحزم فلم يستطع ان يمكث بدون تصدق لهذا المنصب الامبراطورى بل بادر مع من يتطلبه فكان ثالث الاثنين المذكورين اللذين كانا مطمح نظر ملوك الافرنج وبعث رسولا من عنده الى بلاد المانيا لطلب التاج الامبراطورى فتلقاه امراء المانيا بالتبجيل والاكرام وكذلك رسول البابا قابله باسنى التسليم والاحترام ولكن لم يتيسر له شئ فى شأن تولية سيده على الامبراطورية فبعد مدة قليلة كتب اليه انه لم يجد وسيلة فى ذلك وان تطلبه لهذا الغرض قد جاء فى الزمن الاخير

فلما وصل كتاب الى هنرى صدق ان تأخيره هو السبب فى عدم نجاحه وانه لولا ذلك لم يحظ به غيره والظاهر انه من وقتئذ ضرب صفحا عن هذا الغرض حتى انه لم يتعرض فيما بعد لمنع كل من الملكين المذكورين عن الاستيلاء على الامبراطورية ولا لمساعدة احدهما على الآخر سنة ١٥١٩

واما البابا ليون العاشر الذى اشتهر بمعارفه السياسية وولعه بالفنون فهو الذى لاحظ دون غيره حركات كل من فرنسيس وكرلوس ملاحظة عالم ماهر متمكن من الاسباب والمسببات وهو الذى ترآى عليه انه فى حيرة عظيمة من خوفه على فقد الاطمئنان والراحة من بلاد اوروبا هذا وكانت احكام البابا واحكام الامبراطور تتعارض فى امور شتى وكان كل منهما يتعدى على حقوق الآخر فكان البابا لا يأمن على اراضى الكنيسة الرومانية الا اذا كانت شوكة من بجواره ضعيفة فكان لا ابغض اليه من ان يتولى على الامبراطورية ملك ذو شوكة كبيرة وقريحة غزيرة فحصل عنده قلق عظيم خيفة من تولية احد هذين الملكين فكانت نفسه لا تطيق ان يعطى كرسى الامبراطورية للملك كرلوس لانه كان ملكا على اسبانيا و نابلى والدنيا الجديدة فكانت شوكته عظيمة لا تدوم معها شوكة الكنيسة الرومانية وكان يرى ايضا ان من الخطر عليه وعلى كنيسته تولية فرنسيس حيث كان ايضا قوى الشوكة فكان ملكا على فرانسا ودوقا على ميلانه وملتزم جنويرة فلذلك هذا البابا ان تولية كل من هذين الملكين على الامبراطورية يضر بالكنيسة الرومانية كل الضرر ويجر الى سقوط استقلالها وحريتها ويعكر على بلاد ايطاليا بل ويمكن انه يضر بحرية اوروبا كلها ولكن حيث كان هذان الملكان ذوى شوكة قوية وبطش شديد بحيث لا يأمن من عاداهما اذ كان يمكنهما الانتقام منه بطرق مختلفة رأى البابا ليون انه لابد لهذا الامر عن الخداع والحزم فاستعمل كلا من هاتين الوسيلتين واخذ سرا يحث امراء المانيا على كونهم ينتخبون اميرا من بينهم ويجعلونه على الامبراطورية حيث ان فيهم كثيرا ممن يمكنه ان يقوم بادارة مصالحها ويوفى بها حق التوفية

سنة ١٥١٩

وذكرهم بان كرلوس لاتسوغ توليته على الايمبراطورية بموجب القوانين والرسوم القديمة لانه ملك على نابلى ومن كان بيده تملك المملكة لايجوزله ان يتقلد بالمنصب الايمبراطورى هذا وكان يحرض فرنسيس على التثبت فى مقصده ولم يكن قصده بذلك نجاح فرنسيس اوانه كان يحب له ذلك ترجيحا له على كرلوس بل كان ذلك منه سياسة وخديعة لانه كان يعلم علما يقينيا ان اهل المانيا يرجحون الملك كرلوس عن فرنسيس الاول فكان يأمل انه اذا حث فرنسيس على تطلب الايمبراطورية ودقق فرنسيس ورأى ان اهل المانيا يرجحون كرلوس عليه يبذل غاية جهده فى اعطاء التاج الايمبراطورى لملك آخر غير كرلوس واذا اتفق ان فرنسيس هو الذى يجد المساعدة والاعانة ورأى كرلوس انه لايمكنه الاستيلاء على الايمبراطورية يسعى بلا شك فى اعطاء تاجها الملك آخر غير فرنسيس واعتقد انه بهذا الوجه ينجح فى خداعه ويصرم كلا منهما من الايمبراطورية ولا ريب ان مقتضيات الاحوال كانت اذ ذاك لاتسوغ للبابا ان يسلك فى هذا الغرض غير تلك الطريقة فدبرها مع غاية من الحزم والحذق الا ان ابرآها لم يكن على ماينبغى من التيقظ والنباهة وذلك ان الرسل الفرنساوية كانوا يلاهون سيدهم ويقوون امله بان المنصب الايمبراطورى يثبت له واخذ وايضا بعقل وكيل البابا حتى نسى ما اوصاه به سيده واستمر فرنسيس يدقق فى كونه هو الذى يتولى على الايمبراطورية دون غيره ولم يقل باعطاء المنصب الايمبراطورى لاحد غيره او غير غريمه فسدت آمال البابا ليون وخاب سعيه

مطلب انعقاد مشورة الدييت فى ١٧ من شهر حزيران

هكذا كانت آمال الخصمين وآراء الملوك الاخرين الذين كان لهم مآرب تدعوهم الى التوسط بينهما حين انعقدت مشورة الدييت اى العموم على حسب العادة فى مدينة فرنكفورت لان الحق فى انتخاب الايمبراطورية كان منذ زمن طويل ثابتا للسبعة امراء معتبرين يقال لهم منتخبون بضم الميم وكسر الخاء المعجمة وقد بينا فى الاتحاف اصل انشاء هؤلاء المنتخبين وبينا

سنة ١٥١٩ صولتهم ووظيفتهم وما يتعلق بهما وكان المنتخبون وقتئذ هم الامير البرتوس دو برندبورغ مطران ميانسة والثاني هرمان قونتة وييدوكان مطران تريويس والرابع لوير ملك جه والخامس القونتة لوير وكان قونتة بالاطينيا اى صاحب اطيان واملاك على نهر الرين والسادس فريدريق دوق سكس والسابع جواشم الاول مركيز برندبورغ فاخذ حينئذ رسل الملكين المتقدمين يبدون علاوا سبابا مزينة الظاهر فاسدة الباطن ويتواقعون بين ايدى المنتخبين ويكثرون لهم من الهدايا النفيسة ومع ذلك لم ينس المنتخبون امرا مهما عندهم يعدونه اصلا طرية القوانين المبنى عليها ترتيب الايمبراطورية وذلك الامر هو ضعف شوكة الايمبراطور لان الجمعية الجرمانية كناية عن جمهورية كبيرة مشتملة على عدة دول تكاد كل دولة منها تكون مستبدة بنفسها فجميع اعضائها يحبون ان تكون شوكة الايمبراطور ضعيفة حتى لاتضيع حقوقهم ومزاياهم وهذا الامر كان موافقا لطبيعة الحكومة الايمبراطورية ولازما لها لزوما ذاتيا حتى ان ارباب السياسة من اهل المانيا كانوا لايهملون فيه ولايعدلون عنه باى وجه كان ولذلك مكثت الايمبراطورية عدة قرون من غيران يولى عليها امير يكون قوى الشوكة او تكون له اراض وممالك واسعة ولولا هذا الامر لما بقى عدة من عائلات المانيا الاعيان يتمتعون باستقلالهم ومزاياهم التى اكتسبوها فى طرف تلك البرهة الطويلة وحيث كان الامر كذلك رأى المنتخبون ان توليتهم لاحد هذين الملكين تفضى بهم الى التعب والنصب حيث رأوا ان توليته احدهما كناية عن اعطاء الايمبراطورية لسيد يتصرف فيها كيف شاء لا لرئيس تكون افعاله مقصورة على ارادة ارباب الحل والعقد فى الدولة ورأى المنتخبون ايضا انهم يصيرون كآحاد الرعية بعد ان كانوا فى رتبة الايمبراطور

مطلب
اراء الامراء المنتخبين

ولتلك الاسباب صرف المنتخبون النظر عن كل من كرلوس و فرنسيس وجعلوا مطمح نظرهم فريدريق دوق سكس وكان اميرا صاحب

مطلب
عرض المنتخبين التاج الايمبراطورى على الامير فردريق دوق سكس

سنة ١٠١٢

معارف وآداب قد استوجب المدح والثناء الجميل من اهل عصره حتى كان
جد برابان يلقب بالملك حكيم العاقل واجمعوا جميعا على اعطائه التاج
الايمپراطورى الا انه لحزمه وعقله لم يغتر برونق هذا التاج وبهجته ولم يبادر
بقبوله كالمتلهف الذى لفرحه لا يتبصر فى العواقب لان هذا الامير كان يرى
ان هذين الملكين اللذين هما اقوى منه شوكة واعظم منه صولة وبطشا
لا يسلمان له فى هذا التاج الذى كانا يجدان فى طلبه فتوقف مدة ليتفكر
فى العاقبة ثم ابى ان يقبله فتعجب الناس من وفور عقله حيث ان عظم التاج
الايمپراطورى وعلو شان المنصب الذى كانوا يدعونه اليه لم يمنعه عن التبصر فى

مطلب امتناعه عن قبول التاج

العاقبة ورأى ان ضعف شوكة الايمپراطور مع انه من عدة وجوه يعد من الامور
الصائبة المبنية على العدل الا ان عدم العدول عنه فى جميع الاحوال ليس من
الصواب بل لا شئ اكثر منه مخالفة لحسن السياسة والادارة فكتب فى رده
يقول فى زمن الامن نحتاج لايمپراطور ضعيف الشوكة حتى لا يتعدى
على حقوقنا ومزايانا واما فى زمن خوف الحرب والمحن فلا بد لنا من
ايمپراطور قوى الشوكة شديد البأس حتى نكون فى امن واطمئنان وها هى
الجيوش العثمانية تصطف الآن تحت لواء سلطان ماهر ذى بطش وفتك
قد تقوى عزمه بنصرته فى غزوات جمة وظفره فى مشروعات مهمة وتتأهب
لان تغير على المانيا مع قوة لم يسبق مثلها فى القرون الخالية والاعصر
الماضية ولا شك ان لكل زمن مقتضيات مخصوصة تستلزم امورا جديدة
وتبطل ما كان من الامور الضرورية معتبرا ومعدودا وبناء على ذلك يلزم
اعطاء التاج الايمپراطورى لملك يكون اقوى منى شوكة واشد منى بطشا
واما انا فلا قدرة لى على تحمل اعباء الايمپراطورية لانها ثقيلة على وعلى غيرى
من امراء المانيا حيث لم يكن لنا اراض واسعة ولا ايرادات جسيمة
ولا شوكة عظيمة تكفى فى مقاومة العدو القوى البطش الذى يخشى منه الاغارة
على بلادنا وعلى كل حال فحالتنا الراهنة تستلزم ان نعطى التاج لاحد الملكين
السابقين وهما فرنسيس وكرلوس فقد انحصر الامر فيهما لان غيرهما

سنة ١٥١٩

لا يمكنه عند الاخطار ان يبادر بالجيوش اللازمة لحماية وطننا والذب عنا ولكن حيث ان كرلوس ملك اسبانيا قد ولد في المانيا بحيث يعد عضوا من اعضاء الايمبراطورية ومن امرائها بسبب الممالك التي ورثها فيها عن جده مكسيليان وبسبب ان بلاده متصلة بالاراضي الايمبراطورية التي يخشى عليها من اغارات جيوش الاسلام اكثر من غيرها فيظهر لي ان استحقاقه في شأن التاج الايمبراطوري مبني على اساس متين واصل مكين وانا ارى توليته على الايمبراطورية انسب واليق من تولية فرنسيس لانه اجنبي ليس منا ولا يعرف لغتنا واما كرلوس فهو من دمنا ولحمنا ومن بلادنا وبناء على ذلك ارى ان التاج لا يعطى لسواه وهو مولاه

ولا شك ان هذا الرأي الصادر عن مكارم الاخلاق والهمة العالية التي قل من اتصف بهما من الرجال والمعضد بالبراهين المقبولة يكون له ثمرة عظيمة ولذلك صار له موقع عظيم في قلوب المنتخبين فلما رأى رسل كرلوس ان فريدريق قد صنع مع سيدهم صنيعا جميلا ارسلوا اليه مبلغا جسيما من الاموال واخبروه بان ملكهم سيكافئه باكثر من ذلك ولكن لا يخفى ان هذا الامير الذي اعرض عن التاج الايمبراطوري لكرم نفسه لا يقدم على ما يوجب الدناءة وتدنيس العرض بقبول مثل هذه الهدايا وموافقتهم على اغراضهم وذلك لانه ان قبلها كان كانه باع رأيه بتلك الهدايا وهذا من اقبح ما يزري بالمروءة والشرف فلم يقبل شيأ منها فاخذ رسل اسبانيا يترجونه في ان يأذن لهم بتوزيع بعضها على ارباب ديوانه فاجابهم بانه لا يمكنه منعهم عن قبول ما يعطى لهم لكنه يطرد فورا من ديوانه كل من ثبت عليه انه اخذ منها ولو درهما واحدا

مطلب

رد فريدريق للهدايا التي ارسلها اليه رسل الملك كرلوس

وحيث أبى فريدريق قبول المنصب الايمبراطوري وبين وجه عدم صلاحيته له هو وسائر امراء المانيا يئس كل امير الماني من هذا المنصب وانحصر في الملكين المتقدمين فوجب ان ينتخب واحد منهما ليتقلده هذا وكان ثم اسباب تدعو لترجيح كرلوس كنسبه وقرابته ووضع دوله التي ورثها عن آبائه وزيادة على ذلك كان رسله الذين بعثهم الى بلاد المانيا صادقين

مطلب

انعقاد مذاكرة جديدة بين المنتخبين

في خدمته باذلين غاية جهدهم في تنفيذ اغراضه واثبات حقه كيف لا وكان سنة ١٥١٩
قد بعث الى المانيا الكردينال هوغوركو والشهير ايراردولامرك
اسقف ليجيه فوفقا برسالتهما على وجه اكسبهما الشرف والفخار وابديا من
الحزم وحسن التدبير ما عجزعنه رسل الملك فرنسيس ولا غرو في ذلك
فان كوغوركو مكث زمنا طويلا وهو وزير ونديم للايمبراطور مكسيمليان
فوقف على حقيقة اخلاق اهل المانيا وعرف كيفية المداولة معهم واما
اسقف ليجيه فكان الملك فرنسيس قد حرمه من المنصب الكردينالي
فلما لاحت له تلك الفرصة صار يبذل جهده في تعطيل آماله واستعمل في ذلك
جميع ما سولته له نفسه الطماعة وحقده على هذا الملك فمن ثم كان ارباب ديوان
الانتخاب يميلون الى حزب كرلوس شيأ فشيأ حتى ان وكيل البابا بعد
ان مكث مدة طويلة وهو يعارض ولا يسلم في توليته رأى ان معارضته
لا جدوى لها ولا طائل تحتها وان تولية كرلوس لا يمنعها فبادر بفعل ما يبعث
كرلوس على رعايته وشموله بنظره حيث اذن له على سبيل النيابة عن البابا
ليون ان يجمع بين التاج الايمبراطوري وتاج نابلي مع ان ذلك لم يسبق
لغيره وكان البابا يتعلل به في منع كرلوس من الاستيلاء على الايمبراطورية
ويبدي انه ملك على نابلي فلا يجوز له الجمع بين تاجها والتاج الايمبراطوري
حيث لم يثبت ذلك لاحد قبله كما هو مقتضى نص القوانين
ولم يتم امر هذه المنازعة التي اوقعت حينئذ بلاد اوروبا في الحيرة الا في ثمانية مطلب
وعشرين من شهر حزيران (سنة ١٥١٩) من الميلاد بعد موت مكسيمليان انتخاب كرلوس
بخمسة اشهر وعشرة ايام وكيفية انتهائها ان ستة انفار من السبعة المنتخبين للايمبراطورية
انحط رأيهم على كرلوس ملك اسبانيا واما السابع وهو مطران تريويس
فلم يزل يدافع عن ملك فرانسا ويبرهن على انه هو الجدير بالمنصب الايمبراطوري
فلما لم يجد لتوليته سبيلا تحول عما كان عليه اولا ووافق الستة الباقين
فعند ذلك ثبت التاج الايمبراطوري للملك كرلوس بموجب اقرار هؤلاء
السبعة ارباب ديوان الانتخاب

ومع

ومع ان المنتخبين رضوا العدة اسباب باعطاء التاج الامبراطورى لكرلوس سنة ١٥١٩
ظهر عليهم الغم والحزن لانهم كانوا يخشون صولته وقوة شوكته فاخذوا
يستعدون بجميع ما يحفظهم منه ويقيهم مما عساه ان يقع من تعديه على
حقوق الجمعية الجرمانية ومزاياها الثابتة لها من قديم الزمان وذلك ان هؤلاء
الامرآء المنتخبين منذ احقاب ماضية وقرون متوالية كانوا يلزمون
كل ايمبراطور عند توليته ان يقر تلك المزايا ويأخذون عليه المواثيق والعهود
ان لا يتعدى على شئ منها باى وجه كان ولما كان التاج الايمبراطورى لا يعطى
الا للملوك ضعاف ليس لهم ما يخشى منه السطوة والبأس كاتساع الاراضى
ورجحان العقول كان هؤلاء الامرآء يرون ان التزام الملوك المذكورين
بمجرد المشافهة انهم لا يتعدون على مزايا الجمعية الجرمانية يكفى فى صدقهم
واجتنابهم لكل ما يضر بحقوق تلك الجمعية ولكن لما كان كرلوس بمكانة
من الشوكة والصولة رأوا أن الوعد منه مشافهة لا يكفى فى امنهم على مزاياهم
فسلكوا معه مسلكا آخر ليكونوا آمنين من بأسه وبطشه وحرروا قانونا
يشتمل على مزايا المنتخبين وخصوصياتهم ومزايا امرآء الايمبراطورية ومزايا
المدآئن وسائر اعضاء الجمعية الجرمانية وذكروا ان المواد المذكورة فى هذا
القانون لا يجوز للايمبراطور ان يتعدى على شئ منها ووضع رسل كرلوس
امضاءهم فيه على سبيل النيابة عن ملكهم يعنى وضعوا عليه علامة الصحة
واقره هو ايضا بنفسه حين لبس التاج الايمبراطورى ومن ذلك الوقت صار
المنتخبون يلزمون كل من تولى ايمبراطورا باقرار تلك الشروط وبالجملة فهذا
القانون الذى هو كناية عن مشارطة بين الايمبراطور والرعية يعد الآن ببلاد
المانيا كانه حاجز حصين يقى الاهالى من تعدى الايمبراطرة او كانه يعتبر
اعظم شرطة قانونية يأمنون بها على حقوقهم ومزاياهم

مطلب اعلام كرلوس بانتخابه ايمبراطورا

وبينما كان كرلوس بمدينة برسولونه مشتغلا بما كان حاصلا وقتئذ
من المعارضة حيث كانت مشورة وكلاء مملكة قتالونيا لا تسلم له فى شئ
من المواد التى عرضها على اربابها التئذاكروا فيها اذ جاءه الخبر من مدينة

سنة ١٥١٩

فرنكفورت بان المنصب الايمبراطورى قد تم له وانه ولى ايمبراطورا بموجب اراء المنتخبين فعند وصول هذا الخبر اليه حصل له من الفرح والسرور ما يقوم عادة بنفس كل شاب طماع اذا ظفر بما يترتب عليه تقوية شوكته وحظى بمنصب عظيم يجعله فوق سائر ملوك عصره من ابناء جنسه وتعلقت آماله من وقتئذ بمآرب الفخار والمعالى التى شكلت فكرة مدة حكمه * وبمعرفة احواله فى ذلك الوقت يقف الانسان على ازدياد اطماعه التى جعلت تاريخه مما تتشوق اليه النفوس وترغب فى الاطلاع عليه

فقد حصلت بعد ذلك بقليل حادثة وان كانت غير مهمة الا انها دلت على ما قام بنفسه من الانفة والشمم بسبب رقيه الى اوج المنصب الايمبراطورى وتلك الحادثة هى انه فى جميع الوثائق والاوامر الصادرة عنه بوصف كونه ملكا على اسبانيا كان يلقب نفسه بلفظ ماجستة اى صاحب العظمة والزم رعاياه ان يلقبوه بهذا اللقب الجليل حيث جعله علامة جديدة للتشريف والاحترام وكان ملوك اوروبا الى ذلك الوقت يلقبون بلفظ ألتيس اى علو الشان ولفظ غراس فقط اى ولى النعم ولكن حيث ان الطبيعة البشرية تميل دائما الى ما فيه شرفها وعلو مقامها اقتدى دواوين اوروبا بديوان اسبانيا ولقبوا ملوكهم بلفظ ماجستة وصار هذا اللفظ من ذلك الوقت دالا على علو الشان ورفعة القدر حتى ان اضعف ملوك الافرنج فى عصرنا هذا صاروا يلقبون انفسهم به واقواهم لم يمكنه الى الآن ان يقترح لقبا آخر اعظم منه واعلى شرفا يلقب به نفسه حتى يمتاز عن غيره

مطلب غم الاسبانيين من هذه الحادثة

وكان من اللازم ان اهل اسبانيا يفرحون بارتقاء الملك كرلوس الى الكرسى الايمبراطورى ويسرون بذلك كسروره به الا انهم كانوا يعلمون ان هذا المنصب لابد ان يحرمهم من حضور ملكهم عندهم واقامته ببلادهم ويجعلهم تحت حكم نائب من نوابه ومثل هذا الحكم فى الغالب لا يخلو عن الجور والظلم فلحقهم غم شديد لذلك حيث كانوا يعلمون ان هذه الحادثة لابد ان تفضى بهم الى سفك دماء ابناء وطنهم فى حروب لا مصلحة لهم فيها وان كنوزهم وخزائنهم

سنة ١٥١٩

ستنفد فى مصالح غيرهم وان محصولهم ستغرق فى لجج سياسات ايطاليا و المانيا فبجميع هذه الاسباب رأوا ان تولية مليكهم كرلوس على الامبراطورية من الحوادث السيئة التى تضر ببلاد اسبانيا. وتذكروا ما كان عليه اسلافهم من الشجاعة وحب الوطن حيث منعوا فى مشورة قسطيلة الملك ألفونس الحكيم عن الخروج من مملكته ليذهب الى المانيا ويتتوج بتاج الامبراطورية وظهر لهم أن ذلك احق ما يقتدى به فى مثل هذه الحادثة

ومع ذلك فلم يلتفت كرلوس الى ما لحق رعاياه الاسبانيوليين من الغم والحزن فى هذا المعنى بل قبل التاج الامبراطورى الذى اتى به اليه القونتة البالاطينى المسمى لويز فى محفل عظيم من امراء المانيا وقدمه اليه باسم الامراء المنتخبين واظهر كرلوس انه يريد الارتحال الى بلاد المانيا ليأخذ منصبه الجديد لان ذلك كان من الضرورى اللازم حيث انه بموجب رسوم الجمعية الرومانية وقوانينها لا يجوز ان تجرى احكامه واوامره فى الامبراطورية قبل ان يتكلل بتاجها على رؤس الاشهاد فى محفل عام

مطلب ازدياد غم الاسبانيوليين

فلما اشتهر بين الناس ان كرلوس عزم على الارتحال الى بلاد المانيا ازداد غم الاسبانيوليين وتسلطن الحزن على قلوب اهل المملكة على اختلاف طوائفهم حتى ان البابا ليون كان قد اعطى كرلوس عشر الايرادات القسيسية التى تحصل من مملكة قسطيلة ليستعين به فى حربه مع جيوش العثمانية فاجتمع قسوس قسطيلة للمذاكرة فى هذا الشان وابوا ان يعطوه ما اذن به البابا زاعمين ان هذا المبلغ لا يصح ان يطلب منهم الا ان كان يخشى حقيقة على دين النصرانية من جيوش الاسلام فلما بلغ ذلك البابا ليون وكان لا يطيق مخالفة امره حكم على المملكة بالمنع وهو عزل القسوس عن وظائفهم ولكن لم يعبأ احد بهذا الحكم ولم يترتب عليه كبير فائدة وجعله كافة الناس من قبيل الظلم حتى ان كرلوس نفسه طلب من البابا ان يبطله ويرجع عنه وبهذه الحادثة حصل لطائفة القسوس الفخر

سنه ١٥١٩

حيث خالفوا البابا في ظلمه ولم يخشوا بأس كرلوس وعاد ذلك عليهم
بالمنفعة حيث انقذوا انفسهم من الغرامة التي اراد البابا ان يفرضها عليهم
وقد حصل في اثناء ذلك بمملكة بلنسية التابعة لمملكة اراغون فتنة
اشد هولا من الفتنة السابقة حيث نشأ عنها نتائج اعظم منها خطرا وطالت
مدتها اكثر من الاولى وكان منشأوها احد الرهبان من اصحاب القلق صار يعظ
سكان مدينة بلنسيه التي هي تحت مملكة بلنسيه ويحثهم على حمل السلاح
لينتقموا من بعض اناس جاوزوا الحدود واتبعوا سبيل التعسف والبهتان
فلما حمل اهل تلك المدينة السلاح ونجحوا في هذا الامر قام بانفسهم ان لهم
شوكة عظيمة وبأسا قويا فصمموا على انقاذ انفسهم من كل من قصدهم بسوء
وتعدى عليهم فبعد ان فعلوا من اراد الراهب السابق فعلهم أبوا ان يتركوا
السلاح ويعودوا الى الصلح كما كانوا بل تعاهدوا معا ورتبوا فيما بينهم فرقا
على نسق الفرق العسكرية واخذوا يمارسون التعليمات الحربية ويواظبون
عليها حتى كانهم جيوش منتظمة وكان الغرض الاصلي لهم من تلك المعاهدة
واقوى الاسباب الباعثة عليها هو انقاذ انفسهم من ظلم الاشراف والاكابر
لأن المزايا الارستوقراتيكية اى مزايا الاشراف كانت بمملكة بلنسية اكثر
واعظم مما كانت بغيرها من ممالك اسبانيا حتى ان الاشراف فيها كانوا
لا يعترفون ان ثم يدا فوق ايديهم تسألهم عما يصدر منهم وتحاسبهم عليه
فكانوا لا يعاملون من عداطائفتهم من الاهالى معاملة الاتباع فقط بل كانوا
يعاملونهم معاملة الارقاء والاسرى فلما دهمتهم هذه الفتنة التي لم تكن تخطر
ببالهم حصل لهم منها رعب شديد وفزع عظيم وخافوا ان تقوى شوكة الاهالى
ويستمروا على خروجهم وعصيانهم حتى ينقذوا انفسهم من حكومة الاشراف
ويستقلوا بانفسهم فبذلوا جهدهم في اطفاء نارها بسلوك طريق السياسة
والتدبير فلما راوا انه لا يمكنهم ذلك الا بواسطة السلاح استعانوا بالامبراطور
كرلوس وطلبوا منه ان يأذن لهم بالهجوم على العاصين وكذلك الاهالى
بعثوا الى الامبراطور المذكور وكلاء يعلمونه بالمظالم التي كانت حاصلة لهم

مطلب
الفتنة التي حصلت بمملكة بلنسية في ذلك الوقت

من

سنة ١٥٢٠ من الاشراف ويتضرعون اليه ان يدخلهم تحت كنفه وحمايته فمن سعد الاهالى وصل رسلهم الى الديوان فى وقت كان فيه كرلوس فى حنق شديد على الاشراف غير انه لما كان يلزمه الارتحال الى بلاد المانيه وكان فى قلق بسبب تأخيره عن هذا السفر وكان لخاصة الفلمنكيين رغبة عظيمة فى رحلته لينقلوا الى وطنهم الاموال التى جمعوها من مملكة قسطيلة لم يمكنه ان يذهب بنفسه الى مملكة بلنسيه ليعقد مشورة وكلاء المملكة فعين الكردينال ادريان لينوب عنه فى تلك المشورة وامره ان يأخذ على الاهالى مبايعة على الطاعة والانقياد وان يثبت لهم مزاياهم وحقوقهم فى محفل عام حسب العادة الجارية وان يطلب منهم مبلغا من النقود على سبيل التبرع كما طلب من مملكتى قسطيلة واراغون ولكن رأى اشراف بلنسية ان ذلك من قبيل العار لبلادهم ومملكتهم حيث ان لها الحق كغيرها من ممالك اسبانيا فى ان تتشرف بحضور الملك اليها وابدوا انه بحسب قوانين مملكتهم ورسومها لا يجوز لهم ان يبايعوا بالملوكية اميرا لم يحضر عندهم ولا ان يعطوه امدادا يستعين به واستمروا مصممين على ذلك حتى لم يمكن تحويلهم عنه باى وجه كان فغضب كرلوس من قبح سلوكهم واخذ بناصر الاهالى وامرهم ان يبقوا على ما هم عليه من حمل السلاح على الاشراف فرجع رسل الاهالى فرحين مسرورين وتلقاهم ابناء بلادهم باحتفال عظيم حيث كانت نجاة الوطن على ايديهم وتكبر الاهالى حينئذ وعتوا عتوا كبيرا وطغوا وبغوا حتى طردوا الاشراف من المدن وانتخبوا جملة من القضاة اقاموهم حكاما فى بلادهم وعقدوا فيما بينهم معاهدة شهيرة سموها معاهدة الجرمانادا اومعاهدة الاخاء فصارت تلك المعاهدة فيما بعد اصلا لجميع الفتن التى وقعت بمملكة بلنسية بل ولجميع المصائب الكبيرة التى حلت بها

وكانت مملكة قسطيلة حينئذ فى اضطراب وانقلاب فلما شاع الخبر بان كرلوس قد عزم على الرحيل من اسبانيا اخذت عدة مدن كبيرة تتشكى من سفره وكتبت له ان يرجع عن ذلك وجددت شكواها التى كانت

سنة ١٥٢٠ عرضنا له سابقا في شأن ظلم اتباعه الفلمنكيين وجورهم فحاول كرلوس الرسل الذين اتوا اليه من طرف تلك المدائن ولم يأذن لهم بالدخول لديه ليبلغوه ماهم مسيلون بصدده لكنه رأى انه يصعب بهذه الطريقة اطفاء نيران فتن هذه المدائن الكبيرة فدعا ارباب مشورة وكلاء قسطيلة بمدينة غاليسة في اقليم قومبوسطيله وكان غرضه من انعقاد تلك المشورة ان يطلب من اربابها مبلغا آخر ليستعين به على مصاريفه لان وزراء الفلمنكيين كانوا باختلاسهم قد اضروا بجزائنه فلم يبق عنده ما يكفيه حتى يظهر في المانيا بالمظهر اللائق بالمنصب الايمبراطوري الذي هو مدعو اليه ولكن كان اقليم قومبوسطيله بعيدا عن مملكة قسطيلة وكان الاجل المضروب لدفع المبلغ الذي طلبه اولا لم ينقض فكان هذان الامران وهما عقد المشورة بهذا الاقليم البعيد وطلب الاعانة قبل انقضاء الاجل من اسوء الحوادث عاقبة واشدها هولا وخطرا حتى انه عما قليل نشأ عنها حنق الامة الاسبانيولية وغضبها حيث كانت ذات حرية زائدة وكانت عادتها ان تقتصر على ملوكها فيما يطلبونه لانفسهم فكتب القضاة لكرلوس يتشكون من هذين الامرين هذا وكان سكان مدينة ولادوليدة يأملون ان انعقاد المشورة سيكون بمدينتهم فلما رأوا ان كرلوس يريد انعقادها بمدينة غاليسة غضبوا واشهروا السلاح على الملك وحفدته وبلغ منهم الغضب مبلغا حتى صاروا كالمجانين بحيث لو لم تحصل ريح عاصفة لساعدت كرلوس وجماعته على الفرار لقتل كل من كان معه من الفلمنكيين ولعسر عليه هو الرحيل الى اقليم قومبوسطيله فكان كرلوس كلما مر بمدينة يتشكى اليه اهلها من كونه امر بعقد المشورة في مدينة غاليسة الا انه كان قد صمم كل التصميم على عقد المشورة بهذه المدينة فلم يلتفت لقول احد ممن تشكى اليه في ذلك وقد بذل وزراء كرلوس ما في وسعهم من الشوكة والحيلة ليكون انتخاب ارباب المشورة من اناس يساعدونهم على اغراضهم حتى لا يتوقفوا في قبول مقاصدهم ومع ذلك كان غضب جمهور الملة شديدا بحيث انه عند افتتاح المذاكرة في المشورة

مطلب
افتتاح المذاكرة بالمشورة في اول يوم من شهر نيسان

ظهرت علامات الحزن والغم على وجوه كثير من رسل العمالات ووكلاء الملة حتى كان يخشى ان يناقضوا الملك كل المناقضة وينفذوا اعلية وعلى وزرائه جميع مقاصدهم فاما مدينة طليطلة فعلت ما تقتضيه العادة الجارية عندهم من قديم الزمان وهي ان الوكلاء ينتخبون بطريق القرعة فوقعت القرعة في تلك المرة على رجلين ثبت عليهما انهما اخذ ارشوة من الوزراء الفلنكيين فلما ثبت عليهما هذه الخيانة لم يرض اهل طليطلة ان يبعثوهما في تلك المشورة ويأتنوهما على مصالحهم وارسلوا بدلهما اثنين اوصوهما بان لا يقرا صحة انعقاد المشورة في مدينة غاليسه واما رسل مدينة سلمنكه فأبدوا انهم لا يأخذون على انفسهم ميثاقا بالصدق والامانة الا اذا رضي كرلوس باتخاب محل آخر لعقد المشورة غير اقليم قومبوسطيله ١٥٢٠ سنة

واما رسل مدينة تورو ومدينة مدريد وقرطبة وعدة مدائن اخرى فأبوا كل الاباء ان يسلموا للملك في الامداد الجديد الذي طلبه قائلين انه لم يسبق لهم مثل ذلك من ملوكهم بل هو امر مخالف لقوانين المملكة مع عدم الحاجة اليه الان كرلوس ووزراءه لم يدعوا شيأ مما يؤثر في الجمعيات الاهلية ويستعطف قلوب اربابها الا فعلوه فاخذوا يستعطفون بعض الناس بالاموال وبعضهم بالمناصب والمواعيد وبعضهم بالتخويف والتهديد وكان الامير شيوره وغيره من الامراء الفلنكيين لا ينفك عن مواساة طائفة الاشراف بالتملق والمداهنة وكان الاشراف في غيظ وغيرة شديدة من استقلال الجمعيات البلدية الاهلية وحريتها الحاملة لها على العصيان والخروج فانضم بعضهم الى حزب كرلوس وساعدوه فيما كان يطلبه وبعضهم كف عن معارضته ومناقضته في نيل مآربه وتنفيذ اغراضه وبالجملة فمع تشكي الملة من هتك حرمة الرسوم القديمة المبنية عليها الحكومة انحط رأى الجمهور في المشورة على اعطاء كرلوس ما يطلبه من الاموال على سبيل التبرع فاخذه الان ارباب المشورة عرضوا عليه ان ينصفهم في المظالم التي تشكت منها الملة سابقا ولكن لما نال ما كان يأمله ضرب صفحا عن هذا الامر ازدياد غم اهل قسطيلة

سنة ١٥٢٠

مطلب
جعل كرلوس اناسا ينوبون عنه ويقومون بمصالح ممالك اسبانيا مدة غيبته

لعلمه انه لا يصيبه ضرر باذايته عليهم ولم يقبل لهم شكوى فى شأنه وحيث لم يبق ثم ما يمنع الايمبراطور كرلوس عن السفر اظهر بمساعدة التى كان اخيرها الى هذا الوقت وهى انتخاب اناس يجعلهم نائبين عنه فى اسبانيا ليقوموا بتدبير مصالحها مدة غيبته فجعل الكردينال ادريان نائبا على مملكة قسطيلة والامير جوليني دولانوزه على مملكة اراغون وولى الامير ديبغ ماندوزه فونتة ميليطو على بلنسية فسرح القسطيليون بتولية الاخيرين واما ادريان فمع انهم كانوا يحترمونه ويعظمونه دون غيره من سائر الامراء الفلمنكيين لم ينشأ عن توليته الا ازدياد كراهتهم لاهل الفلمنك وغيرتهم منهم حتى ان الاشراف وان كانوا قد تحملوا من المظالم ما هو اعظم من ذلك غضبوا كل الغضب ورأوا ان تولية هذا الرجل مما يزرى بهم ويكسبهم العار والخزى فادعوا ان هذا الانتخاب فاسد لمخالفته لاصول المملكة وقوانينها وبذلوا جهدهم فى ابطاله ولكن كان كرلوس على غاية من التشوق الى الارتحال الى بلاد المانيا وكان ندماؤه الفلمنكيون فى قلق عظيم من المكث فى اسبانيا فلم يعتن بتشكى القسطيليين ولم يبحث عن ادنى وسيلة يحترس بها من اضرام نيران فتنة كانت وقتئذ آخذة فى الظهور بمدينة طليطلة وترتب عليها فيما بعد عواقب سيئة مشؤومة فركب البحر من مدينة كورونيا فى ٢٢ من شهر ايار وعجل بالرحلة الى المانيا ليأخذ تاجها الجديد مع انه بهذه العجلة عرض نفسه لاضاعة تاجه القديم الذى هو اعظم فائدة من الجديد واشد تمكنا منه

مطلب
ارتحال كرلوس الى البلاد الواطية

(المقالة الثانية)

من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
لزوم حضور كرلوس ببلاد المانيا

قد كان ثم عدة مقتضيات تدعو كرلوس الى الحضور ببلاد المانيا حتى جعلت حضوره بها من اشد الاشياء لزوما وذلك ان الامراء المنتخبين كانوا فى قلق عظيم من طول غيبته لان الكرسى الايمبراطورى كان خاليا عمن يقوم بادارة الايمبراطورية وزيادة على ذلك كانت دول كرلوس الوراثية فى هرج

سنة ١٥٢١

واضطراب بسبب الفتن الداخلية التى كانت وقتئذ تنمو فى جهاتها وتزداد بارجائها وكانت المذاهب الدينية الجديدة تتقدم كل يوم تقدما عجيبا حتى كان اطفاء نيران الفتن الناشئة عنها يستدعى زيادة الحزم والعزم ومع ذلك كله كان ملتفتا الامر آخر جسيم وهو حالة سلوك ملك فرانسا فان كرلوس رأى نفسه عرضة للاخطار العظيمة ان لم يحترس بجميع ما فى وسعه للمدافعة عن نفسه من هذا الملك الشديد البأس والشوكة

مطلب
منشأ العداوة بين كرلوس وفرنسيس الاول وازديادها بالتدريج

ولما اخذ كرلوس وفرنسيس الاول يتنازعان فى شأن التاج الامبراطورى تعاهدا ان يبقيا مع بعضهما على المراعاة والاحترام بحيث لا يظهر من احدهما لصاحبه ادنى شئ يدنس عرضهما او يزرى بشأنهما فقد قال فرنسيس الاول مع خلوص طويته كما هو عادته فى معاهداته ما معناه نحن نسعى فى تحصيل غرض واحد فيلزم ان يبذل كل منا جميع وسعه فى تحصيل هذا الغرض فاذا ساعد احدنا الحظ ودعى الى هذا الامر وجب على الآخر ان يرضى بالمقدور ويحفظ عهود الصلح وعلاقة المحبة انتهى ولا شك ان مثل هذين الملكين الشابين ذوى الشمم وشرف النفس المتولعين على حد سوآء بنيل العلا والفلاح لا يستغرب منهما البقاء على هذا الميثاق لكنهما ادركا فيما بعد انهما قد تعاهدا على امر لا يمكنهما مراعاته وحفظه حيث انه فوق طبيعة البشر لان النفوس البشرية لضعفها لا تستطيع ان تمكث على حفظ ميثاق الصلح اذا رأت ان عدوها قد تغلب على غرض هو اقصى مناها فانه لما رجح جانب كرلوس عند اهالى اوروبا ودعى الى الكرسى الامبراطورى غضب فرنسيس غضبا شديدا وداخله من الحقد ما يقوم عادة بكل نفس طماعة خابت آمالها فمن ثم نشأت العداوة التى لم تخمد نيرانها من قلوب هذين الملكين مدة حكمهما لا سيما وكانت اغراضهما تتعارض وكانت اسباب الاختلال والفشل متراكمة حينئذ فكادت نيران الحروب لا تنطفى ابدا من بينهما فاما الاغراض التى كانت تتعارض فهى ان كرلوس لم يعمل بما فى البند الاصلى المسطر فى مشارطة نوايون السابق ذكرها (وحاصل هذا البند هو ان خناد البرطه متى طلب

سنة ١٥٢٠

مملكته من كرلوس ولم ينصفه جاز للملك فرنسيس ان ينضم الى حزبه ويدافع عنه على اى وجه كان) فلم يعتن كرلوس بهذا الشرط وابى ان ينصف حناد البرطه الذى كان ملك نواره وطردمنها بدون حق لاسيما وكانت مصالح فرنسيس وشعائر شرفه تدعوه الى اعادة حناد البرطه الى كرسى نواره حيث سلب منه بطريق الاغتيالات والتعدى واما فرنسيس فكان يتطلب تاج نابلى لانه كان للملكة الفرنساوية فتغلب عليه الملك فرديننند ظلما وعدوانا ممن كان ملكا على فرانسا قبل فرنسيس وضمه الى مملكة اسبانيا وكان الايمبراطور كرلوس يتطلب دوقية ميلان لانها من اراضى الايمبراطورية فتغلب عليها فرنسيس وبقيت فى حكمه بدون ان يقره عليها من يلزم اقراره وكان كرلوس ايضا يعد دوقية بورغونيا من مخلفات ابائه واسلافه فتغلب لويز الحادى عشر ملك فرانسا عليها بمحض الاغتصاب هذا وكان فرنسيس قد جدد حينئذ عهود محبة اكيدة بينه وبين دوق غويلدروس وكان الدوق المذكور عدوا لكرلوس ولعشيرته فاودع ذلك فى قلبه غيرة شديدة

مطلب المذاكرات التى حصلت قبل حصول الحرب بين فرنسيس و كرلوس

ولاشك ان مثل تلك الاسباب السابقة توجب الشقاق والحرب ولو بين ملكين آخرين خالين عن المعاداة والطمع وحيث كان هذان الملكان يعلمان ان الحرب بينهما يكون خطرا وعواقبه شنيعة وانه بعد نصب ميدانه لا يرجى لهما عود الى الصلح ظهر على كل منهما انه فى حيرة كبيرة خوفا من العواقب الخطره التى تنشأ ضرورة عن هذا الحرب فمكث كل منهما مدة وهو يتبصر فى عاقبة امره ويختبر قواها العسكرية ويقابل بينها وبين قوى خصمه ويسعى فى استمالة ملوك اوروبا الآخرين ليعينوه فى مشروعاته

مطلب مداولاتهما مع البابا

وكان البابا ليون يخشى كلا من هذين الخصمين لانه كان يعلم ان من يغلب منهما يستولى على بلاد ايطاليا ويتصرف فيها كيف شاء وكان احب شئ اليه ان يسعى فى اضرام الحرب بينهما الا انه رأى ان بلاد اللنبردية البنادقة تصير ميدان الحرب والازدحام ولولا ذلك لبذل جهده فى ايقاع الفشل والتفاقم

بينهما

بينهما حتى تنعدم قواهما فى الحروب لكنه كان يرى ان ذلك يعود عليه بالضرر سنة ١٥٢٠
وانه بمجرد حصول الحرب بينهما تسير جيوش فرانسا وجيوش اسبانيا
حتى تتلاقى بدوقية ميلان فتصير تلك الدوقية ميدان القتال بين الحزبين
وحيث انها قريبة من تخته وله مصلحة كبيرة فى هذا الحرب ولا يمكنه ان يمكث
خليا اى لا يجعل لنفسه مدخلا فيه وينضم الى احد الحزبين اضطر بهذه
الاسباب الى ان يسلك على حسب مقتضيات الاحوال اذ ذاك واخذ يتداول
مع كل من الامبراطور كرلوس وملك فرانسا وسلك طريق المداهنة والتملق
ليستوجب محبتهما بمخادعته فترجاه كل منهما الرجاء الكلى ان يكون ظهيره
ونصيره فاظهر انه خلى الاغراض مع انه كان يضمر حقيقة نيته ولا يبدى ما فى
طى طويته واستعمل طرق الخداع والمكر التى امتاز بها فى عصر ما ارباب
السياسة من اهل ايطاليا

مطلب مداولاتهما مع اهل البنادقة

وكانت مصالح اهل البنادقة فى هذا الحرب كمصالح البابا فكانوا يحبون
ايضا عن ان لا تكون ايطاليا ميدان الحرب بين الفريقين وان لا يكون
لجمهوريتهم مدخلية فيه ولكن مع مخادعة البابا ليون وما اظهره من
التخلى عن الاغراض كان ثم علامات جلية وامارات واضحة تدل على انه يميل
لحزب الامبراطور وذلك اما لانه كان يخشاه اكثر من فرنسيس او لانه كان يعلم
انه انفع له منه واما اهل البنادقة فكان يظهر منهم انهم ان الجأتهم الضرورة الى
الدخول فى احد هذين الحزبين لا يدخلون الا فى حزب ملك فرانسا لاسباب
عندهم مضاهية للاسباب التى بعثت البابا على الدخول فى حزب
الامبراطور كرلوس ولكن كان لا ينبغى ان ينتظر كبير اعانة من ملوك ايطاليا
لانهم كانوا يغارون غيرة شديدة مما عداهم من ممالك الافرنج ولا يحبون
ان تزيد شوكة مملكة منها عن الاخرى بل كان اهم مقاصدهم السياسية
المحافظة على ابقاء المساواة والمعادلة بين شوكة هذه الممالك حتى كان لا يمكن
لاحد ان يحولهم عن هذا الراى ويدخلهم فى حزبه لاعانته الا ان اظهر لهم
المنافع الجسيمة والفوائد العظيمة .

سنة ١٥٣٢

مطلب
مداولاتهما مع ملك انكلترة

وقد بذل كل من الامبراطور كرلوس وملك فرانسا غاية جهده فى استمالة ملك الانكليز اليه وادخاله فى حزبه لانهما كانا يعلمان ان هذا الملك يعين من يتعاهد معه اعانة قوية لا تؤمل من غيره وانه ليس كملوك ايطاليا يجعل ذلك موقوفا على احتراسات سياسية وكان ملك الانكليز وقتئذ هو هنرى الثامن وقد تولى على هذه المملكة سنة ١٥٠٩ وكان طالعه سعيدا حتى كان يؤمل ان حكومته ستكون اسعد الحكومات واعظمها بهجة ورونقا وكان

مطلب
بيان عظم شوكة ملك انكلترة

جامعا بين حقوق عشيرة يورقه الملوكية وعشيرة لنكستره وهذه الحقوق كان يعارض بعضها بعضا فلما سعى فى معاهدته كل من كرلوس وملك فرانسا واذعناله بالطاعة ازداد بهجة فى اعين رعاياه وغيرهم حتى امكنه ان يتصرف فى ادارة مملكته كيف يشاء وصار يحكمها مع شوكة قوية وكلمة مطلقة لم يتجاسر احد ممن سلف قبله من الملوك على مثلها الاويكون عرضة للاهوال والاخطار بل وامكنه ايضا ان يجعل لنفسه مدخلية فى مصالح الممالك الافرنجية البرية القارة مع ان انكلترة مكثت قبله زمنا طويلا تبذل جهدها فى هذا الغرض ولم تتمكن منه لما كان فيها من الفتن والتقلبات الداخلية وزيادة على ذلك كان هنرى المذكور قد ورث عن اسلافه خزائن واموالا لا تحصى فصار بها من اغنى ملوك الافرنج واعظمهم ثروة وذلك ان الملك الذى كان على انكلترة قبله عرف بحسن ادارته وحزمه ان ينشر الوية الامن فى المملكة حيث اصلح الخلل والفساد الذى نشأ فيها عن الحروب المدنية الداخلية غير ان هذا الامن لم يمكث مدة مستطيلة حتى تعود للمملكة الانكليزية شوكتها ويقوى عزمها فلما سئمت نفوس الانكليز من الفشل والشقاق الذى كان بينهم ولحقهم الخزى والعار من كونهم مكثوا زمنا طويلا وهم يجعلون وطنهم ميدانا لسفك دماء ابناء ملتهم جزعوا كل الجزع رغبة فى اظهار شهامتهم وشجاعتهم فى حرب اجنبى اى مع ملة اجنبية لكى يحيوا ذكر فخار آبائهم ومآثر اسلافهم وكانت طبيعة هنرى تلائم حال مملكته وميل رعاياه

مطلب
مناقب هنرى واخلاقه

فكان طماعا نشطا فاما هارة وجسارة وكان ممتازا بنجابته وخفته فى سائر

سنة ١٥٠٢ انواع التعليمات العسكرية التى كانت فى ذالك العصر الجزء الاهم فى تربية
الاشراف وبذلك صار من صغره له ولوع عجيب بالحرب والقتال وكان متولعا
كل التولع بالتصدى الى حرب اجنبى كى يشهر او آل حكومته بحادثة عظيمة
فبينما كان كذلك اذ لاحت له تلك الفرصة العظيمة وكان قد انتصر فى واقعة
غنغات وفى محاصرة مدينة ترواته ومدينة تورين فصار بتلك
النصرات يرفل فى حلل الفخر والسودد وان لم يترتب عليها كبير جدوى لبلاد
انكلترة وثبت عند ملوك الافرنج انه ذو شوكة عظيمة وتيقن كل من كرلوس
وملك فرانسا انه ينفع من يتعاهد معه كل النفع وزيادة على تلك الاسباب
كان هنرى آمنا من كل اغارة اجنبية بسبب وضع دولته خصوصا وكانت
مدينة كالس من جملة بلاده فكان يسهل عليه بواسطتها ان يدخل فى مملكة
فرانسا ومملكة البلاد الواطية فبهذه الاسباب القوية كان ملاذا لبلاد
اوروبا وراعيا لحمى حريتها وكان لا يصلح غيره لان يكون حكما بين ملك فرانسا
والامبراطور كرلوس وكان يعلم انه بهذه الاسباب السابقة يرجح على غيره
ويعرف انه لاجل ابقاء المعادلة والمساواة بين ملوك الافرنج حتى لا يتعدى
ملك على آخر يلزمه ان يحافظ على ابقاء تلك المعادلة بين كرلوس وملك
فرانسا بحيث لا يظهر احدهما على الآخر لان من قويت شوكته منهما
اضر بالآخر وخشى منه على بقية ممالك اوروبا غير انه لم يكن خليا عن
الاغراض ولا مستكملا للسياسة والحزم اللازمين لتنجيز هذا المشروع الجسيم
بل كان صاحب اغراض سهل الانقياد الى شهوات نفسه سريع الاجابة
لداعى اطماعه وكان يميل الى المباهاة والتفاخر ومن كانت هذه صفته لا يمكنه
ان يدبر مثل هذا الامر السياسى الجسيم ولا ان يتتبعه بدون فتور حتى يتمه
ويقضى امره ففى كل وسيلة احترس بها مدة الحرب بين كرلوس و فرنسيس
قل أن يراعى المصلحة العامة او مصلحة نفسه بل كانت جميع تلك الوسائل تبعثه
عليها شهواته النفسانية التى طمست على بصيرته فعمى عن ادراك مصالحه
الحقيقية وهذا هو الذى منعه عن ان يكون له صولة عظيمة ومدخلية كبيرة

في مصالح اوروبا فلم يجن ثمرة تلك الفرصة الجليلة التي كان يسهل عليه اجتناؤها بموجب مقتضيات الاحوال اذ ذاك ولو لاحت هذه الفرصة لملك آخر اكثر منه سياسة وتحيلا ولو كان ادنى منه قريحة وعقلا لاغتنم منها فوائد جليلة ومنافع جزيلة سنة ١٥٢٠

ومع ذلك فلا ينبغي ان تقول ان مثالب هنرى وعيوبه الذاتية هي التي اوبعته في سبل الغي التي سلكها في ادارته وتدبيره بل نقول ان الذي اوقعه في اغلبها هو خيانة وزيره ونديمه الكردينال ولسي لانه كان شرها طماعا كثير الاغراض قبيح السلوك خبيث الطوية وكان من اراذل الناس فرقي من حضيض الرعاع الى اوج الامراء وصارت له صولة وشوكة لم يصل اليها قبله احد من الرعايا فكان له موقع عظيم في قلب هنرى وان كان اشد الملوك عتوا وتكبرا ولما كان هذا الوزير له معارف غزيرة في كل مادة امكنه ان يجمع بين امرين متناقضين وهما الوزارة والمنادمة وكان ذا عقل ثاقب وفهم صائب لا يكل من المداومة والمواظبة على الشغل وكان يعرف ظاهر الدولة وباطنها حق المعرفة ويعرف اغراض الممالك الاجنبية ومقاصدها فامكنه ان يوفي على ماينبغي بما يخص تصرفه المطلق وكان ذا ادب في احواله واطواره ظريف المنطق بديع العقل تميل النفوس الى مسامرته وحكاياته وتتسارع الى سماع عباراته بحب التزين والتجمل له براعة عظيمة في العلوم الادبية التي كان هنرى مشغوفا بها وبهذا كله استولى على قلب هنرى المذكور حتى صار يأتمنه ويثق به كل الوثوق ويعتمد عليه في كل امر قل او جل وصارت شوكته تقرب من الشوكة الملوكية الا انه كان لا يستعمل تلك الشوكة في نفع الملة الانكليزية او فيما يكسب ملكه العظم والجاه وكان طماعا مبذرا انما قنعت نفسه فقط من الاموال والغنى ولم يكتف بما حصله منها بل كانت آماله متعلقة بتحصيل امور جديدة يزداد بها عظمه وعلو شأنه ولما رأى انه صار ذا شوكة كبيرة وموقع عظيم في قلب الملك هنرى وان كان لا يستطيع ان يصغي الى مشورة غيره في شئ اخذ يسلك مسالك الكبر والعتو الذي

مطلب
بيان طباع وزيره الاول وهو الكردينال ولسي

سنة ١٥٢٠ تنفر منه النفوس ولم يلتفت الى غير اغراضه وشهواته النفسانية حتى اضطر كل من اراد استمالته او استمالة ملكه هنرى ان يتملق له ويداهنه ويوفيه بما يرضى نفسه الخبيثة الطماعة . . . . .

مطلب مداولة الملك فرنسيس مع الوزير ولسى

وفى ذلك الوقت كان جميع ملوك الافرنج يبحثون عن استمالة هنرى اليهم فسلكوا جميعا مع وزيره ولسى سبيل التملق والمداهنة وارتكبوا من الدناءة ما يزرى بمقام الملوك فلم يبق احد منهم الا واتحفه بهدايا نفيسة او وعده بامور جسيمة ليستعطفه ويستميل نفسه الطماعة الكثيرة الشره وفى سنة ١٥١٨ اختار الملك فرنسيس الامير بونيويطه وجعله قبطان باشا وكان من احذق ارباب ديوانه وامهر ندمائه واكثرهم نشاطا وامره بان يبذل غاية جهده فى استعطاف ولسى واستمالته الى حزب فرانسا واظهر فرنسيس بنفسه الى ولسى المذكور ما نرما يدل على التبجيل والاحترام وصار يثق به ويعتمد عليه فى كل شئ فكان يشاوره فى اهم المصالح ويمتثل ما يأمره به ويقبل نصحه بدون توقف وجعل له مرتبا عظيما فاحبه ولسى وظهر منه ما يدل على ذلك حيث انه الح على الملك هنرى برد مدينة تورنى الى ملك فرانسا وحسن له ان يزوج بنته مارية لابن فرنسيس وان يجيب هذا الملك فيما كان يطلبه منه وهو ملاقاته والاجتماع عليه ومن ذلك الوقت تجددت روابط اكيدة بين ديوانى مملكة انكلترة ومملكة فرانسا وكان فرنسيس يعتقد ان استمالة الوزير ولسى اليه واستعطافه اياه من اهم الاشياء واكثرها نفعا فلم يزل يحافظ على ابقا المحبة بينهما ويظهر له غاية ما يمكن من الاحترام والاكرام فكان لا يخاطبه فى مراسلاته الا بقوله الى والدنا ووصينا او ولينا او مربينا واما كرلوس فقام

مطلب مودة الامبراطور كرلوس للوزير ولسى

بنفسه غيرة عظيمة من تجديد ميثاق هذه المحبة لكنه كان له قرابة قريبة بهنرى ملك انكلترة فرأى انه احق بمحبته من الغير فبعد ان اخذ تاج مملكة قسطيلة بقليل سعى فى استعطاف ولسى واستمالته اليه ورتب له سنوية ثلاثة آلاف من الفرنكات (الفرنك اربعة قروش) واول ما اهتم به كرلوس هو

بالبحث عما يمنع به مقابلة ملك انكلترة مع ملك فرانسا لانه كان يخشى عاقبتها حيث ان ملك انكلترة وملك فرانسا كانا شابين فمن الجائز انهما عند مقابلتهما تقع بينهما المحبة الاكيدة والمودة المتينة لاسيما وكانت طباعهما تقتضي ذلك فيأخذ كل منهما بعقل صاحبه ولكن لم يمكن لكرلوس ان يمنع هذه المقابلة وبعد ان اعدت جميع الاشياء ومواد الاحتفال اللازمة لمقابلة هنرى و فرنسيس واحترس كل من ديوان فرانسا الملوكى وديوان انكلترة كل الاحتراس حتى لا يخشى على هذين الملكين من تلك المقابلة وعين زمانها ومكانها ولم يكن ذلك الا بعد مدة مستطيلة بسبب تجهيز لوازم الاحتفال واتخاذ وسائل الاحتراس المتقدم ذكرها ارسلت البرد والسعاة الى سائر الدواوين الملوكية ليدعوا منها الامراء للحضور بميدان السباق والعاب التورنواس والمرماح التى ستحصل بين هنرى و فرنسيس وامرائهما الشوالرية اى الفرسان وكان لكل من هنرى و فرنسيس محبة كبيرة فى مثل هذه المحافل فكان يصعب منعهما عن البراز بهذا المحفل العجيب المبتهج وعن الحظ والفخار الذى يحصل لهما منه لاسيما وكانا يعلمان انهما سيظهران فيه بمظهر الابهة والرونق فيصير لهما موقع عظيم فى قلوب الناس وكان للكردينال ولسى كذلك رغبة تامة فى اظهار بهجته بحضرة ارباب ديوانى هنرى و فرنسيس ليرى الملة الانكليزية والملة الفرنساوية صولته العظيمة عند هنرى و فرنسيس فلما رأى كرلوس انه لا يمكنه منع مقابلة هذين الملكين اهتم بان يجعلها غير مجدية بحيث لا يخشى عاقبتها ولا يتم لفرنسيس غرض منها ولا مأرب فبادر الى ملاقاة هنرى قبل ذهابه الى فرانسا لملاقاة الملك فرنسيس ولاجل ان يستميل الملك هنرى ووزيره ولسى اظهر من الادب وشعائر التملق والمداهنة اكثر مما فعله ملك فرانسا وذلك انه لما سافر من مينا قورون كما تقدم قصد انكلترة ورسا على مدينة دورس ولم يخش على نفسه من شئ اعتمادا على كرم الملك هنرى الثامن ومروته فتعجبت الملة الانكليزية من مجيء كرلوس الى انكلترة

مطلب ذهاب كرلوس الى انكلترة

على حين غفلة ولكن كان الوزير ولسى يعلم سبب مجيئه وجميع مقاصده وذلك سنة ١٥٢٠
انه حصلت من قبل مذاكرة فى هذا الشان بين هذا الوزير وارباب ديوان
اسبانيا الملوكى فانحط الرأى على ان كرلوس يتوجه الى انكلترة ليزور
ملكها هنري وكان كرلوس اذا كاتب ولسى او خاطبه يقول المحب
الاعز واضاف الى المبلغ الذى كان رتبه له اولا سبعة آلاف من الدوقات
(نوع من النقود) وحين رسا كرلوس على دورس المتقدمة كان الملك
هنري بمدينة كنتوبيرى قاصدا الذهاب الى مملكة فرانسا فلما بلغه
مجيء كرلوس اسرع بارسال وزيره ولسى اليه فى مدينة دورس
وسر بهذا الخبر سرورا عظيما وتلقى كرلوس مع غاية الترحيب والاكرام
والتبجيل والاحترام وكان الزمن عزيزا عند كرلوس فلم يمكث بانكلترة مطلب
الا اربعة ايام لكنه فى هذه المدة القليلة عرف بنباهته وحزمه كيف يستميل استمالة كرلوس للملك هنري
اليه الملك انكلترة ورغب الوزير ولسى حتى اخذ بعقله ونقله من حزب ووزيره ولسى
فرانسا وجعله فى حزبه وذلك ان هذا الوزير لم يكن مكتفيا بالمقام والثروة
والصولة والكلمة النافذة التى كانت له بل كان دائما يبحث عن منصب
الباپا الذى هو اعظم المناصب الدينية وحيث كان فرنسيس يعلم رغبته
فى ذلك رأى ان وعده اياه باعانته على تحصيل هذا المنصب هو اقوى واسطة
فى استمالته اليه فوعده بانه عند خلو كرسى الباپا يبذل غاية جهده فى اعتلائه
عليه وكان الامبراطور كرلوس اعظم من فرنسيس صولة وانفذ كلمة
فى هذا الشان فحين وعد ولسى بانه يعينه بجميع جهده على تحصيل منصب
الباپا فرح ولسى كل الفرح وعدل عن العصبية لفرنسيس واخذ
يبذل غاية جهده فى تنجيز مقاصد كرلوس مع ان ما وعده به الامبراطور
كرلوس كان بعيد الحصول جدا لان الباپا ليون العاشر كان حينئذ
فى عنفوان شبابه ولكن لم تنعقد مشارطة فى ذلك الوقت بين هنري و كرلوس
وانما وعده هنري بانه بعد مقابلته لملك فرانسا يذهب اليه فى البلاد
الواطية ويزوره فى نظير زيارته له

سنة ١٥٢٠

مطلب
مقابلة هنري لفرنسيس الاول فى ٧ من شهر حزيران سنة ١٥٢٠

ثم ان مقابلة هنري مع ملك فرانسا كانت فى سهل متسع بين مدينة غينه ومدينة ايدروس وبهذا السهل اظهر كل من الملكين واتباعهما ابهة وروتقا عظيما حتى سمى هذا السهل معسكر الجوخ المذهب لما كان به يومئذ من الخلع المرصعة والحلل المزركشة ومكث الملكان مع بعضهما ثمانية عشر يوما وفى تلك المدة كان الامراء ارباب ديوان فرانسا وديوان انكلترة يبدون ما يدهش العقل من العاب الفرسان والمحافل الظريفة وغيرها من الملاعب البهية التى كان يمتاز بها ذلك الزمن وسلك فرنسيس مع هنري فى تلك المدة مسلك الادب وعامله المعاملة التى تستعطف القلوب فأثر ذلك فى هنري ومال الى فرنسيس الا ان الوزير ولسي اذهب بخداعه ما كان قد رسخ فى قلبه من المحبة لفرنسيس ومحتمايضا مقابلته مع الايمبراطور كرلوس بمدينة غزاولينوس

فى ١٩ من شهر تاموز

نعم ان كرلوس لم يقابله مع الرونق والبهجة التى تلقاه بها فرنسيس قريبا من مدينة غينه لكنه اعتنى بمصالحه السياسية اكثر من فرنسيس وفاقه فى النجاح

مطلب
ما قام بنفس هنري من عظم شوكته

ولما رأى هنري ان كلا من كرلوس و فرنسيس كان يبحث عن استمالته والتودد اليه وهما اعظم ملوك الافرنج ظن ان ذلك منهما اعتراف له بانه ميزان التعادل بين الممالك الافرنجية ولم يزل هذا الظن يقوى فى نفسه حتى كان دائما يلهج بقوله من ساعدته ايقن بالنجاح وظفر بالمقصود وتمكن من نفسه هذا الظن حين عرض عليه كرلوس ان يكون حكما بينه وبين فرنسيس فى جميع الامور واى شئ يدل على صفاء باطن كرلوس وخلوص طويته اكثر من كونه يتخذ من هو محب له ولخصمه على حد سواء حكما بينهما ولكن كان قد اخذ بعقل الوزير ولسي فاتخاذه لهنري حكما بينه وبين خصمه كان فى الواقع اعظم الاشياء مخادعة واسوءها عاقبة لملك فرانسا كما علم ذلك مما حصل فيما بعد

مطلب
تتويج كرلوس بالتاج الايمبراطوري

ومع ان كرلوس كان يحب البلاد الواطية لانها اصل غرسه ومسقط رأسه لم يمكث بها فى تلك المرة مدة مستطيلة بل بعدان هنا ابناء وطنه وفعلوا معه ما يليق بمقامه من الاكرام والتبجيل والاحترام سافر سريعا الى مدينة

١ كسيلا

٢ كسيلا اشبيلاى ليلبس فيها تاج الامبراطورية لانه بموجب فرمان الذهب	سنة ١٥٢٠
كانت هذه المدينة محل تتويج الامبراطرة فلبس كرلوس بتلك المدينة تاج	
الامبراطور شرلمانيا بحضرة جمعية كبيرة لم يسبق مثلها وسمى من ذلك	في ٢٣ من شهر تشرين
الوقت شرلكان اى كرلوس الخامس وكان تتويجه مع الرونق	الاول
والبهجة التى يعتنى بها اهل المانيا فى محافلهم العمومية لاسيما محافل	
الامبراطرة	

وبعد تولية الامبراطور شرلكان بقليل تولى على الدولة العثمانية خصم	مطلب
صعب وخطر عليه وهو السلطان سليمان القانونى الذى فاق سلاطين الدولة	تولية السلطان سليمان
العثمانية فى الخصال الحميدة الجليلة والمشروعات العظيمة وفاقهم ايضا فى النجاح	القانونى على كرسى الدولة
والظفر باعدائه وكفى ذلك العصر فخرا ان وجد به اعظم الملوك الذين ظهروا	العثمانية

الى ذلك الوقت ببلاد اوروبا فلو كان السلطان سليمان والبابا ليون العاشر والامبراطور شرلكان والملك فرنسيس الاول والملك هنرى الثامن قد ظهروا فى اعصر مختلفة لكانت معارف كل واحد منهم تكفى فى فخار العصر الذى ظهر فيه بماباله وقد ظهروا كلهم كالكواكب الساطعة فى القرن السادس عشر فكان لهذا القرن من الرونق والبهجة مالم يسبق لغيره من القرون فلم يحصل حرب بين فريقين منهم الا وبادرا الى ميدانه بقوى عظيمة ومعارف جسيمة فكانت اذا تعارضت قواهم وقرائحهم تراها على حد سواء فلا تفوق قريحة احدهم ولا قواه العسكرية قريحة الآخر ولا قواه ونشأ عن ذلك حوادث جسيمة ووقائع عظيمة تثير الرغبة وتشوق النفوس الى الاطلاع على تاريخ ذلك العصر ونشأ عنه ايضا منع ازدياد قوة احد هؤلاء الملوك على غيره وذلك من اهم الاشياء لانه لو زادت شوكة احدهم على الآخر ربما اضر ذلك بحرية اوروبا وترتب عليه شقاء البشر وسوء حظ العالم

واول شئ افتتح به الامبراطور شرلكان تدبيره فى امبراطورية المانيا	مطلب
هو انه امر بعقد مشورة الديت اى مجلس العموم بمدينة وورمس	انعقاد مشورة الديت
	فى مدينة وورمس

سنة ١٥٢٠ في ٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٥٢١ وكتب في مراسلاته الى امراء المانيا
ان الغرض من عقد تلك المشورة المذاكرة في معرفة الوسائل التي بها يكون منع
تقدم الآراء الدينية الجديدة حيث انها خطرة يخشى منها تعكير بلاد المانيا
واضرام نيران الفتن فيها ويخشى منها نسخ دين آبائهم واسلافهم

مطلب منشأ ما وقع في دين النصرانية من النسخ.

وكان شرلكان يعني بذلك المذاهب الدينية التي نشرها المشرع لوتير
واصحابه منذ (سنة ١٥١٧) فان هذه المذاهب كانت سببا فيما لحق دين
النصرانية من النسخ واتقذت بعض اوروبا من اسر البابا وحكمه
واضعفت هذا الحكم في البعض الآخر حتى صار لا ثبات له وترتب على ذلك
انقلابات وتغيرات كانت اكثر نفعا للنوع البشري واكبر من سائر التغيرات
التي حدثت منذ ظهور دين النصرانية فاذن ينبغي مزيد الالتفات الى معرفة
الحوادث التي كانت سببا في ظهور هذه المذاهب الدينية الجديدة ومعرفة
الاسباب التي نشأ عنها سرعة التقدم وقبولها فنقول

قد اتفق محققو المؤرخين ممن تجل قريحته عن ارتكاب الخرافات واتباع
سبل البدع والترهات على ان نجاح لوتير في مشروعاته انما هو محض
مقدرات الهية واحكام ربانية كيف لا وقد نسخ دينا قديما متمكنا من قلوب
الناس منذ قرون خالية واعصر ماضية ومؤيدا باهل الشوكة والسطوة
وله من يدافع عنه ويذب عن شعائره مع الفطنة والحزم بدين جديد يغايره ثمرة
وغاية ويعجز هذا المشروع الجسيم الصعب من غير ان يكون له شوكة قوية حتى
يحمل الناس ويكرههم على قبوله فان الله عز وجل اذا تعلقت ارادته بشيء
ولو عده اذكياء الناس من المستحيلات دبر امره باسهل الطرق وقضى بتنجيزه
وقد استدل الناس على نصر الله عز وجل لدين النصرانية في عهد عيسى عليه
السلام بآيات باهرة ومعجزات ظاهرة اثبتت ان هذا الدين حق صحيح لا ريب
فيه وبناء على ذلك لو فرض ان من نسخ دين النصرانية بما استظهر من المذاهب
الدينية ليس ملهما او منعما عليه بفيض رحماني او اودع سر الهيا اخرجه
عن طور البشر من بعض الوجوه نقول ان من العجيب الذي يعد من خوارق

العادات كون الدهر بمقتضياته قد ساعد هؤلاء المستظهرين المشرعين سنة ١٥٢٠
حيث مهد العقول الى قبول مذاهبهم فظفروا بمرامهم مع ضعف شوكتهم
وسياستهم وانتصروا على اعدائهم مع انهم كانوا اصحاب شوكة وسطوة ونشروا
اعلام مذاهبهم رغما عن انف اخصامهم فهذا يدل على ان القدير جل جلاله
كما انه هو الذى شرع دين النصرانية اقتضت حكمته ايضا ان يخرج عنه دين
جديد وينقل من حالة الضعف والخمول التى كان عليها فى مبدء امره الى اقصى
درجات القوة والظهور

مطلب ضعف اسباب الدين الجديد فى مبدء امره

واسباب هذه الحادثة العظيمة (اى تغيير الدين) كانت فى مبدء امرها واهية
ضعيفة ولم تكن بحسب الظاهر الا من قبيل الصدفة والاتفاق وذلك ان البابا
ليون العاشر حين جلس على كرسى الكنيسة الرومانية لم يجد شيأ من
ايراداتها لانها كانت قد نفدت فى المشروعات الكبيرة التى تعلقت بها آمال البابا
اسكندر السادس والبابا جاليوس الثانى اللذين كانا قبله على كرسى
الكنيسة وكان هو سخيا كريما بالطبع فلا يمكنه ان يسلك مسلك التوفير
والتقتير مع انه كان لا بد منه فى اعادة خزائن الكنيسة الى ما كانت عليه
فكانت مصاريفه كل يوم فى ازدياد لانه كان يريد ارتقاء عائلته ويحب المباهاة
والتفاخر فى امور معيشته ويعطى لارباب العلم والمعارف والقرائح والعوارف
العطايا الجزيلة ويصلهم بالصلات الجليلة فلما رأى ان ايراد الكنيسة لا يكفى
فى ذلك اخذ يبحث عما يكون به ازدياد تلك الايرادات من الوسايط والوسائل
واستعمل فى ذلك ما يمكن اختراعه لقرائح القسوس التى لا تضاهى فى هذا
المعنى فكان من جملة تلك الوسايط أن اخترع هذا البابا طريقة بيع الغفران

مطلب بيع الغفران الذى جدده البابا ليون العاشر

وتكفير السيأت (بمعنى ان من اقترف ذنبا يعترف به للبابا ويدفع له مبلغا
معلوما فيتجاوز عنه ويغفر ذنبه) وذلك انه على حسب الدين الرومانى يقال
ان ما عمله القديسون البررة من الاعمال الصالحة يؤخذ منه ما يزيد على ما لا بد
منه فى نجاتهم وسلامتهم ويضم الى حسنات سيدنا عيسى عليه السلام ودعواته
الصالحة للجنس البشرى ويودع فى كنز لا يعتريه فراغ ولا نفاد ولو استعار منه

سنة ١٠٢٠

جميع العباد واعطيت مقاليد هذا الكنز لماري بطرس خليفة المسيح عليه السلام ثم توارثها عنه الباباوات فيتصرفون فيه متى شاؤا فاذا اعطى احد النصارى للبابا الذى هو خليفة عيسى عليه السلام مقدارا من الاموال وسمح له البابا فى نظير ذلك بشئ من هذه البركات غفرت خطاياه وذنوبه وكذلك اذا احب انقاذ روح ميت من العذاب ادفع المبلغ فى نظير ذلك فان روح الميت تطهر من ذنوبها وتخلص من العذاب واول ما ظهر هذا الغفران فى القرن الحادى عشر وكان على يد البابا اوربان الثانى حيث كان يجعله جزاء لمن يحمل السلاح ويسير الى فتح ارض القدس واخذها من ايدى الاسلام ثم صار هذا الغفران يعطى لمن يحضر رجلا يقاتل فى تلك الغزوات ثم توسع فيه حتى صار يعطى لمن يدفع مبلغا من الدراهم يستعان به على تنجيز بعض امور دينية يامر بها البابا فلما حكم البابا جاليوس الثانى عمم هذا الغفران وجعله لكل من بذل شيأ من الدراهم لاجل بناء كنيسة مارى بطرس فى مدينة رومة ولما بذل ليون العاشر جهده بعد جاليوس فى تتميم هذه الكنيسة الفاخرة الكثيرة المصاريف علل بما علل سلفه فى بيع الغفران ثم ان آلبرطه منتخب ميانسه ومطران مكد يبورغ هو الذى انيط باذاعة هذا الغفران وجعل له فى نظير ذلك نصيب من ثمن تلك البضاعة فوكل آلبرطه المذكور راهبا من رهبان عيد الاحد يقال له تتزيل باذاعة هذا الغفران فى بلاد سكس وكان هذا الراهب شرس الاخلاق الا انه كان جيد القريحة ممتازا بالفصاحة التى تميل اليها قلوب العامة يراعى مقتضيات الاحوال وزيادة على ذلك اعانه رهبان طائفته فوفى بهذه الوظيفة على ما ينبغى ونجح فيها غاية النجاح لكنه سلك سبيل السفاهة والوقاحة فكان هو ورهبان طائفته يبالغون فى مدح الاسرار والبركات التى اودعها الله فى غفران الكنيسة وكانوا يبيعونها بثمن بخس حتى ربحت تجارتهم بين الاخلاط الذين يعتقدون ما يلقنون ويثقون بكل ما يسمعون وتجاوز هؤلاء الرهبان حدود الحياء والادب فى مخاطباتهم وسلكوا مسالك تنفر منها القلوب وتشمئز منها

النفوس حتى اغضبوا الناس ودنسوا خرقة القسوس واشتد غضب الملوك سنة ١٥٢٠
والامراء والاشراف حيث رأوا ذهب اتباعهم ذاهبا الى كنز البابا ليون
العاشر ليصرفه مع الاسراف والتبذير وكان القديسون من النصارى يتأسفون
على ضلال العامة ويرثون لحالهم حيث كانت تعول على هذا الغفران وتهمل
فى شعائر الدين وعلم العبادة وتعدل عن الفضائل التى يحث عليها دين النصرانية
حتى انتهى الحال الى ان صار اجهل الناس واعماهم بصيرة يتأذى من قبح سلوك
تتزيل واصحابه حيث انهم كانوا ينفقون فى اللعب واللهو والسكر والمعاصى
الموجبة للعار والفضيحة جميع الاموال التى كانت ترد لهم من التجارة
فى الغفران مع العامة التى باعتقاداتها الباطلة واوهامها العاطلة لا تبخل
ببذل ما تكون به فى السعادة الابدية والخيرات السرمدية وبالجملة فصار جميع
الناس فيما بعد يتمنون ابطال هذه التجارة المضرة بالجمعية والدين
ثم ان المشرع مارطين لوتير رأى انه لا يجد فرصة اعظم من هذه لتنجيز مارية مطلب
وانه لا يمكن ان تصير عقول ابناء وطنه مستعدة لسماع مقالته اكثر مما كانت فى الكلام على لوتير
عليه وقتئذ فاخذ يحدثهم فى شأن فساد هذا الغفران ويبرهن لهم على انه باطل ومناقبه
لا اصل له ويبين قبح سلوك من كانوا يسعون به وفساد عقائدهم وزيغهم
وفسقهم وكان لوتير المذكور قد ولد فى مدينة اسلابان بمملكة سكس
وكان اهله من ذوى الفاقة والفقر ومع ذلك تربى تربية جيدة وتمكن من العلوم
وفى اثناء تعلمه اظهر امورا عديدة مما يدل على انه من ذوى النهى والقرائح
النادرة وكانت نفسه تميل بالطبع الى كل امر صعب تقصر دونه همم الرجال
وترغب فى التقشف الدينى الذى يزهد به المرء الدنيا وزخارفها ويحب العزلة
والخمول والتورع فاعتكف فى دير من اديار الطائفة اوالرتبة الاوغسطينية
(هى رتبة من القسوس متمسكة بمذهب عابد شهير يرى ان ارواح القديسين
لا تصعد الى السماء الا بعد يوم الحساب حتى يعلم ما لها وما عليها) وبذل اقاربه غاية
جهدهم فى تحويله عن هذا المقصد فلم يمكنهم منعه عنه حيث كان يميل اليه
بالطبع فدخل الدير المذكور ولبس حلة القسس فلم تمض مدة قليلة الا واكتسب

سنة ١٥٢٠

فيه شهرة عظيمة بالتقوى وبالتحصيل والاجتهاد العجيب حيث كانت همته لا تفتر ابدا واخذ عن مدرسين عظام الفلسفة السكولاستيكية وعلم اللاهوت السكولاستيكي (راجع سكولاستيكي فى الاتحاف) وكان كل من هذين العلمين اذ ذاك كبحر زاخر يغرق فى لججه واسع القريحة وغزير العقل فبذهنه الثاقب وفهمه الصائب امكنه ان يدرك اسرار دقائقهما ويقف على مكنون حقائقهما ولكن لما كان ذوقه سليما وذهنه حادا مستقيما تمكن من هذه المعارف ورأى انها عديمة الجدوى وعرف انها من الامور الهزئية التى لا طائل تحتها فعدل عنها بالكلية وسئمت منها نفسه واخذ يبحث فى الكتاب المقدس عما هو اقوى وأكد منها فى الاصول الدينية والعلمية فوجد نسخة من كتاب العهد القديم والجديد كانت مهملة فى كتبخانة الدير الذى كان به فاخذها وبذل جهده فى مطالعتها وتفرغ لها بالكلية واستمر على ذلك مع الرغبة الزائدة حتى انه بعد مدة قليلة تعجب منه سائر اقرانه حيث كانوا لم يتعودوا على اقتباس شئ فى علم اللاهوت من الكتاب المقدس وحصل له تقدم عظيم فى هذا الامر الجديد وازداد صيته وشهرته فى المعارف والعبادة حتى ان الامير فريدريق منتخب سكس لما انشأ مدرسة فى مدينة ويتانبرغ التى كانت دار اقامته اختاره من بين اقرانه وادخله بتلك المدرسة ليعلم بها اولا الفلسفة ثم علم اللاهوت فوفى لوتير بما دعى اليه على وجه عجيب حتى كان يعتبر انه زينة المدرسة وبهجتها

مطلب
تصدى لوتير لمنع بيع الغفران

وكان لوتير ذا كلمة نافذة وشهرة عظيمة حين اخذ الراهب تتزيل فى اذاعة الغفران بالبلاد التى حول مدينة ويتانبرغ وهو يعزو اليه خصوصيات وفضائل بدعية خيالية قد اثرت تأثيرا قويا فى عقول الناس بغير تلك البلاد وصار لها فى قلوبهم موقع عظيم ولما كان اهل اقليم سكس ليسوا اكثر معارف من غيرهم من اهالى الاقاليم الالمانية حصل لهذا الراهب عندهم فى مبدء الامر نجاح عظيم حيث وجد فيه اناسا لائقة كما وجد فى غيره وكان لوتير يتأذى ويتألم غاية الالم من زور من كانوا يبيعون الغفران

وبهتانهم وسخط من كانوا يشترونه وسخافة عقولهم وكان بيع الغفران مبنيا على سنة ١٥٢٠
مذهب الشهير توماس داكين وغيره من العلماء السكولاستيكية وكان
لوتير لا يثق بآراء هؤلاء العلماء ولا يعول على مذاهبهم لكونه قرأ الكتاب
المقدس واتخذه دليلا فى حقائق علم اللاهوت فلم يجد فيه شاهدا يعضد بيع
الغفران الذى هو من البدع المضرة المخلة بالمروءة والديانة وكان شديد الحمية
فلم يمكنه ان يخفى رأيه ويكتم ما فى ضميره وقد رأى اهل بلاده متوغلين فى اودية
الغفلة ضالين فى عرصات الزيغ والغى فصعد على منبر الكنيسة الكبرى بمدينة
ويتانبرغ وصار يقدح ويبالغ فى فساد من كانوا يبيعون الغفران ويوفيهم
بلسان حاد ويأتى ببراهين قاطعة جلية تقضى بان هذه الحادثة من البدع
الفاسدة والاوهام الكاسدة وافهم الاهالى انه يخشى عليهم الاعتماد فى نجاتهم
على غير ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى كتابه المقدس * وحيث ان النفس تتشوق
لكل امر جديد وترغب فيه غاية الرغبة صارت اراء لوتير مطمح انظار
الناس كافة لاسيما وكان له شهرة عظيمة من قبل وحين صعد للخطابة كان كانه
قس عكاظ او سحبان وائل فاخذ يشنع على ضلال من كانوا يذيعون الغفران
ويبيعونه ويفند هذا المذهب وينذر الناس بانهم لا تسلم لهم عاقبة ان اعتمدوا
فى نجاتهم على غير ما هو منصوص فى كتاب رب العالمين فسحر الالباب
بفصاحته واستولى على القلوب ببلاغته فلما رأى ان العامة قد جنحت الى مذهبه
واخذت تدرك اسرار مآربه ثبتت قدمه وقوى عزمه فكتب فى هذا الشان
الى منتخب ماينسه (وهى جزء من اقليم سكس كان تحت حكم هذا
المنتخب كما تقدم) وبالغ فى قبح سلوك الرهبان والاقسة الذين اناطهم باذاعة
الغفران ونشره بين الناس وفى تفنيد آرائهم وعقائدهم ولكن كان هذا الكاهن
يحب نجاح هؤلاء الرهبان فلم يفكر فى قمعهم عن سلوكهم القبيح الذى تجاوزوا
فيه الحدود واول شئ اهتم به لوتير هو انه اعتنى باستمالة عقول العلماء اليه
ليوافقوه على آرائه واقترح لهذا الغرض خمسة وتسعين مسئلة تتضمن مطلب
آراءه فى شأن الغفران ونشر هذه المسائل بين الناس لكن لم ينشرها فى صورة نشر لوتير مسائل لاجل
ابطال بيع الغفران

سنة ١٥٢٠

مسائل يقينية مجزوم بها بل في صورة مواد ظنية قصده بنشرها المناظرة فيها حتى يعلم صحيحها من فاسدها ودعا العلماء الى نقض ما لا يستحسنونه منها اما بالمكاتبة او بالمشافهة وعين الايام التى جعلها لاجتماع العلماء عليه لاجل المذاكرة فيها ومع ذلك كله اظهر انه منقاد غاية الانقياد لكنيسة رومة وانه مطيع لكل ما يحكم به البابا فمضت الايام التى اعدها للاجتماع من غير ان يظهر له معارض ولا مناقض فعما قليل انتشرت تلك المسائل فى جميع بلاد المانيا وقرئت فى سائر جهاتها مع رغبة غريبة وهمة عجيبة وتعجب كل الناس من فرط جسارة لوتير التى ادته الى الشك فى صحة ما اقره البابات الذين هم عماد دين النصرانية والى القدح فى عرض الرهبان الدومينيقانية اى رهبان عيد الاحد مع انهم كانوا رؤساء محكمة التفتيش والقصاص فى امور الدين فكانوا مهابين يخشى بأسهم كافة الناس

مطلب
تعضيد قسوس الطائفة الاوغسطينية التى كان لوتير من جملة اربابها الرأيه وتأييدهم لمذهبه

ثم ان قسوس الطائفة الاوغسطينية الذين كان لوتير من زمرتهم كانوا مطيعين كل الطاعة لكنيسة رومة كغيرهم من قسوس الطوايف الدينية الاخرى ومع ذلك فلم يعارضوا لوتير ولم يتصدوا لمناقضة ارآئه او منعه عن اذاعتها واشهارها بين الناس لانه كان له عندهم هيبة كبيرة وموقع عظيم بسبب معارفه واخلاقه الا انه كان الى ذلك الوقت يحترم احكام البابا احتراما صادقا ولا يخفى ان المنافسة والبغضة الباطنية لا تنقطع ابدا من بين طوائف قسوس الكنيسة الرومانية لعدم انقطاع طمع الرهبان وغيرتهم من بعضهم وبسبب ذلك حصل لقسوس الطائفة الاوغسطينية غاية السرور والفرح من قدح لوتير وذمه فى قسوس الطائفة الدومينيقانية وتشنيعه عليها لانهم كانوا اعدآءهم وفرحوا حين رأوا ان ذلك يجر الى احتقار قسوس تلك الطائفة وبغضها عند سائر الاهالى واما منتخب سكس الذى كان وقتئذ اعقل امرآء المانيا وكان لوتير من رعاياه فلم يلحقه غم ولا غيظ من تصدى لوتير لنقض بيع الغفران بل كان يعضد رأيه سرا و يود أن تكون المنازعة التى حصلت اذ ذاك بين القسوس فى هذا المعنى سببا فى تحقيق مظالم كنيسة رومة التى بذل

سنة ١٥٢٠

الامراء جهدهم زمنا طويلا فى ابطالها ولم ينجحوا

مطلب
فيما كتبه عدة من علماء اللاهوت فى مناقضة لوتير

وقد تصدى عدة من العلماء لمناقضة لوتير وبذلوا غاية جهدهم فى تأييد الاراء والمذاهب التى كانت اساس الشوكة الكنيسة الرومانية ومنشأ ثروتها وغناها فكتب الراهب تتزيل ردة على مسائل لوتير ونشره بمدينة فرنكفورت التى على نهر اودير وكذلك العالم التيولوجى (اى اللاهوتى) المسمى اكسيوس بذل وسعه فى مناقضة اراء لوتير واما الراهب بريورياس وهو احد رهبان الطائفة الدومينيقانية وكان رئيس المحكمة ومفتش عموم اقضية محكمة القصاص والتفتيش الدينية فقد كتب على مسائل لوتير وشنع عليه كل التشنيع الان لوتير كان قدحه فى بيع الغفران مبنيا على براهين قاطعة جلية مستنبطة من العقل اومقتبسة من الكتاب المقدس واما اخصامه فكانوا لا يحتجون عليه فى ردهم الا باراء العلماء السكولاستيكية واوامر البابات والاصول القسيسية التى كانت موجودة اذذاك فكانت ادلتهم غير كافية واحتجاجاتهم غير شافية حتى ظهر للناس انهم عاجزون عن الرد وان مجادلتهم مبنية على مجرد الاغراض النفسانية وصاروا لا يثقون باقوالهم حيث رأوها مخالفة لما يقتضيه العقل والنقل وما أتت به الشريعة النصرانية

مطلب
عدم اعتناء ديوان رومة بمذهب لوتير فى مبدء امره

واما ديوان رومة فلم يخش من ظهور مذهب لوتير وان كانت به بلاد المانيا فى اضطراب وانقلاب بل لم يعبأ به اصلا وذلك ان البابا ليون العاشر كان ذا تولع عظيم بالمسرات والفنون وكان دائما مشغولا لفكرة بمقاصد سياسية جسيمة وكان لا يميل الى المجادلات التيولوجيكية اى اللاهوتية وان لم يكن يحتقرها لوفور عقله فحين وصلت اليه الاخبار بما صدر عن لوتير فى بلاد المانيا من التشنيع والقدح فى الاصول الدينية لم يحمله ذلك على الغضب بل عده من جملة المجادلات والمشاكلات السكولاستيكية حيث رأى ان لوتير ليس الا راهبا من آحاد الرهبان المهملين الذين لا يعبأ بهم رأى رايا فى مسائل سكولاستيكية اخذ بعضده فى جزء صغير من المانيا واتما سلك

سنة ١٥٢٠

فى عبارته مسلكا غير مألوف حيث افرغها فى قالب خشنى غير مقبول هذا ما ظنه البابا المذكور وكان لا يخطر بباله بل ولا يبالى لوتير نفسه ان عاقبة هذا الامر تضر بالكنيسة الرومانية لانه كان يعد المجادلة الحاصلة فى هذا المعنى بين الطائفة الاغورطينية والطائفة الدومينيقانية من جملة المجادلات التى تقع عادة بين القسوس بسبب بغضهم وغيرة بعضهم من بعض حتى ظهر منه انه قد عزم على عدم التصدى لهذه المجادلة وصمم على ان يترك امرها الكل من الطائفة الاوغسطينية والطائفة الدومينيقانية لتتذاكر فيما مع ما فى قلوبهم من العداوة لبعضهم

مطلب
تقدم آراء لوتير وانتشارها

ولكن لما اغضب لوتير اخصامه بقدحه فيما حرروه ردا عليه وخطأ اقوالهم وما القوه فى كل عبارة صاروا يلحون على البابا ويحثون ديوان رومة على عقاب لوتير فى نظير جرآته وجسارتها الزائدة عن الحد لاسيما وكانت آراء لوتير قد اثرت تأثيرا قويا فى جميع الاقطار الالمانية فاستيقظ حينئذ ديوان رومة من غفلته واخذ يبحث عن كل وسيلة يسلم بها من عاقبة تلك الآراء واضطر ليون العاشر نفسه الى البحث عما يدفع عن الكنيسة الرومانية سوء عاقبة الآراء المذكورة حيث صارت من الامور الخطرة التى لا ينبغى اهمالها والسكوت عنها فامر لوتير ان يحضر بعد ستين يوما الى مدينة رومة فى الديوان بين يدى العالم بريورياس وكان من جملة من ردوا عليه وتصدوا لتفنيده ونقض آرائه كما تقدم ولذلك وكله البابا بالنظر فى آراء لوتير والحكم عليه بما يراه مناسبا وكتب هذا البابا ايضا الى الامير منتخب سكس يترجاه ان لا يتعرض لحماية رجل دنس ابناء النصرانية ببدعه وضلالاته وكتب لرئيس الطائفة الاوغسطينية ان يزجر هذا الراهب السفيه الذى دنس الطائفة الاوغسطينية باجمعها وعكر على الملة المسيحية فى سائر الاقطار النصرانية فلما رأى لوتير مراسلات البابا وعلم ان العالم الذى اناطه البابا بالنظر فى رأيه والحكم عليه هو عدوه بريورياس ادرك حقيقة الحال وعرف ما يقضى به فى شأنه اذا هو توجه الى رومة

مطلب
امر البابا الصادر الى لوتير بالحضور الى رومة

فلذلك بذل غاية جهده فى عدم الذهاب الى رومة وطلب ان يحكم عليه فى بلاد المانيا بحضور جمعية خلية عن الاغراض وليست محلا للتهمة وكان علماء مدرسة وبتانبرغ يحبون لوتير ولا يستطيعون ان يلحقه ادنى ضرر او أذى لما ان الطائفة الاوغسطينية كانت به فى شرف ومهابة فكتبوا للبابا يترجونه ان يعافى لوتير من الحضور الى مدينة رومة والتمسوا منه ان يوكل فى النظر فى قضيته والحكم عليه بعض اناس من بلاد المانيا يكونون من الثقاة المشهورين بالمعارف وقد طلب ذلك ايضا الامير منتخب سكس من وكيل البابا ومن مشورة العموم الالمانية التى كانت بمدينة اوكسبورغ وكان لوتير وقتئذ لا يقصد مناقضة احكام البابا ولا الخروج عن شوكته بل كان يجزم بان اصل هذه الشوكة سر الهى اودعه الله فى البابات فكتب الى ليون العاشر كتابا فى قالب التضرع والابتهال والانقياد والامتثال ووعده انه يقبل اوامره من غير توقف فلبى دعوته وعافاه من الحضور الى مدينة رومة وامر نائبه فى المانيا ان يبحث عن حقيقة الحال ويحكم بما يستحسنه وهذا النائب هو الكردينال كاتيجان احد ارباب الطائفة الدومينيقانية وكان له شهرة عظيمة بين العلماء السكولاستيكية وكان قائما بخدمة الكنيسة الرومانية على ما ينبغى ويحب نفعها ويسعى بجميع جهده فى تحصيل ما تكون به فائدتها ومصلحتها

امر البابا وكيله بان يحكم على لوتير فى ألمانيا

وكان يمكن لوتير لاسباب مقبولة ان يأبى فصل دعواه بين يدى كاتيجان لانه كان من جملة اعدائه الخطرين عليه الا انه لم يتوقف ابدا فى الحضور بين يدى كاتيجان المذكور حيث توجه فورا الى مدينة اوكسبورغ ليقابل هذا النائب بعد ان اخذ من الايمبراطور تذكرة الطريق فتلقاه كاتيجان بالترحيب والاكرام والتبجيل والاحترام واخذ اولا يسلك معه سبيل اللين والرفق ليرده عن آرائه لكنه لما رأى انه لا يليق بمثله ان يتحاور معه كانه قرين له الزمه بموجب اوامر البابا ان يرجع عن آرائه الفاسدة التى اذاعها بين الناس فى شأن الغفران والقدح فى الدين وان لا يتفوه بعد ذلك بمثله ولكن كان لوتير يعلم

مطلب
حضور لوتير بين يدى نائب البابا

سنة ١٨٦٠

ان آراءه على منهج الحق لاخطأ فيها لاسيما وكانت مستحسنة مقبولة عند اعظم علماء ذلك العصر واكثرهم معرفة وديانة فتعجب من قبول كانيجان حيث دعاه الى الرجوع عن آرآئه قبل ان يبين له وجه فسادها وعدم صحتها مع انه كان يأمل قبل ذلك انه فى محاورته مع هذا النائب العالم الغزير المعارف يسهل عليه ان يبرئ نفسه مما اتهمه به اخصامه الذين هم ما بين جاهل لا يدرك فحوى ارآئه ومتحامل يريد اطفاء اضوآئه فينكر الحق ولو حصحص وظهر ويؤيد الباطل وان خفى واستتر فلما رأى ان كانيجان يسلك معه مسلك الامارة والعنفوان خاب امله فيه ويئس كل اليأس ولكن لم يرعو من تهديده له فقال للنائب مع ثبات جنانه وطلاقة لسانه ان ذمتى لا تأذن لى بالرجوع عن آرآء هى الحق

مطلب
جسارته فى سلوكه

ولا محالة حيث لم يظهر فيها شئ يحملنى على جحدها بعد اقرارها ونشرها لاسيما وجحد مثل هذا الامر يعد من الجبن ومما يسخط الله جل وعلا ويغضبه ثم افاد انه لا يزال فى طاعة الكنيسة والامتثال لاوامرها وانه لم يقصد بتلك الآرآء اضرارها بل غرضه ان يعرض مسائله التى حررها على بعض العلماء الماهرين فيقضون فيها بما يرونه مناسبا ووعد بعد ذلك انه لا يكتب فيما بعد شيأ فيما يتعلق بالغفران لكن بشرط ان يسكت اخصامه ولا يتفوهوا بشئ فى هذا الشان فلم يعتن نائب البابا بقوله بل استمر على تهديده والزامه بالرجوع عن اعتقاده من غير ان يشترط شيأ قل او جل وهدده بانه يصير مطرود الكنيسة رجيما محروما من نعمها ونعيمها ان لم يبادر بالاذعان ويمتثل ما يأمر به وامر أن لا يدخل عنده ما دام مصمما على عقيدته وظهر زيادة على ذلك مقتضيات اخرى يخشى منها على لوتير فخاف عليه احبابه وظنوا ان تذكرة الطريق التى اخذها من الامبراطور لا تكفى فى حمايته من نائب البابا الشدة حقده وغضبه منه فحملوه على الخروج سرا من مدينة اوكسبورغ ليعود الى وطنه فقبل لوتير نصيحتهم الا انه قبل خروجه من تلك المدينة استعان بامر قد سبق بمثله وهو انه قرر حيث

مطلب
رفع دعواه الى غير كانيجان

ان البابا لم يقف على حقيقة ارائه يريد فصل دعواه بين ايدى جمعية قسيسية عامة تفهم سرها فيظهر الحق من الباطل

مطلب
اعانة منتخب سكس
للراهب لوتير

فغضب كاتيجان من هروب لوتير وكتب الى فريدريق منتخب سكس يقسم عليه بمحبته لراحة الكنيسة وابقاء شوكة سيدها ان يقبض على لوتير ويرسله اسيرا الى مدينة رومة اويطرده من بلاده وكان فريدريق الى ذلك الوقت يدافع عن لوتير ويمانع عنه ولم تكن الاسباب الحاملة له على ذلك اسبابا تيولوجية اى ناشئة عن ممارسته لعلم اللاهوت لان هذا الامير كان لا يتعرض ابدا للمجادلات التيولوجية والمحاورات اللاهوتية ولم يكن له فيها رغبة اصلا وانما كان الباعث له على محاماة لوتير مجرد اسباب سياسية كما تقدم وكان لا يتظاهر بها بل ولا يقدم عليها الا بعد الاحتراس التام وكان لم يسمع قط وعظ لوتير ولم يقرأ شيأ من مؤلفاته وعلى ما كان له من الشهرة العظيمة ببلاد المانيا لم يحضره فريدريق اصلا ولم يقبله فى منادمته لكن لما طلب منه كاتيجان ان يقيه او يرسله اسيرا الى رومة رأى انه لابد له ان يسلك غير ما كان يسلكه اولا من المحافظة على عدم التظاهر فى اعانة لوتير وذلك لانه كان قد صرف مصاريف كثيرة فى انشاء مدرسته واعتنى بها غاية الاعتناء حتى صارت مهمة جدا عند جميع امراء المانيا وكان يعلم ان بعد لوتير عنها يضر بشهرتها فتعلل بامور عديدة وأبى ان يقبل ما دعاه اليه الكردينال كاتيجان فى حق لوتير واظهر انه لا يسلم ابدا فيما يكون به اضرار لوتير وانه يدافع عنه كل المدافعة هذا وكتب انه مع ذلك من لازم اعتبار الكردينال كاتيجان وتعظيم البابا واحترامه

مطلب
الاسباب التى حملت
كاتيجان على ان يسلك مع
لوتير ما سلكه اولا

ثم ان تشديد الكردينال كاتيجان فى الزام لوتير بالرجوع عن مذهبه اغضب من وقتئذ من تمسك بمذهب لوتير المذكور حتى لامه على هذا التشديد عدة من المؤلفين القاثوليقية ولكن كان لا يمكن للكردينال كاتيجان ان يسلك مع لوتير خلاف ذلك وذلك ان قضاة رومة الذين طلب لوتير اولا للحضور بين ايديهم لفصل دعواه كانوا على غاية من التشوق والرغبة فى تخطئة آرائه وافسادها حتى انهم قبل فراغ الستين يوما التى جعلها البابا مهلة للوتير حكموا عليه بانه خارجى مبتدع بل وصفه البابا ليون نفسه

سنة ١٥٢٠

فى عقة من اوامره ومكاتباته بانه ليس الامن عداد الشبان الذين هم مطية المآثم والفواحش اوالأرجال الاراذل الالا يعتدّ به وبناء على ذلك لم يكن ثم ماتسلم به الكنيسة الرومانية من عاقبة مذهب لوتير وتبقى على شرفها واحترامها سوى جبر هذا الرجل على العدول عن مذهبه واقراره بانه صادر عن خطاء لاسيما وكان من قواعد هذه الكنيسة ان لا تتساهل فى حكم من احكامها وانى لها ذلك وقد حرمته على نفسها بادعائها العصمة عن الخطأ والزلل

مطلب الحالة الخطرة التى كان عليها الوتير

ومع ذلك فكان لوتير فى حالة خطرة جدا بحيث لو كانت لغيره لحرمت عليه الامن والراحة وكان لا يظن ان فريدريق يخاطر بنفسه فى حمايته والممانعة عنه لما انه كان صاحب رأى وتدبير وحزم واحتراس شهير فلا يعرّض نفسه لغضب الكنيسة وبطش البابا الذى يحق بأسه وصولته بعض افراد من عظماء ايمبراطرة المانيا واقواهم شوكة وكان ايضا اذ ذاك اسباب اخرى تمنع لوتير من انتظار الاعانة من فريدريق وذلك انه كان يعلم ان الناس فى ذاك الوقت يحترمون اوامر الكنيسة وينقادون لاحكامها ويخشون غضبها ويعلم ايضا انه لاشىء اسهل من تهديد فريدريق وتخويفه وحمله على ان يسلم فيه ويتخلى عنه لما ان اصل محاماته له كانت لعلل سياسية لا لكونه ممن تمسك بمذهبه وقرأ مؤلفاته على صحتها واقرها حتى يدافع عنه ولا يبالى وكان يعلم ايضا انه ان طرد من بلاد سكس لا يجد له ملجأ آخر ولا مأوى يأوى اليه ويصير عرضة لاذى كل حقود واجتراء كل حسود ومع انه كان يعلم انه فى حالة خطرة تجلد كل التجلد ولم يظهر عليه رعب ولا فزع بل ما زال يبرهن على صحة آرائه وحسن سلوكه واستقامته ويخطئ اخصامه ويفسد اراءهم ويقدح فيهم اكثر مما كان يفعله اولا

مطلب جمعية عمومية من القسوس

ولما رأى لوتير ان ديوان رومة لا يسلك معه سبيل الحق والاستقامة حيث حكم عليه بدون تحقيق بانه من الفرق المبتدعة علم ان البابا ليون لابد وان يغدر به ويبحث عن اضراره ويلقيه الى التهلكة فبحث عما يقى به نفسه من غضب البابا ولم يكن له فى ذلك الا وسيلة واحدة وهى أن يطلب فصل دعواه بحضرة جمعية

عمومية منعقدة من القسوس على سبيل النيابة عن الكنيسة القاثوليقية سنة ١٥٢٠
ومايضط عليه الرأى فيما يكون العمل بمقتضاه لان حكمها حجة يوثق بها اكثر من حكم البابا الذى هو فرد من جملة افراد الانسان وكل انسان قابل الخطاء فان مارى بطرس مع كونه اعظم البابات واكملهم وقع فى الخطاء غير مرة

مطلب فرمان جديد لتأييد عادة الغفران وتعضيدها

وبعد ذلك بقليل ظهر ان لوتير لم يخطئ فيما ظنه بديوان رومة وذلك انه صدر من البابا فرمان تاريخه قبل تاريخ عرض لوتير يتضمن طلب عقد مجلس قسيسى عام لفصل دعواه ومدح الغفران بعبارة لم تسبق لاسلافه بل ولا فى اعصر الجهالة والخشونة وامر فيه جميع النصارى ان يعتقدوا صحة الغفران ويعتبرونه شطرا من دين الكنيسة القاثوليقية وذكر فيه ايضا انه يصمى بسهام غضبه كل من عضد او اتبع مذهب من يقول بعدم صحة الغفران مع ان مقتضيات الاحوال كانت وقتئذ تمنع التفوه بمثل ذلك وتستدعى حسن التدبير والمواساة ولم يؤثر هذا الفرمان فى قلوب اصحاب لوتير بل اعتبروه من الامور التى لا يمكن ان يلتمس لها وجه يؤيدها وعلموا ان البابا لم يأمر به الا لاجل بقاء المحصولات الكثيرة الواردة عليه من بيع الغفران ومع ذلك فلولا موت

مطلب كون موت الايمبراطور مكسيمليان من الامور التى اعانت لوتير

الايمبراطور مكسيمليان لنفذ ما حكم به البابا على لوتير وضاع حقه عند معظم اهل المانيا لان هذا الايمبراطور كان داعيا الى تنفيذ مقاصد الكنيسة وتأييد احكامها الاسيا وكان البابا وقتئذ صاحب شوكة وصولة عظيمة واوعد باضرار من يتبع مذهب لوتير او يؤيده فبعد موت هذا الايمبراطور انتقل الى الامير فريدريق منتخب سكس ما كان من بلاد المانيا محكوما بالقوانين السكسونية فصار لوتير بذلك فى حمى هذا الامير الذى كان يدافع عنه ويقيه من حقد اعدائه واضرارهم وصار على غاية من الامن والاطمئنان ومكث مذهبه جاريا بين الناس بدون حرج فى خلال المدة التى كانت بين موت مكسيمليان وتخاب شرلكان ايمبراطورا بدلا عنه حتى صار فيما بعد مستقرا فى عدة محال وتمكن من قلوب كثير من الناس وزيادة على ذلك

سنة ١٥٢٠

كان البابا ليون العاشر وقتئذ مشغولا بشأن انتخاب الإمبراطور لكون ذلك اهم عنده من المجادلة التيولوجية حيث كان لا يدري فيها شيأ ولا يمكنه ان يتبصر في عواقبها فلما رأى ان فريدريق يميل الى حزب لوتير لم يدقق في دعواه خوفا من ان يغضبه وهو ذو شوكة عظيمة وصولة كبيرة في ديوان المنتخبين ولم يعجل بالحكم على لوتير بالكفر والخروج عن دين الكنيسة الصحيح مع ان لوتير كان له اعدآء كثيرون لا يغفلون طرفة عين عن حث هذا البابا وتحريضه على ايذآء لوتير واضراره

مطلب
تأخير الحكم على لوتير

ولما كانت تلك الاسباب والمآرب السياسية قائمة بنفس البابا ليون العاشر حاول في امر لوتير حتى مضت ثمانية عشر شهرا ولم يحكم عليه بشيء لاسيما وكان البابا يكره بطبعه كل مجادلة ومحاورة تسابق في ميدانها الاخصام ولكن في تلك المدة لم تنقطع مذاكرات رومة في شأن انهاء هذا الامر بالتي هي احسن وبهذه المذاكرات عرف لوتير فساد ديوان رومة واختلاله وعلم انه لا وجه الى تحويل اربابه عن بدعهم واوهامهم الفاسدة وضلالهم في اعتقاداتهم الكاسدة وانهم لا يتبعون الحق ولو ظهر بالبراهين الرادعة والادلة القامعة حتى ظهر عليه انه داخله الشك في كون شوكة البابا من الاسرار الالهية وحصل بمدينة ليبسيك على رؤس الاشهاد مناظرة في هذه المسئلة بينه وبين العالم اكسيوس وكان لسعة علمه ودقة فهمه من اعلم اخصام لوتير واشدهم خطرا عليه ولكن انتهت هذه المناظرة كغيرها من المناظرات السكولاستيكية بدون أن يترتب عليها ثمرة ولم يلزم احدهما الآخر حجة بل بقي كل منهما على رأيه ولم ينهيا شيأ في شأن المسئلة المذكورة

مطلب
النسخ ببلاد السويسة

وكما ان بلاد سكس نفرت من دين الكنيسة الرومانية لكثرة جورها وظلمها كذلك بلاد السويسة حصل فيها مثل ذلك فان الاسباب بعينها اثارت في ذلك الزمن تقريبا العقول وحملتها على هتك حرمة دين تلك الكنيسة وذلك ان رهبان طائفة فرنسيس المأمورين باذاعة بيع الغفران في بلاد السويسة سلكوا سبيل الاختلاس والظلم الذي اوجب بغض الرهبان الدومينيقانية

سنة ١٥٢٠

اى الاحدية فى بلاد الـمانيا ومع ذلك فلم يزالوا على تشريع الغفران بدون عائق حتى وصلوا الى مدينة زوريكة فلما ارادوا ان يذيعوا بها بيع الغفران برزلهم العالم زيونقل ولم يكن دون لوتير فى الجسارة والرغبة فى سعادة النوع البشرى فعارضهم وابى ان يقرّ هذا الامر الردىء الذى يسخط المولى ويضرّ بالعباد وكانت حكومة السويسة وقتئذ حكومة جمهورية فلم يكن زيونقل كلوتير مكبولا بقيود الحكم بل كان حرّا مطلق التصرّف فى حركاته وسكناته فمن ثم تتبع مقاصده مع ثبات القلب والجسارة على رؤس الاشهاد ولم يخش بأس احد وصمم على هدم قواعد دين الكنيسة ومحو اثره بالكلية فسرّ لوتير لذلك حيث وجد له ظهيرا يؤيد مذهبه ويعضد آراءه وفرح فرحا شديدا من قبول هذا الراهب وانتشار آرائه الا ان اعداءه انتصروا عليه من وجه آخر فى مدرسة كولونيا ومدرسة لوان حيث فند علماء هاتين المدرستين آراءه وحكموا عليها بانها خطأ محض

مطلب
جسارة لوتير وتقدم مذهبه وازدياد قبول آرائه

ولكن كان لوتير جسورا لايخشى بأسا فلم يرده تعصب اعدائه وتدقيقهم الاغضباوحمية فاخذ يقدح فى دين الكنيسة ويفحص مع التدقيق عن اصوله ويفسدها واحدا بعد واحد حتى زلزل القواعد المتينة التى تأسست عليها شوكة ديوان رومة وثروتها فايقن البابا ليون العاشر انه لايمكن ارجاع لوتير بالتى هى احسن هذا واخذ جماعة من الاحبار المتبحرين فى المعارف يوافقون اعداء لوتير ويلومون البابا على حلمه واغضائه عن سفهه وجسارته مع قدحه فى الكنيسة بكل منقصة ويتعجبون من كونه لم يغضب عليه ولم يحكم بكفره حتى يحرم من نعم الكنيسة الرومانية التى قدح فيها وهتك حرمتها مدة ثلاث سنوات وكانوا يقولون ان عظم شأن الكنيسة يقضى بعقاب هذا الرجل العقاب الشديد فى نظير وقاحته ومسبته لها وان الامبراطور الجديد يعضد البابا ويكون نصيره وظهيره ومن البعيد ان الامير فريدريق منتخب سكس يترك سبيل السياسة والحزم وما هو دأبه من الاحتراس والتبصر ويتصدّى لحماية هذا الرجل ويعادى البابا والامبراطور وانعقدت فى ذلك مشورة الكردينالات عدة

مرات لتختبر هذه القضية وتقف على حقيقتها فصدر حكمها في شأنه على وجه مقبول لا يحتمل نقضا ولا ردا فراجعوا القوانين ليبحثوا فيها عن صيغة حكم صحيحة لا تقبل التذبذب بوجه من الوجوه فلما كان اليوم الخامس عشر من شهر حزيران (سنة ١٥٢٠) صدر في شأن لوتير فرمان الحرمان الذى كانت عاقبته مشؤومة على كنيسة رومة واستخرجوا من مؤلفات لوتير احدى واربعين مسئلة حكموا عليها بانها من عقائد الفرق الزائغة التي تزرى بالمروءة والانسانية وتنابذ مكارم الاخلاق وكان هذا الفرمان يتضمن ايضا تحريم قرآءة مؤلفات لوتير وان من تجاسر وقرأها حكم عليه ايضا بالحرمان والطرد وفيه ايضا امر بان من عنده بعض نسخ من تآليفه يجب عليه ان يقذفها في النار وبعد ستين يوما ان لم يرجع لوتير عن مذهبه ويعترف على رؤوس الاشهاد بان ذلك من الخطاء المحض ويحرق سائر كتبه يعد من الفرق المبتدعة ويحكم عليه بالحرمان حتى يصير مخذولا مدحورا ويكون ممن استهوته الشياطين فعدل عن الحق وحاد وضل عن سبيل الرشاد وكان في هذا الفرمان ايضا امر لسائر الامراء ان يقبضوا عليه ويذيقوه من العذاب ما استوجبه لنفسه بسبب ما ارتكبه من الموبقات والكبائر ولما انتشر هذا الفرمان ببلاد المانيا اضطربت الآراء وتعددت المذاهب فكانت آراء الناس تختلف بحسب اختلاف البلاد والاحوال فاما اعداء لوتير واخصامه ففرحوا بكل الفرح ظنا بان هذا الفرمان يكون به ابطال مذهبه ومحق اصحابه واما احزاب لوتير فكان احترامهم للبابا كل يوم في التناقص فلما قرأوا الفرمان ازداد غضبهم وسخطوا على البابا بل في بعض المدن تصدى الاهالى لمنع اشاعة هذا الفرمان وفي بعض آخر انتدب من تصدى لاشاعته ومزق الفرمان كل ممزق ووطئته الاقدام

مطلب فرمان حرمان لوتير والحكم بكفره وطرده عن باب الكنيسة

مطلب تأثير هذا الفرمان في بلاد ألمانيا

ولم تفترهمة لوتير بهذا الحكم حيث كان يعلم من قبل انه لا يسلم منه وانه لابد من وقوعه فبعد ان رفع فصل دعواه الى مجلس قسيسى عام كتب بعض ملحوظات ناقش بها فرمان الحرمان وكان يعلم ان البابا ليون قد سلك

مطلب تأثير هذا الفرمان في لوتير في ١٧ من شهر تشرين الثاني

سنة ١٥٢٠ في الحكم عليه ميلك الجور والتعدي فقال على رؤوس الاشهاد ان هذا البابا هو المسيح الدجالي الذي نص على ظهوره كتاب العهد الجديد وصار يصفه بالظلم والتعدي ويبالغ في ذمه والقدح فيه اكثر مما كان عليه اولا وحرض جميع ملوك الافرنج وامرآءهم على القيام عليه والخروج عن طاعته حيث ان احكامه لا تكسبهم الا العار والمذلة وصار يتمدح ويفتخر على رؤوس الاشهاد بانه استوجب غضب البابا في نظير جسارته على حماية حرية البشر ورغبته في حفظ السعادة البشرية ولم يكتف في اظهار احتقاره للبابا بمجرد الخطابة والكلام بل لما رأى في الفرمان الاخر بحرق كتبه في رومة اراد ان يفعل في حق البابا مثل ما حكم عليه به فجمع المدرسين والطلبة الذين كانوا وقتئذ بمدرسة ويتانبرغ حتى صارت جمعية كبيرة ورمى في النار كتاب القانون الروماني واصحبه بفرمان الحرمان وتأسى به في ذلك عدة من مدآئن المانيا ثم ان الطريقة التي سلكها في تزكية نفسه وتحليل هذا الفعل وانه من قبيل الصواب كان فيها اساءة ادب اكثر من الفعل نفسه وذلك لانه استخرج من القانون الروماني بعض مسائل يستبعدها العقل تتضمن ان شوكة البابا فوق شوكة كل ملك وامير وحقير وخطير ووضع على هذه المسائل شرحا بين فيه فسادها وبرهن على انه مع تداول الايام يترتب عليها محق الحكومات الملكية ودمارها

مطلب
الحالة التي كان عليها السيخ حين دخول شرلكان في بلاد المانيا

هكذا كانت حالة مذهب لوتير حين دخول شرلكان في المانيا فلم يكن احد من الامرآء والملوك الى ذلك الوقت اتبع المذاهب الجديدة وعمل بها ولم يكن حصل ادنى تغيير في صورة الدين ولا ادنى تعد على حقوق القسوس واحكامهم وبالجملة فلم يكن انحط الرأي على ترجيح احد المذهبين على الآخر فانه وان كانت نيران الجدال قد اضطرمت بين الحزبين الا انه لم يحصل بت ولا انتهاء في هذا المعنى بل كان كل من الفريقين يسأل ويجيب ويصاب ويصيب وتتعارض الادلة فيسقط المعلول بسقوط العلة ومع ذلك فقد اثرت هذه المجادلة في عقول الناس تأثيرا قويا وقل احترامهم لدين الكنيسة ورسومها وادركوا ضعف الاوهام الكاسدة والبدع الفاسدة وبالجملة فلم تزل العقول من ذلك

سنة ١٥٢٠

الوقت تزداد تقظنا واستيقاظا حتى توفرت من بومئذ اسباب الفتن التى انتشرت نيرانها فيما بعد ببلاد المانيا فتزلزلت ارجاؤها واضطربت كل الاضطراب فكان الطلبة يأتون افواجا من سائر اقاليم الايبراطورية الى مدينة ويتانبرغ للاخذ عن لوتير فقد سعى الى تلك المدينة الشهير ميلانختون والحبر كرلستاد وغيرهما من المدرسين العظام واخذوا عن لوتير المذاهب الجديدة ونقلوها الى ابناء وطنهم فتلقوها عنهم مع الرغبة التامة التى تكون عادة النفس فى كل امر جديد مرغوب فيه يعتقد ان صحته قطعية لا تنكر وكان ديوان رومة فى اثناء تلك الحوادث يحكمه رجل يعد من اشهر البابات الذين حكموا فى الكنيسة الرومانية ومع ذلك فلم يبد هذا الديوان فى تلك الواقعة ما اشتهر به غير مرة ببلاد اوروبا من الحزم فى تدبير مقاصده والعزم فى تنجيزها حيث كان يتخذه الافرنج قدوة فى حسن السياسة والتدبير وذلك ان لوتير حين قدحه فى بيع الغفران كان هنالك طريقتان لو سلك البابا احداهما لافسد على لوتير مشروعه ولو سلك الاخرى لسكن هيجانه واخمد لهيبه وكان يلزم بمجرد عدوله عن الدين ان يبادر بالقبض عليه ويعامله بالتعزير والتعنيف حتى يرجع او يحكم عليه بما يريح الكنيسة منه ولنبين هاتين الطريقتين فنقول لو قبض على لوتير من مبدء الامر قبل تمكنه وهدد بغضب الكنيسة عليه وصدر فى حقه فرمان بالحرمان لزجر هذا الفرمان الامير فرديريق منتخب سكس ومنعه عن التصدى لحماية لوتير ومنع الاهالى ايضا عن اتباع مذهبه بل وكان لوتير نفسه يلحقه الرعب والفزع ولا يتجاسر على فعل شئ مما فعله وكان اسمه لا يعرف الآن بين الانام الا بكونه قد بذل جهده فى امر ممدوح وهو شروعه فى محو مظالم ديوان رومة الا انه استعجل بهذا الشئ قبل اوانه فعوقب بحرمانه والطريقة الاخرى التى كان ينبغى للبابا سلوكها هى انه كان ينبغى له ان يظهر من مبدء الامر الغضب من قبح سلوك من كانوا مأمورين باشاعة بيع الغفران وانهم جاوزوا الحدود وفعلوا اكثر مما يجب عليهم وكان ينبغى له ايضا ان يمنع المجادلة على رؤس الاشهاد فى اى مسئلة كانت من المسائل

مطلب ملحوظات فى شأن سلوك ديوان رومة

سنة ١٥٢٠

الخلافية المشكلة لانه يخشى على الكنيسة من الجدال فى تلك المسائل العويصة
اذا صار الى ذلك العصر لم يظهر من يقوم حقيقة بحل مشكلاتها وفك
معضلاتها وربما كان ذلك يمنع لوتير عن تقوية مذهبه وتوسيع دائرته ولولا
ان ديوان رومة شدد عليه والزمه بالبحث عما يدافع به عن نفسه لخمدت
نيران مجادلته وتلاشت شيأ فشيأ او بعدت عن اسماع الناس وانحصرت
فى المدارس وضاعت بين المحاورات السكولاستيكية ولامكن لديوان رومة
ان يحاجه فى هذه المسئلة من غير ان يضر بالكنيسة الرومانية فى شئ
كما لم يحصل لها ضرر بسبب غيرها فتكون كمسئلة حمل مريم عليها السلام من
حيث عدم الاضرار بالكنيسة حيث لم يترتب على ما وقع فيها من الاختلاف
بين قسوس طائفة فرنسيس وقسوس الطائفة الدومينيقانية ضرر
ولا اختلال وكذلك مسئلة عفو الله التى حصل الخلف فيها بين الطائفة
الجنسيناستية والطائفة اليسوعية ولكن كان البابا ليون يتردد بين هاتين
الطريقتين فضاعت منه ثمرتهما حيث شدد على لوتير اكثر مما يلزم فعوضا
عن كونه يقمعه بهذا التشديد ويرده عن حيته لم يزده الا تصميما وعنادا
وكان حلم البابا وصبره عليه وامهاله له فى غير محله حيث استعان به لوتير على
نشر مذهبه من غير ان يخشى بأس الكنيسة وكان صدور فرمان الحرمان اخيرا
فلم يؤثر فى عقول الناس ولم يكن له موقع فى قلوبهم ولو صدر قبل الوقت الذى
صدر فيه لاثر تأثيرا قويا وتم الغرض منه

مطلب
سلوك لوتير

ومن الغريب ان ديوان رومة لم يحكم سياسته ولم يتقن ادارته فى هذا الامر
مع انه قل ان استوجب لنفسه لوما فى سياساته اوقيل فى حقه انه لا يعرف
مصلحة نفسه ولا من اين يؤكل الكتف واغرب من ذلك ما ابداه لوتير من الحزم
والتدبير فى هذا الغرض فانه وان كان لا دراية له بمواقع عواقب الامور بسبب
حمية طبعه وشدة خلقه احكم السياسة والادارة فى اظهار مذهبه ونشره حتى
نجحت مساعيه كل النجاح بحيث لو كانت بيد احد من ارباب السياسة المتمكنين لما
نجحت اكثر من ذلك وحين تصدى لمناقضة الراهب تتزيل فى مبدء الامر كان

لا يظن ان عاقبة آرائه تصل الى هذه الدرجة فى الاضرار بالكنيسة ونسخ دينها ولو خطر حينئذ ببالهذا النسخ العام الذى صار فيما بعد يتخوف به لارتعدت فرائصه وتواضع طربت من الفزع والخوف علما بانه لا طاقة له على تخبيزه لكونه من المشروعات الصعبة التى تجل عن امثاله هذا وعلم الحقيقة لم ينطبع فى قلبه دفعة واحدة اى لم يمكن له من الامور الدنية او الالهامية بل كان ثمرة مطالعته وممارسته للعلوم بحيث لم يصل اليه الا بالتدريج وكان مذهب الكنيسة الرومانية مرتبطة اجزاؤه ببعضها ارتباطا كليا حتى كان ظهور الخطا فى قاعدة واحدة يجر الى الخطاء فى الباقى فكانه بناء هدم بعضه يؤدى الى ارتجاج اساس بقية اجزائه بل ربما ترتب عليه هدمها بالكلية فلاجل ان يزيل لوتير من عقول الناس ما كان قائما بها من استحسان بيع الغفران واقراره اضطر الى البحث عن السبب الحقيقى الذى يكون به برآءة الانسان من خطاياه وذنوبه والعفو عنه فيما جنى فلما علم هذا السبب بنى عليه عدم لزوم الحج والاحتفالات والتضرع الى القديسين فى الشفاعة والتوسل بهم وعدم لزوم المواسم التى تعمل لاجلهم وبطلان الاعتراف بالذنوب للقسوس مشافهة واستنبط منه ايضا انه ليس هناك محل تطهر فيه ارواح المذنبين لتستوفى ما استوجبته بذنوبها ومعاصيها وقد وصله بحثه عن تخطئة هذه الامور وافسادها الى معرفة حقيقة القسوس الذين كانوا متكفلين بتخبيزها اورأى ان منشأ فسادهم انما هو غناهم المفرط وتحريمهم الزواج على انفسهم وتشديدهم كل التشديد فى شأن المناسك الدينية والرسوم الرهبانية وبناء على ذلك كان قريبا من ان يشك فى كون شوكة البابا من الاسرار الالهية حيث ان هذا البابا يبيح مثل تلك الامور القاسدة الباطلة ويبذل جهده فى تأييد تلك الاوهام العاطلة وبعد ان اثبت ذلك بنى عليه امرا جديدا وهو انكاره عصمة البابا عن الوقوع فى الخطاء وصحة ما تحكم به الكنيسة والقسوس وغيرهم من امناء الدين قائلا لا يتمسك الانسان الا بنص كتاب الله الذى لا تغيير ولا تبديل لكلماته فهذا هو الاقرب للصواب وعين الحقيقة وهو

قاعدة

سنة ١٥٢٠

قاعدة صحيحة تعرف بها الحقائق التيولوجيكية فلما كان لوتير يسلك على هذا المنوال البديع ويعضد امرا باهرا ويبنى شيأ على شئ نجح فى مساعيه كل النجاح وحل بذلك فى ذرى الفلاح حيث كان لا يعرض على الناس من اول وهلة ما تمجه اسماعهم بان يكون مخالفا بالكلية لاوهامهم القديمة او بعيدا عن اعتقاداتهم الراسخة فى اذهانهم بل صار يلاعب عقولهم وينقلهم من عقيدة الى اخرى من غير ان يشعروا بشئ تنفر منه نفوسهم فكان كلما استكشف شيأ جديدا تنشرح منه صدورهم وتقبله عقولهم بحيث تمتزج بهم كامتزاج الروح بالجسد ونشأ ايضا عن سلوكه على هذا المنوال ان البابا ليون اهمله فى اول الامر ولم يعتن بصنعه فامكنه ان ينشر مذهبه بين الناس وصار له موقع فى قلوبهم قبل ان يتفطن احد الى ادراك عواقبه ولو تغالى لوتير من اول وهلة فى القدح فى الكنيسة الرومانية لبادرت الى الانتقام منه بغاية وسعها الا انه كان فى مبدء امره غير مصمم على هذا المشروع حتى مكث زمنا طويلا وهو يظهر للبابا كل الانقياد والطاعة ويحترم احكامه كل الاحترام بحيث كان لا يتراءى عليه انه سيعصاه ذات يوم او يقدح فيه وينتقد احكامه ويزيفها بكل ما يمكنه ولذلك اهمل البابا فى مشروعه واغضى عنه فصار يسعى كل يوم فيما فيه ازدياد مذهبه واضاعة بهجة الكنيسة الرومانية ولم يشعر البابا وديوان رومة بان عاقبة مشروعه تضر بهم كل الضرر ولم يبحثوا عما يسلمون به من تلك العاقبة السيئة الا بعد أن صار الداء عضالا لا ينفعه دواء

مطلب
الاسباب التى اعانت على تقدم النسخ

نعم ان لوتير قد ساعده فى تأييد مذهبه وتعضيده حسن سلوكه وتدبيره وقلة تبصر اخصامه وقبح اداراتهم لكن لا ينبغى ان نحصر اسباب تقدم مذهبه فى هذين السببين بل كان ثم اسباب اخرى اعانته اتم اعانة حيث ان عدة من الاحبار الماهرين كانوا قد كتبوا قبل وجوده بزمن طويل فى التشنيع على الكنيسة وسلكوا مسلكه فى القدح فى احكامها وتفنيد آرائها ورسومها وبرهنوا على ذلك بمثل البراهين التى تمسك بها فقد ظهر فى القرن الثانى عشر الحبر ولدوس وفى القرن الرابع عشر الشهير وكليف وفى القرن

سنة ١٥٢٠

الخامس عشر الماهر الحاذق حسناهوس وكلهم بينوا ضلال الكنيسة الرومانية وزيغها مع الجسارة التامة واقاموا على بطلانها وتخطئتها براهين جلية تجلى عما يتوهم فى اهل اعصر الجهالات التى كان هؤلاء الاحبار موجودين بها الان جميع مشروعاتهم فى شأن الفسخ لم تنجح وخاب سعيهم فيها الانها كانت فى غير ابانها وقيل اوانها فلم تكن فى تلك الاعصر الخشنية الا كاشعة ضعيفة من وراء حجاب فلم يمكنها ان تمزق الغيوم الكثيفة التى كانت مخيمة على الكنيسة الرومانية فعما قليل ذهب ضوءها وانكسف نورها وعلى فرض ان مذهب هؤلاء الاحبار القديسين كان له موقع فى قلوب الناس وكان له تأثير فى البلاد التى انتشر بها فكان تأثيره ضعيفا ودائرته ضيقة يعنى انه لم يتمكن ولم يتشبث به كثير من الناس لان معظم الاسباب التى اعانت لوتير على تأييد مذهبه وانتشاره كان مفقودا فى عصر هؤلاء الاحبار اوكان قليل التأثير والجدوى فى مثل ذلك العصر بخلاف مذهب لوتير فظهر فى ابانه حيث كان الوقت وقت شدة واضطراب فوجدت ثم مقتضيات احوال كثيرة اعانته على تتميم مقاصده وتنجيز اغراضه ومشروعاته

مطلب
الشقاق الطويل الذى حصل مدة القرن الرابع عشر

هذا وقد حصل فى الدين نزاع كبير وشقاق كثير مكث زمنا طويلا حيث استغرق القرن الرابع عشر وبعض الخامس عشر فاورث الكنيسة العار والامتهان وقل احترام الناس للبابا وذلك ان اثنين او ثلاثة من البابات كانوا يطوفون فى آن واحد بلاد اوروبا ويتملقون لمن يريدون استمالته من الملوك ويظلمون البلاد التى كانت تحت حكمهم ويحكمون بالكفر على من خرج عن طاعتهم فكل ذلك جر الى تمزيق عرض البابات والى احتقارهم واحتقار مناصبهم حتى نفرت منهم القلوب وانكر الناس عصمتهم عن الخطاء والزلل ولما كان كل فريق من المتشاحنين يرفع دعواه الى محكمة اللاييك (اى الامرآء) اخذ اللاييك يعدون ان حكمهم لا حكم فوقه وبالغوا فى ذلك حتى صاروا ينتخبون من شاؤا من القسوس ويجعلونه بابا وازداد احتقارهم لكنيسة رومة بسبب الاوامر التى صدرت فى شأنها من المشاور القسيسية

سنة ١٥٢٠

التى انعقدت بمدينة فونستنسة ومدينة باله وكبرت جسارة هؤلاء اللاييك وعظمت شوكتهم حتى كانوا يعزلون من شاؤا ويولون من شاؤا من البابات فعلم الناس من ذلك انه يوجد فى رتب الكنيسة رتبة أعلا من رتبة البابا التى كانت قبل ذلك معتبرة انها اعلا مراتب الكنيسة واعظمها شوكة وصولة

مطلب
فى الكلام على البابا اسكندر السادس والبابا جاليوس الثانى

وقبل ان يبرأ الجرح الذى اصيبت به شوكة البابا بسبب افتيات اللاييك تولى البابية اسكندر السادس ثم جاليوس الثانى وكانا لا يوفيان بحقوق العصابة القسيسية وان كانا ماهرين بالنسبة الى حسن تأدية الاحكام الملكية فظهر منهما ما اكسب الكنيسة الرومانية عارا على عارها فى جميع الاقطار النصرانية اما اسكندر السادس فكان فاسد الاخلاق غير مستقيم الحال فى معيشته وادارة نفسه وكان ذا خداع ومكر ظلوما غشوما جبارا فى ادارة المملكة فعد لهذه الاسباب من الطوائف الجبارين الذين دنسوا نوع البشر واما الثانى فكان خاليا عن الشهوات القبيحة المشؤمة التى اوقعت سلفه اسكندر السادس فى الخطايا العظيمة والذنوب الجسيمة التى تنفر منها النفوس الكريمة لكن كان طمعه فوق كل نهاية وحرصه لا يقف عند حد وغاية فكان لا يحترم حقوق من له الفضل عليه وينتهك حرمات الادب والحشمة اذا كانت مراعاتها تؤدى الى تعطيل مقاصده وافساد مآربه فكان يعسر على الانسان ان يعتقد ان اسرار دين النصرانية الذى يحرض على الاحسان والمروءة قد اودعت فى قلب الجاحد اسكندر والسفيه جاليوس ومن ثم كانت آراء من ارادوا جعل احكام الجمعية القسيسية العمومية فوق احكام البابا فى ايامهما حالة محل القبول هذا وكان ايمبراطور المانيا وملوك فرانسا فى جدال وقتال مع ديوان رومة فاغضوا عما صدر من رعاياهم فى حق هذين الظالمين من الذم والقدح والمسبة فدار على الالسن من وقتئذ سب البابات وذمهم فلذا لم يغضب احد من لوتير واتباعه حين قذفوا كنيسة رومة وبالغوا فى ذمها والاستهزاء بها

سنة ١٥٢٠

مطلب
فساد اخلاق القسوس

ثم ان هذا الظلم الشديد المفرط لم يكن خاصبا بالبابا الذى هو رئيس الكنيسة لان اغلب كبار القسوس على الاطلاق كانوا من عائلات الاشراف والاعيان ولم يؤثروا الدخول فى خرقة القسوس الا لطمعهم فى الوصول الى ذرى المناصب العالية والتمتع بارزاقها الواسعة فكانوا يهملون بالكلية ما تقتضيه وظائفهم القسيسية من الواجبات ويتبعون اهوآءهم ويركنون الى ارتكاب الرذآئل التى هى من عادة ارباب الثروة والدعة واما صغارهم فكانت فاقتهم تمنعهم من التأسى بكبارهم فى الرفاهية والزينة لكنهم لتوغلهم فى الجهالة والمفاسد وافراطهم فى الموبقات والآثام كان الناس يحتقرونهم كما كانوا يبغضون كبارهم وهناك امر صعب مخالف للطبع البشرى وهو ايجاب رهبانية تلك الخرقة ومنع تزوجها فقد ترتب عليه من المفاسد والفسق ما تقصر عنه العبارة حتى انه فى عدة محال من الايمبراطورية الالمانية لزم ان يؤذن القسوس بالاجتماع بالخطيبات ومرافقة الاجنبيات لقيامهن مقام الزوجات بل وامروا بذلك فمعالجة دآء الرهبانية بدوآء مخالف لدين النصرانية يدل دلالة قوية على كثرة مفاسد القسوس وفسقهم وقتئذ وقبل القرن السادس عشر بمدة طويلة ظهر عدة من ثقات المؤلفين المشاهير كتبوا فى هذا الشان فبينوا فساد اخلاق تلك الخرقة ووصفوها باوصاف يستبعدها العقل فى عصرنا هذا وبالجملة ففسادهم اغضب الناس كافة واورثهم من الخزى والعار ما لا مزيد عليه وليس هذا لمجرد كون مثل تلك الاخلاق الفاسدة لا تليق بوظائفهم المحترمة بل لانهم كانوا فى الاصل من رعاع الناس وسفلتهم ثم ارتقوا من حضيض الفاقة وعدم الاعتبار الى اوج العلا والفخار وصاروا بمكان من الغنى والثروة فكان اللاييك يتأثرون منهم كل التأثر ولا يغضون عن هفواتهم كغيرهم من القسوس العريقين فى النسب المتاصلين فى الثروة ولما كان حسدهم لهؤلاء اشد من حسدهم للآخرين كان قدحهم فيهم ايضا اشد واعظم فبناء على ذلك كان لا احب على الناس من سماع قدح او تنبير وذمه فى القسوس فكان كل من اصغى اليه وجد فى ملحوظاته فى هذا المعنى براهين وضيحة وادلة صحيحة ترى

ان

سنة ١٥٢٠

مطلب
سهولة نيل الانسان العفو فيما جناه على نفسه كقتل او غيره

ان ذممهم لهذه الطريقة صادف محلا

وقد ازدادت مفاسد القسوس حتى جاوزت الحدود لانه كان يسهل عليهم كالعامة نيل الغفران مما يجنونه من القبائح وبذلك صارت شوكة القضاة والحكام المدنية واهية فى جميع دول اوروبا حتى كادت تنعدم بالكلية لانه لما كان الحكم حينئذ على الوجه السابق قبيح الترتيب ردىء الادارة اضطر هؤلاء القضاة الى ان يسلكوا فى احكامهم طريقة التساهل وعدم التدقيق فى اقامة شعائر العدل والانصاف حتى كانوا يتجاوزون عن الفواحش والكبائر بواسطة دفع مغارم عينتها القوانين ولما كان ديوان رومة دائما يبحث عما يكون به ازدياد ايراد الكنيسة الرومانية اتبع هذه العادة وادخل تلك المغارم فى المصالح الدينية حتى صار يعفو عن كل مذنب بدفع المغارم المذكورة وحيث ان كفارة الكبائر بدفع هذا المقدار من المال كان موجودا من قبل وكان الناس متعودين عليه لم ينفروا منه حين اتخذه ديوان رومة وسيلة فى ازدياد ايراداته ولذلك صارت تلك العادة عامة بين الافرنج كافة حتى انه لاجل منع ما يمكن ان يتطرق اليها من الغش والتدليس صنف قضاة رومة كتابا كتعريفنامة محتويا على تعيين المقدار اللازم فى كفارة كل جناية بخصوصها فكانت كفارة القتل اذا وقع من الشماس دفع مغرم قدره عشرون ريالا وكان يمكن لكل من الاساقفة ورؤساء الاديار ان يقتل النفس بشرط ان يدفع للبابا ثلثمائة من الفرنكات وذلك الف ومائتان من القروش وكان ايضا يجوز لكل قسيس ان يسلك سبيل الفساد وينهمك على المحارم والمآثم بشرط ان يدفع ثلث المبلغ المذكور وطالما عفى عمن جنى جناية عظيمة او ارتكب كبيرة نادرة الوقوع بل ولا تخطر الا ببال الفساق الجبارين الخالين عن المروءة والانسانية فى نظير دفعه مغارم يسيرة هينة ولكن لما حسنت الاحكام فى دواوين الامراء والاريك وصارت تجرى على منهج الاصول الدينية والادبية ظهر للناس ان هذه العادة التى كانت لديوان رومة فى تكفير الخطايا والذنوب مخلة بالديانة والادب وانها منشأ ضلالات القسوس وعدم

سنة ١٥٢٠

اتباعهم نهج العدل والاستقامة

مطلب سعة ثروة الكنيسة الرومانية وزيادة اموالها عن الحد

وربما كان يمكن الاغضاء عن فساد اخلاق القسوس لو لم يغتروا بكثرة اموالهم وسعة ثروتهم وشوكتهم حتى صاروا يظلمون بقية طوائف الاهالى ويعاملونهم اسوء المعاملة ومن المعلوم ان دأب اولى البدع الفاسدة والاوهام الكاسدة الميل الى الزينة والمباهاة وفرط السخاء على من يعتقدون حرمتهم بل يرون ان ما يفعلونه فى حقهم قليل لا يفى بما يجب لهم عليهم حتى يرقوهم الى اوج الغنى والثروة والشوكة فهذا هو منشأ ثروة كنيسة رومة ونفوذ كلمتها فى سائر بلاد اوروبا حتى سئمت منها طائفة اللاييك مع ان كرمهم المفرط او اسرافهم كان هو السبب فى ذلك

مطلب فرط غنى الكنيسة وظلمها فى المانيا

واعظم ظلم القسوس كان ببلاد المانيا ولذلك ترى ان الالمانيين مع شدة ميلهم الى عوايدهم القديمة كانوا مستعدين اكثر من غيرهم من الملل الافرنجية لاتباع من يشير عليهم بطلب الحرية والخلوص من اسر الكنيسة ففى اثناء المشاجرات والمنازعات التى مكثت مدة مستطيلة بين الامبراطرة والبابات فى شأن التقليد بالمناصب والوظائف هل هو حق البابا أو حق الامبراطور وفى مدة الحروب التى تسببت عن هذه المشاجرات انضم اغلب كهنة المانيا الاقوياء الشوكة الى حزب البابا وكانوا فى مدة عصيانهم على الامبراطور يتغلبون على ارادته ويحوزونها لانفسهم بالقهر والغلبة وافتاتوا ايضا على احكامه الخاصة به فيما يتعلق بابرشياتهم وبعد انعقاد الصلح استمروا على حفظ ما كانوا اغتصبوه كأن طول مدة وضع اليد عليه بمحض التعدى جعله حقا شرعيا لهم وكانت شوكة الامبراطرة حينئذ ضعيفة بحيث لا يمكنهم ان يسترجعوا ما اغتصبه منهم هؤلاء الكهنة فاضطروا الى ان ينزلوا لهم عن جميع الاراضى الواسعة التى غصبوها منهم لتكون التزاما لهم فصار الكهنة من وقتئذ يتمتعون بجميع المزايا والخصوصيات التى كان يتمتع بها الاشراف والبارونات بموجب المذهب الالتزامى ومن ثم صار معظم الاساقفة ورؤساء الاديار ملوكا لا قسوسا وصارت طبائعهم واخلاقهم كطبائع دواوين امراء

سنة ١٥٢٠ اللاييك لا كطبائع القسيسين الذين من دأبهم العفة والديانة والزهد فى زهرة الحياة الدنيا

مطلب تغلب القسوس على بعض الاراضى

وزيادة على ذلك كانت حكومة المانيا مضطربة لا تستقر على حال وكانت الحروب لا تنقطع منها ابدا فاعان ذلك القسوس على تحصيل غناهم وازدياد شوكتهم وفى مدة الحروب التى كانت بها بلاد المانيا فى اسوء الاحوال لم يسلم من ظلم الاكابر والاعيان واهوال الحرب الا أراضى الكنيسة والتزامات القسوس لان الناس وقتئذ كانوا يحترمون القسوس كل الاحترام ويخشون ان يحكموا بالحرمان والكفر على من يتعدى على اراضيهم لانهم كانوا دائما يعاقبون باللعن والطرد من تعدى على املاكهم ولذلك اضطر عدة من الملتزمين الى ان ينزلوا عن اراضيهم للقسوس ثم يسترجعوها فتكون تحت ايديهم على انها من التزامات الكنيسة وانما فعلوا ذلك لانهم كانوا بعد صيرورتهم بذلك فى حمى الكنيسة واندراجهم فى زمرة اتباعها يصيرون فى أمن عظيم لا يمكنهم تحصيله بمحض قواهم وشوكتهم

ولما ترتب على ذلك كثرة اتباع الكنيسة تقوت شوكة القسوس وصار لهم صولة عظيمة لاسيما وكانت الاراضى التى يعطيها صاحبها لغيره على سبيل الالتزام ترجع اليه غالبا بموجب الرسوم الموجودة اذذاك فى شأن الاقطاعات المؤجلة فعما قليل كثرت اراضى القسوس واتسعت دائرة التزاماتهم

مطلب مزايا القسوس الذاتية

وكان اعتناء القسوس بتحصيل الامن لانفسهم اكثر من اعتنائهم بتحصيله لاملاكهم واراضيهم فكان نجاحهم فيه اعظم وذلك ان الانسان عند دخوله فى خرقة القسيسين كان ينصب له موكب واحتفال عظيم ثم بعد دخوله فيها وعده من زمرة اصحابها يمتاز عن بقية طوائف الاهالى فى الملابس والمعيشة وتثبت له مزايا وخصوصيات لا يشركه فيها غيره من النصارى فصار القسوس بذلك محترمين كل الاحترام وكان كلما ازدادت الاوهام والبدع ازداد اعتقاد الناس فيهم واعتبروهم كانهم خلق آخر غير اللاييك الذين هم مطية الخطايا والمعاصى فاذن لا ينبغى معاملتهم كمعاملة الناس ولا الحكم عليهم

سنة ١٥٢٠

بموجب القوانين المرتبة لكافة الناس ومن فعل ذلك معهم فقد أثم اثما عظيما وبعد ان كانت معافاتهم من الاحكام المدنية اوّلا ليست الا على سبيل التفضل والاكرام طلبوا ان تصير لهم من جملة حقوقهم الذاتية التي لا يمكن نزعها منهم ولا انفصالها عنهم وايدهم فى ذلك البابا والاوامر الصادرة من المشاور القسيسية واقرّهم عليها ايضا اعظم الامبراطرة فكان الانسان ما دام موصوفا بوصف القسيسية محترم الذات لا يجرى عليه شئ من الاحكام المرتبة ولا يقضى عليه بين يدى قاض من القضاة الا بعد عزله وانسلاخه من الطائفة القسيسية وكان عزل القسيس من خصوصيات المشاور القسيسية فكان اذا ارتكب قسيس ذنبا لا يعاقب غالبا بما جنى لان صاحب الحق كان اذا اراد خلاص حقه من احد القسيسين يلزمه مصاريف واسعة حتى يتوصل الى عزل خصمه وقل ان امكنه الفوز بعزله بعد المشقة والعناء ولذلك عهد ان كثيرا من اشرار الناس كان يدخل فى خرقتهم لمجرد التمتع بتلك المزية العظيمة وليتجو من العقاب الذى استحقه بسبب الذنوب والمفاسد الكبيرة التى ارتكبها وطالما تشكى اشراف المانيا من كون هؤلاء القسيسين الاشرار اتمادخلوا فى خرقة القسوس ليتخلصوا من القتل الذى وجب عليهم بما جنوه حيث ان الواحد منهم بعد دخوله فى تلك الطائفة لا يلحقه ادنى ضرر ولو كان قبل ذلك فعل ما فعل ويفهم مما كتبته الاشراف فى تشكيهم من هذا الامر انهم كانوا يتضررون كذلك من معافاة القسوس من الاحكام السياسية ويعدونها من المزايا التى تضرّ بالناس وتعين على فساد اخلاق القسوس وتزيد فى طغيانهم وبغيهم

مطلب
تغلب القسوس على الاحكام المدنية

وكما كان القسوس يبذلون غاية جهدهم فى اثبات مزاياهم كانوا يتعدون ايضا على مزايا اللاييك حيث زعموا ان جميع الدعاوى المتعلقة بالنكاح والوصايا والرِّباء واثبات كون الولد متولدا من حلال او حرام وكذلك ما يتعلق بالارادات القسيسية كل ذلك من الامور الخاصة بالدين فلا يجوز فصلها فى محاكم اخرى غير المحاكم القسيسية ولم يكتفوا بتغلبهم على هذا الامر الذى يدخل تحته

نصف

سنة ١٥٢٠

نصف المخاصمات والدعاوى التي تقع بين الاهالي حتى تحيلوا وجعلوا سائر الدعاوى امام قبلهم في محاكمهم ودواوينهم وحيث ان ذلك العصر كان عصر جهالات ومعارفه اليسيرة مقصورة على طائفة القسوس كانت معارف القضاة من القسيسين فوق معارف قضاة اللايك حتى ان الناس في مبدء الامر ظنوا ان مصلحة حالهم تقتضي ان يساعدوا القسوس ويعينوهم على توسيع دائرة فتاواهم واحكامهم لانهم كانوا يثقون بهم اكثر من الآخرين من طائفة اللايك لما كانوا يرونه فيهم من كثرة المعارف بالنسبة لقضاة اللايك وترتب على ميل الناس للقسيسين أن صارت احكام اللايك تضمحل شيأ فشيأ حتى كادت تنعدم بالكلية وكان ذلك ايضا من جملة الاسباب التي اعانت على ازدياد شوكة القسيسين حيث اتسعت دائرة ايراداتهم بما كان يرد لهم من فصل الدعاوى

مطلب
خوف الناس من القسيسين

وكان الناس حينئذ يخشون بأس الكنيسة ويخافون غضبها لان الحرمان لم يكن الغرض منه بحسب الاصل الا ابقاء طهارة الكنيسة واذهاب الرجس عنها فكان لا يقع الحكم به الا في صورة ما اذا اريد تطهير الجمعية النصرانية من كل فاسق عنيد له عقائد زائغة تجعل عيشته بين الناس موجبة لتدنيس دين النصرانية ولكن توسع فيه القسيسون فيما بعد حتى جعلوه آلة يستعينون بها على ازدياد شوكتهم الدنيوية فكانوا يحكمون به على الانسان في نظير اشياء هينة لا تزرى بمروءة ولا انسانية فكان كل من احتقر شيأ من احكامهم ولو في الامور المدنية المحضة يحكم عليه بالحرمان فتسلب منه جميع المزايا النصرانية ويحرم من الحقوق الثابتة لابناء وطنه بل ومن حقوق كل انسان من الجمعية من حيث كونه انسانا وبناء على ذلك كان الناس يخشون عاقبة الحرمان فكنت تراهم على اختلاف احوالهم ينقادون لاوامر القسوس ويمتثلون احكامهم لا فرق بين صغير وكبير وحقير وخطير

مطلب
تحيل القسوس في تحصيل الوسايط التي يأمنون بها على ما اثبتوه لانفسهم من الحقوق والمزايا

وكان القسوس سلكوا سبل التحيل والمهارة فيما يكون به ازدياد ثروتهم وغناهم ونفوذ كلمتهم لم يهملوا كذلك في تحصيل الوسايط التي بها يأمنون على بقاء تلك

سنة ١٥٢٠

الثروة لهم حتى لا تنفك عن خزنتهم على مدا الايام فاعلنوا ان اراضى الكنيسة واملاكها لا تباع ولا تشرى ولا ترهن ولا تنتقل الى ملك غيرها باى وجه كان لانها موقوفة لوجه الله تعالى ومن المعلوم ان الاموال التى تكون دائما فى الزيادة من غير ان يضيع منها شئ تبلغ فى الكثرة اقصى الدرجات ولا يكون لها حد تقف عنده فبموجب الحسابات التى حررت فى المانيا وجد بين ايدى القسوس ما يزيد على نصف اموال الملة وكانت هذه النسبة تختلف باختلاف الممالك ولكن كانت اموال القسوس فى كل محل قد بلغت مبلغا لا مزيد عليه وايضا كانت اراضيهم الواسعة معافاة مما كان مفروضا على املاك اللاييك من الخراج والجبايات ففى بلاد المانيا كان القسيسون معافين من سائر انواع الجرائم وكان اذا طرأت غوارض جسيمة غير المعتادة واعطى القسيسون شيأ للدولة لتستعين به يكون ذلك بمحض تفضلهم واحسانهم ولا حق للحاكم المدنى فى الزامهم بذلك بل ولا فى مجرد التماسه منهم وبسبب هذه الاشياء التى لا يرضاها عاقل كان على اللاييك فى المانيا جميع اثقال الجرائم والمغارم وكان القسوس معافين من ذلك كله ولا يجب عليهم شئ مما لا بد منه فى اعانة الدولة والمدافعة عنها مع انهم كانوا اغنى الناس واكثرهم عقارا واملاكا

مطلب القسوس الذين كانوا بالمانيا كان اغلبهم اجنبيا منها

ومع ان اهالى الجمعية الجرمانية كانوا يتضررون من مزايا القسوس وسعة ثروتهم تقول انه لو كانت تلك المزايا بين ايدى قسوس قاطنين ببلاد المانيا لما تضرروا منها بهذه المثابة وذلك لانهم لو كانوا قاطنين بها لما طغوا وتمردوا لكثرة اموالهم ولما بغوا وجاوزوا الحدود بسبب الحقوق التى كانت ثابتة لهم الان اساقفة رومة كان لهم من مبدء الامر دعوى عريضة لم يصدر مثلها عن النفوس الطماعة وهى انهم كبار رؤساء دين النصرانية وانهم معصومون عن الخطاء والزلل وكانوا يسلكون سبل المخادعة والسياسة من غير ان تفتر لهم همة او تمنعهم العوائق الجمة ويغتنمون كل فرصة لاحت لهم من جهل الاهالى وتتذوم من بدع بعض الملوك واضطرار البعض الآخر فلم يزالوا كذلك حتى توصلوا الى النجاح فى تلك الدعوى وان كانت مخالفة للعقل والمصلحة

العامة

سنة ١٥٢٣

العامة فكان القسوس فى بلاد المانيا مطلق التصرف اكثر من غيرها حيث كانوا يتقون اعظم ايمبراطرتها او يعزلونهم متى شاؤا وكانوا يوقعون الفتنة بينهم وبين وزرائهم ورعاياهم بل واولادهم حتى يقوموا عليهم ويخرجوا عن طاعتهم وفى اثناء هذه الفتن والمنازعات كان البابات لا يغفلون عن توسيع دائرة مزاياهم وكانوا يسلبون من طائفة الاوبيك والامراء اعظم خصوصياتهم وحقوقهم وبالجملة فبلاد المانيا حصل لها غاية المشقة والتعب من شدة ظلم هؤلاء القسوس الاجانب وفرط طمعهم الذى جاوز الحد

مطلب
كان قسوس المانيا ينصبهم البابا

وفى اثناء الفتن والتقلبات التى حصلت بتلك البلاد تغلب بابات رومة على حق اقطاع الاراضى فكان ذلك سببا آخر فى تقوية شوكتهم الدنيوية وازديادها وكان ايمبراطرة المانيا وامراؤها قبل ذلك بزمن طويل يتمتعون بهذا الحق فكانت به سطوتهم ساطعة وايراداتهم واسعة فلما اغتصبه منهم البابات صارت السطوة لهم حتى كان يمكنهم ان يعلوا الايمبراطورية من اتباعهم واشراقاتهم فكنت ترى فى كل اقليم اناسا كثيرين قد تعودوا على عدم الطاعة للايمبراطرة وصاروا ينقادون للكنيسة الرومانية وفى جميع البلدان كانوا يعطون الاقطاعات الواسعة النفيسة للغرباء لا للاهالى فكانت خزائن ممالك اوروبا تنفد فى تزيين ديوان رومة وزخرفته وازداد عتو القسوس وبغيهم حتى ان البدع الكثيرة والاوهام التى كانت تحمل الناس فى تلك الاعصر الجاهلية على احترام القسوس لم تمنع نفور الناس من ظلم القسيسين ومجاوزتهم الحد ودفقد اكثر اهل المانيا الشكاوى وعيل صبرهم حتى خشى البابات ان تكون عاقبة ذلك مشؤومة عليهم فتساهلوا ورضوا بالنزول عن بعض حقوقهم واكتفوا بحق اقطاع الاراضى التى تمكث بدون مالك مدة ستة اشهر من السنة وتركوا ما عدا ذلك للامراء والسادات يتصرفون فيه كيف شاؤا

مطلب
الوسايط التى استعملت لتضييق دائرة شوكة البابات ولم يكن لها ثمرة

ولكن لم يمكث ديوان رومة مدة الا ووجد له وسايط يتخلص بها من هذا

سنة ١٥٢٠

الامر الذى ضاقت به ذرآ ثرة شوكتهم وذلك انه كان ثم عادة قديمة تشكى منها الناس غير مرة وهى ان الپاپا كان له فى كل بلدة بعض اراض مخصوصة لا يقطعها الا هو فبعد ان ضاقت شوكتهم من الجهة السابقة جعلوا تلك العادة مطمح انظارهم وتوسعوا فيها حتى جاوزت حدودها القديمة فجعلوا من جملة ما صدقاتها جميع الاقطاعات التى يملكها الكرديناالات وارباب الوظائف بديوان رومة الذين كان لا يحصى لهم عدد وجميع ما انحل من اقطاعات القسوس الذين يموتون فى مدينة رومة او يموتون بالبعد عنها بمسافة اربعين ميلا سواء كان الميت ذاهبا اليها او آيبا منها وكان يدخل تحتها ايضا جميع الاقطاعات التى تبقى خالية بعد انتقال مالكها الى محل آخر وكذلك اقطاعات اخرى لا حصر لانواعها وبالجملة فالپاپا جاليوس الثانى والپاپا ليون العاشر توسعا فى ذلك بقدر ما امكنهما حتى ان اغلب الاراضى التى اقطعاها لم تكن من جملة ما هو مقرر فى الشروط على وجه الصراحة وتعللا بانهما ابقيا لانفسهما فى الذهن والنية حق الاختصاص بهذه الاقطاعات مع ان حق ابقاء الاختصاص ذهناونية كان وقتئذ لا يعمل به الا فى شأن الاقطاعات التى تكون خالية عن الولى او المالك عند عقد نية الاختصاص ولاجل ان يتخلص الپاپات من ذلك ويكونوا مطلق التصرف فى شأن الاقطاعات كما كانوا اولا جددوا امرا آخر وسموه بالانعامات المترقبة أن تكون محلولة وهو ان يكون لهم الحق فى تعيين من يكون له الاستيلاء على ارض عند خلوها من المالك فبهذه الواسطة صارت الايمبراطورية الالمانية مشحونة بقسوس لا ينقادون الا لديوان رومة ولا يميلون الى حزب غير حزبه بسبب تلك الاقطاعات المترقبة التى لا يكون الحق فيها بالسواء وحرم الامراء ثانيا من اغلب مزاياهم وصارت حقوق امراء اللاييك عرضة للزوال او لا نفع لها

مطلب بيع ديوان رومة للاقطاعات

وبما سلكه القسوس فى هذا الشان من الطرق العجيبة ازداد بغضهم عند الناس وسئمت منهم النفوس وجاوزت اطماعهم ومظالمهم الحدود حتى صار يضرب المثل بديوان رومة فى ذلك اذ كان هذا الديوان يبيع الاقطاعات جهرة على

سنة ١٥٢٠

رؤوس الاشهاد حتى صار التجار يشترون من حررتوقة البابا اراضى الابرشيات الالمانية بجملة ويبيعونها مفرقة فيكسبون فيها مكسبا عظيما وكان الاخيار يتضررون من هذه الفعال التى هى بيع الدين بالدنيا ولا تليق بالاقسة حيث انهم عماد دين النصرانية كما ان اهل الدول وارباب السياسات كانوا يتأسفون كل الاسف على مايعرض للدول من الخسارة بسبب تلك التجارة التى كانت تذهب باموالها الى الدولة الرومانية

مطلب
كان ديوان رومة يستغرق اموال سائر الدول ويحوزها

وبالجملة فالمبالغ التى كان يأخذها ديوان رومة من جميع البلدان التى تحت حكمه كانت جسيمة جدا بحيث لا يستغرب نفور الناس من ضرب مغارم اخرى عليهم زيادة على ذلك وان كانت قليلة جدا مالم تكن ناشئة عن ضرورة ظاهرة جلية وذلك لان كل قسيس اخذ ارضا كان يدفع للبابا ايرادها فى السنة الاولى فكان يتحصل من ذلك مبالغ جسيمة ومقادير عظيمة وزيادة على ذلك كان البابا يطلب دائما من القسوس مبالغ اخرى على سبيل التبرع وكان له العشر فى محصولاتهم متعللا بانه يصرفها فى الحرب مع المسلمين مع ان ذلك لم يكن يخطر له ببال فاذا تأمل الانسان فى تلك الابواب التى كان يأتى منها ايراد ديوان مدينة رومة علم عظم المبالغ والكميات الجسيمة التى كانت تحوزها تلك المدينة

مطلب
مجموع نتائج هذه الاسباب السابقة

هذا ويمكن للانسان ان يستدل بذلك كله على فساد اخلاق القسوس وفرط غناهم وثروتهم وعظم مزاياهم وشوكتهم قبل تظاهر لوتير بنقض دين الكنيسة ويستدل ايضا على ظلم البابات واجحافهم بالنصارى وعلى اعتبار الناس لهم فى اوائل القرن السادس عشر * ولا يخفى انى لم انقل هذه الاشياء المتقدمة عن مؤلفى ذلك العصر الذين كانوا يقدحون فى الكنيسة ويناقشون امورها حتى يتوهم ان ذلك من قبيل المبالغة لما ان هؤلاء المؤلفين كانوا يريدون دمار الكنيسة فبالغوا فى ذمها وتعداد خطاياها ومفاسد احكامها وانما استنبطتها من مواد صحيحة يعتمد عليها فاستخرجتها من دفاتر مشاور الديت الالمانية ومن تقارير شكاواها حيث يوجد فى تلك الدفاتر جميع المظالم التى

سنة ١٥٢٠

كانت تشكى منها الامبراطورية وتطلب ازالتها الاسيما وكانت تلك المظالم مذكورة بعبارات باردة تدل على انها خالية عن المبالغة والاطراء حيث ان عباراتها ليست عبارات المتحامل فاذا علم الانسان ان هذه المشاور مع صولتها ونفوذ كلمتها اذ ذاك كانت تشكى من هذه المظالم وتطلب ازالتها اعتقد ان الاهالى كانوا يشكون اكثر من ذلك وكادت تزهق نفوسهم من ظلم القسوس

مطلب
استعداد الناس وصلاحيتهم لاتباع مذهب لوتير

ولما كانت العقول حينئذ بهذه المثابة وكان الناس يحبون التخلص من اسر ديوان رومة كان لوتير متيقنا النجاح فى مشروعه فبعد أن اضر بهم ظلم هذا الديوان كل الاضرار ومكثوا ازمنا طويلا وهم فى كرب شديد من ظلم القسوس وبغيهم فرحوا كل الفرح بتلك الفرصة التى تنقذهم من هذا الظلم فمن ثم استحسنت الاراء والمذاهب الجديدة وقبلت مع غاية الفرح والسرور وعما قليل انتشرت فى سائر اقاليم المانيا نعم ان حدة لوتير وماسلكه من الطرق فى نشر مذهبه وذمه من لم يتابعه عليه اوجبت له اللوم فى الاعصر التى تهذبت فيها الاخلاق وعدت من المثالب التى تزرى بعرضه ولكن لم تنفر منها النفوس فى عصره بل انشرحت منها الصدور لان الناس وقتئذ كانوا فى كرب عظيم من ظلم البابا وفساد الاخلاق القسيسية التى كان لوتير يريد اصلاحها

فلم تنفر نفوسهم مما ذكره فى مؤلفاته من اساءتهم والقدح فيهم ولا من سخريته واستهزائه بهم حتى كان فى بعض الاحيان يمزج الجد بالهزل لانه فى تلك الاعصر الخشنية كان الناس فى جدالاتهم مع بعضهم لا يتجنبون المسبة والفحش بل كانوا يأتون بالهزل فى كل مقام جليل وكان ذلك من الاسباب الاكيدة التى اعانته على افهام الناس ضلالات البابا ومظالم القسيسين التى نفرت منها القلوب وحملت الناس على التخلى عن حزب الكنيسة

مطلب
اختراع فن الطبع واعانته على تقدم النسخ

وقد انضم الى هذه الاسباب المستمدة من نفس هذا المشروع ومن مقتضيات الاحوال اذ ذاك اسباب اخرى اجنبية استفاد منها لوتير فوائد جليلة

لم تتيسر لمن سبقه فى التصدى لتخطئة الكنيسة الرومانية فن اقوى هذه الاسباب الاجنبية واعظمها نفعا اختراع فن الطبع الذى كان موجودا من قبله بنصف قرن وذلك ان هذا الفن النفيس كان نفعه عميما بحيث سهل به اكتساب العلوم وانتشارها على وجه عجيب فانتشرت به فى اقرب وقت مؤلفات لوتير ببلاد الافرنج باسرها ولولا هذا الفن لما وصلت هذه المؤلفات الى البلاد البعيدة الامع غاية البطئ وربما كان لا يترتب عليها ثمرة اذ كانت المؤلفات لا يقرؤها الا العلماء والاغنياء لانه قبل اختراع فن الطبع كان لا يتيسر لغير الاغنياء تحصيل الكتب لغلوها وندورتها واما مؤلفات لوتير فكثرت بايدى الناس وقرأها الغنى والفقير والجليل والحقير وكان لوتير يعرض عليهم مذهبه بصورة الاستفهام عن آرائهم هل يوافقون عليه ام لا فاغتروا بكونه جعلهم حكما بينه وبين اخصامه وبحثوا فى اصول الدين واحكام الكنيسة ورفضوا ما لم تستحسنه عقولهم وانما كانوا مكرهين على اتباعه واعتقاده من غير ان يعرفوا الصلة ولا كيفية استمداده من الدين

مطلب
اعانة علم الاداب على تقدم النسخ

وقد حصل فى ذلك الزمن ايضا احياء علم الآداب فكان من الاسباب الطارئة التى اعانت لوتير كل الاعانة على تقدم مذهبه وذلك ان الناس اشتغلوا بمطالعة كتب قدماء مصنفى اليونانيين واللاطينيين فعرفوا منها اللطائف التى تؤدب الانسان وتهذب ذوقه وطبعه واستيقظت بذلك العقول وخرجت من غياهب الغفلة بعد أن مكثت فيها عدة قرون فتربى الناس حينئذ على حين غفلة ملكة التفكر والتعقل التى كانت فقدت منهم ولما فتحت لهم تلك الابواب واتضحت لهم السبل اخذت عقولهم تجول فى كل مادة من غير أن تخشى الجولان فيها بحيث ظهرت لهم معالمها واتضحت لهم مسالكها فصاروا لا يخشون التمسك بالمذهب الجديد حيث كانت الافكار تزن كل مادة وتعرف غثها من سمينها وتميز هجانها من هجينها وصار الناس يرغبون كل الرغبة فى كل أمر جديد ويعتبرون فضل مجدده فما بالك اذا كان فى مادة شريفة كمادة الدين فلذا لم يفزعوا من لوتير حين تجاسر على كشف الغطاء عن ضلالات الكنيسة

الباطلة وترهاتها العاطلة بل حصل لهم غاية السرور من جسارته واعانوه على تميم مقصده ثم لم يكن قلم لوتير في التأليف سيالا ولا عباراته عذبة منسجمة الا انه بذل جهده في احياء الاداب القديمة وتوسيع دائرتها فانه لما كان يعرف ان الانسان لا يمكنه كشف اسرار الكتاب المقدس ولا الوقوف على دقائقه الا بعد التمكن من العلوم الادبية تفرغ بكليته لمعرفة اللغة اليونانية والعبرانية حتى صار له في هاتين اللغتين الحظ الاوفر وقد نجح عدة من تلامذته في تلك العلوم نجاحا عظيما منهم الشهير ميكختون ثم ان جهلة الرهبان الذين توقفوا في مذهب لوتير وتصدوا لابطاله وتخطئته بذلوا جهدهم في منع دخول العلوم الادبية بلاد المانيا حيث قالوا ان ما هو واقع من قبول الناس لمذهب لوتير انما هو من جملة ما ترتب على تقدم تلك العلوم فمن ثم كانت هي ومذهب لوتير معتبرين كانهما امران متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر وكان لهما في كل بلدة مساعد ومعاند وبالجملة فبمعرفة الآداب فاق الناسخون اخصامهم حتى كانوا يفحمونهم ويلزمونهم الحجة في كل مادة يجادلونهم فيها وذلك ان الناسخين كان لهم سعة اطلاع ومزيد ثبات وتمكن وذهن ثاقب له اقتدار على الجولان في المواد العويصة وكانت عبارات تأليفهم تأخذ بمجامع القلوب لرقتها وعذوبتها واشتمالها على الملح الادبية والنكات المستحسنة فكان يسهل عليهم افحام الرهبان حيث كانوا وقتئذ جاهلين لا معرفة لهم بعلم الميزان فلا يحسنون اقامة برهان ولا تركيب قياس بل كانوا يأتون بعبارات ركيكة مستهجنة تمجها الاسماع فلم يكن لهم اقتدار على تعضيد ضلالات الكنيسة التي لم يمكن لمن تصدى من نجباء المتأخرين لتأييدها ان يستروا عيوبها مع انهم اعظم منهم علما وحزما

فلما انتشرت العلوم الادبية في بلاد اوروبا وانسلت العقول من اوحال الغفلة صار الناس يفحصون عن كل شيء ويرغبون في معرفة اصوله وفروعه فاعان ذلك كثيرا على تقدم النسخ ونجاحه وتوسيع دائرته حتى أن عدة اناس كانوا قبل ذلك لا يرغبون في نجاح لوتير اعانوه على مشروعه اتم الاعانة وحسنوا

سنة ١٥٢٠

الناس قبول مذهبه واتباعه بل تظهر لاغلب ذوى العقول الذين اجتهدوا في العلوم الادبية القديمة في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر فساد عدة من اصول الكنيسة وقواعدها فعرفوا ان ما اقامه الرهبان والقسوس على تأييد تلك القواعد لا يقوم دليلا على ذلك مع انه لم يكن لهم غرض في نسخ دين الكنيسة

فصار هؤلاء العلماء يقدحون في عدة من احكام الكنيسة ويخطئون كثيرا من اصولها ويحتقرون جهلة القسوس الذين كانوا يعضدونها وآل امرهم أن صاروا يسخرون من تلك الاصول التي هي مبنية على الخطاء والضلال ويشنعون بها على الكنيسة فحسن تشنيعهم هذا لعقول الناس ثم لوتير وقدحه في الكنيسة واضاع من قلوبهم احترامهم لاخصام لوتير وقد عم ذلك سائر الاقطار لاسيما اقطار بلاد المانيا فانه لما شرع اهلها في احياء علوم الآداب القديمة وكان قسوسها اجهل من قسوس البلاد الاخرى تصدوا لمنع هذا المقصود وبذلوا في تعطيله غاية جهدهم غيران المتولعين باحياء تلك العلوم جدوا في ايذاء هؤلاء القسوس وذمهم والوقوع في اعراضهم بكل كريهة فطالما شنع الشهير روشلين والماهر هوتان وغيرهما ممن احيوا الآداب في بلاد المانيا على الكنيسة الرومانية وتجاوزوا الحد في المفاسد وبالغوا في ذلك حتى ان مؤلفاتهم لم تكن في هذا المعنى دون مؤلفات لوتير ومما ترتب على علوم الآداب ايضا ان الشهير ايراسم كان يقذف الكنيسة احيانا ويبين ضلالاتها ويطرى في ذم جهالة القسوس ورذائلهم وكان له في اوائل القرن السادس عشر شهرة عظيمة وكلمة نافذة ببلاد اوروبا فلذا كان الناس كافة يرغبون في مؤلفاته وتنشرح صدورهم بمطالعتها حتى ان ما ترتب عليها من الثمرات حرى بالذكر هنا حيث انه من اعظم الاسباب الاكيدة التي نجح بها لوتير فنقول ان ايراسم اعد من مبدء امره للدخول في الكنيسة فدارس من صغره علوم القسوس حتى فاق احبار عصره في الفحص عن اسرار العلوم التيولوجيكية اى علوم اللاهوت

واستكشف بذهنه الثاقب وفهمه الصائب واتساع دائرة عقله مقدارا بما من ضلالات الكنيسة الرومانية وبدعها فى المعاملات والعبادات وانكر بعض هذه الضلالات بادلة قاطعة البرهان حلل فصاحته الساطعة وشنع على البعض الآخر ورماه بنبال الاستهزاء والذم وكان يحسن الرمى فى هذا المعنى حتى اثر قوله فى قلوب الناس تأثيرا قويا وبالجملة فقد عثر هذا الحبر الشهير على العقائد الفاسدة والعوايد الكاسدة التى كانت فى كنيسة رومة وشرع لوتير فى محوها ونسخها وشنع عليها ذلك الماهر كل التشنيع قبل لوتير ولم يفته منها الا القليل النادر فلما اخذ لوتير فى القدح فى تلك الكنيسة وافساد قواعدها اجابه ايراسم بالتهليل وسعى فى تجديد المحبة بينه وبين عدة من اصحاب لوتير واحزابه وبذل كل جهده فى ذم اخصامه وقمع اعدائه واستحسن آرائه على رؤس الاشهاد واعانه على قهر الاحبار الذين كانوا يدرسون بالمدارس العلوم التيولوجيكية وشنع على القسوس الذين كانوا يعظون الناس ويحثونهم على اتباع مذهب الكنيسة الذى يوجب المضرة والمعرة واعانه ايضا تمام الاعانة على استمالة عقول الناس الى مطالعة الانجيل واتخاذه قدوة يرشدهم الى حقيقة دين النصرانية وتحريضهم ان لا يعملوا الا بما نص عليه من العقائد والاحكام

ولكن كان ثم عدة اسباب منعت ايراسم عن اقتفاء اثر لوتير فى النسخ وتلك الاسباب هى انه لم يكن عنده جسارة حتى يخاطر بنفسه مثل لوتير بل كان شديد الخوف والفزع مجردا عن ثبات الجنان الذى به يتأتى للانسان ان يقتحم اخطار مثل هذا المشروع الجسيم وهو نسخ شئ من قواعد هذا الدين الذى كان متمكنا من قلوب الناس ومتسلطنا عليها حتى صار لامنائه اعنى القسوس سلطنة كبيرة على جميع البشر وصار اجلالهم من الامور الواجبة على كل انسان لاسيما وكان ايراسم المذكور يطيع الاكابر وارباب المناصب ولا يرد لهم امرا وذلك لاسباب منها انه كان يخشى ان يجردوه عما انعموا به عليه من المرتبات والمزايا ومنها انه كان يحب دوام الصلح والراحة ويبغض التعكير

والفتن

والفتن فكان لا يرضى ان يتصدّى لنقض دين الكنيسة الرومانية لعلمه بما يترتب عليه من الشقاق بل كان يأمل انه مع الرفق والملاطفة وطول الزمن يمكن ازالة مظالم الكنيسة وضلالاتها ومحو مفاسدها شيأ فشيأ وبالجملة فكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تحمله على العدول عما صدر منه فى مبدء الامر من التشنيع على الكنيسة حتى صار اشبه بمصلح بين لوتير واخصامه لا ظهيرله يأخذ بناصره فيما شرع فيه من النسخ لكن وان عدل ايراسم عن مذهبه الاول وصار من جملة من يلوم لوتير على جسارته وحميته حتى لزمه فيما بعد ان يؤلف كتابا اشنع فيه على لوتير الا انه كان فى الواقع سليفه وظهيره فى نزاله فى ميدان المنازعة مع كنيسة رومة كما انه كان اول من فتح له ابواب هذا الحرب ومهد له سبله فهو الذى غرس اول زرع و لوتير عاناه واعتنى به حتى طابت ثمرته فجناها فسخرية ايراسم من الكنيسة ونكاته اللطيفة فى التشنيع عليها هى التى مهدت السبل للوتير فى ذمها والتشنيع عليها على رؤوس الاشهاد كما يشهد بذلك احزاب الكنيسة الرومانية ممن كان معاصرا لايراسم وذلك لا يخفى على من قرأ تاريخ ذلك العصر وعرفه حق المعرفة ولا يخفى انى فيما ذكرته من الاحوال التى اعانت لوتير وحسنت مذهبه للعقول واعيت اخصامه واعداءه لم اتعرض لذكر شئ من المناقشات فى شأن قواعد الكنيسة الرومانية ولم أبرهن على ان هذه القواعد مخالفة لفحوى دين النصرانية وانها لا اصل لها فى العقل ولا فى الكتاب المقدس بل ولا فى رسوم الكنيسة بحسب الاصل بل تركت ذلك لمؤرخى القسيسين لانه من خصوصياتهم ولكن اذا نظر الانسان الى هذه الاشياء المقتبسة من الدين ونظر ايضا الى الاسباب السياسية التى كانت موجودة وقتئذ لا ينبغى له ان يستغرب ما نشأ عن هذين الامرين على حين غفلة من التأثير فى عقول الناس وذلك ان عصريى لوتير كانوا على شدة القرب من محل الواقعة فلم يفحصوا اسبابها مع التؤدة والتأنى لما داخلهم من مزيد التعجب من امرها وسرعة نجاحها او كان لهم فيها مصلحة وغرض فلم يمكنهم ان يقفوا على حقيقة تلك الاسباب

سنة ١٥٢١ والمكل على بعضهم بسرعة انتشار مذهب لوتير فعد ذلك من الاتفاقات العجيبة التي صارت بها عقول الناس مستعدة لقبول هذا المذهب والحق ان نجاح لوتير في ذلك انما نشأ عن عدة اسباب معلومة اعانته حتى الاعانة على تتميم مقصده هذا وتأمل ان بما ذكرناه في بيان هذه الحادثة الغريبة المهمة ومعرفة اسبابها الايعتبر من باب الاقتضاب المجرد عن الفائدة ولنرجع الى موضوع تاريخنا الاصلي فنقول

مطلب مذاكرة مشورة الديت بمدينة وورمس سنة ١٥٢١

لما انعقدت مشورة الديت بمدينة وورمس طالت مدة المذاكرة كما هو العادة في المشاور العمومية من البطئ والتدقيق ومكث اربابها مدة طويلة في وضع قوانين داخلية لضبط الايمبراطورية وربطها واثبتوا فيها للمجلس الايمبراطوري ان تكون له الكلمة العليا في الحكم وان يكون المرجع اليه وجعلوا صورة مستحسنة لاقامة الدعاوى به حيث ابدلوا طريقتها الاولى بطريقة اخرى احكم منها واتقن وجددوا مجلسا يقال له مجلس النيابة او المعاونة اعتنوا لمساعدة الامير فرديتند على تدبير امور الايمبراطورية مدة غيبة اخيه الايمبراطور شرلكان لانه لكثرة ممالكه ومصالحه كان لا يمكنه ان يستمر على الاقامة بالمانيا ثم تفاوضوا في شأن الدين وكان هنا لك اسباب تدعو الايمبراطور شرلكان الى حماية لوتير واعانته على تتميم مقصده ولو باطنا لانه كان له في المانيا اراض واملاك كثيرة ولو لم يكن له من الالتزامات سوى الخفالك الموجودة بها ولا من التيجان سوى تاج الايمبراطورية لكان ذلك كافيا في حمله على اعانة لوتير وحمايته حيث انه كان يدافع عن الخصوصيات التي مكث ايمبراطرة المانيا يدافعون عنها من بابات رومة زمنا طويلا لاخيرا انه لما كان الملك فرنسيس ملك فرانسا يسعى دائما في اضراره وتعطيل مصالحه الجأته الضرورة ان يسلك في مقاصده مسلكا اوسع مما يسلكه امير من امراء المانيا فلم يجسر على اعانة لوتير وحمايته لما رأى ان ذلك يضر بمصالحه في غير بلاد المانيا ورأى انه لابد له من استمالة قلب البابا والتودد اليه فأساء لوتير واغلظ عليه ظنا ان ذلك اعظم واسطة

سنة ١٥٢١ في استمالة البابا الى حزبه ثم كان لا يبعد ان يسلم لقسوس المانيا فيما طلبوه من ارباب مشورة الديت من الحكم بقتل لوتير على الفور حيث ان البابا طرده وحكم عليه بالحرمان وعده من الفرق المبتدعة المخذولين المطرودين عن باب الكنيسة المحرومين من نعمها الا انه لما ظهر لارباب مشورة الديت ان هذا من محض الظلم والتعدى انحط رأيهم على ان يدعوا لوتير اليهم ليسألوه هل هو باق الى الآن على آرائه واعتقاداته التى اوجبت له غضب الكنيسة او رجع عنها ومحاها اجتناء بالتوبة فاعطاه الايمبراطور شرلكان تذكرة الطريق وكذلك جميع الامرآء الذين يلزمه ان يمر ببلادهم عند ذهابه الى المشورة المذكورة وكتب له شرلكان ان يأتى الى مشورة الديت بدون تراخ ولا يخشى اساءة احد ابدا فبمجرد وصول الامر الى لوتير تأهب للسفر ولم يتوقف اصلا وسافر ومعه رسول الايمبراطور وتذكرة الطريق حتى وصل الى مدينة وورمس التى كانت منعقدة بها الشورى وكان كل من قابله في الطريق من احبابه يتذكر ما وقع للعالم حناهوس وكان مثل لوتير في الذنب وكان معه ايضا تذكرة طريق من الايمبراطور فلم تنفعه فصاروا يحذرونه وينصحونه ان لا يذهب الى مشورة الديت ويلقى بنفسه الى التهلكة لكنه كان ثابت الجنان فاسكتهم بقوله انى مطلوب الى وورمس وها انا ذاهب اليها باسم الله فلا ابالى ولو تحزب على من هؤلاء الشياطين ما يبلغ قدره عدد الحجر والحصى

مطلب
الزام لوتير بالحضور الى مشورة الديت

في ٦ من شهر ادار

ولما دخل مدينة وورمس تلقاه اهلها بالاكرام والتبجيل بحيث لو كان غرضه من التشنيع على الكنيسة مجرد التفاخر بين الناس وحب المحمدة والشهرة لكان ما حصل له في هذه المدينة كافيا في جزائه على سعيه واجتهاده وذلك انه احدق به من الناس المتشوقين لرؤيته اكثر ممن اجتمع منهم حول الايمبراطور شرلكان حين دخوله تلك المدينة مع الموكب والاحتفال وكان يتردد اليه الناس كثيرا حتى كان المحل الذى نزل به يمتلئ كل يوم من الامرآء والاعيان واحسنوا معاملته واحترموه احترام من له اقتدار على

مطلب
دخوله بمدينة وورمس

سنة ١٥٢١

الخلم الخصم والزامه الحجة ولا شك ان مثل هذا الاحترام من اولى الفضل العظام اشرف وافخر للانسان مما يستوجبه بعلو مقامه وشرف منصبه او بحسبه ونسبه لما انه يكون صادرا عن صدق نية وخلوص طوية ولما حضر لوتير فى مشورة الديت سلك مع اربابها مسلك الحشمة والادب واظهر فيها مايدل على ثبات جنانه وعلو شانه حيث اعترف انه تجاوز فى مؤلفاته الحد والطرى فى تشنيعه على الكنيسة لكنه قال لا اتحول عن آرائى ولا ارجع عن مذهبى الا اذا اقيمت لى ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على بطلانها وخطائها وابى ان يقبل من البراهين الا ما كان مستنبطا من كلام الله ونصوص الانجيل

فلما لم ينفع معه التهديد ولا التحذير وابى ان يرجع عن مقصده عرض بعض القسوس على ارباب الديت ان يتأسوا بجمعية قونستنسة القسيسية ويبادروا بقتل هذا المبتدع ويريحوا منه الكنيسة قبل ان يفر من ايديهم فلم يسمع ارباب المشورة قول هذا البعض لما رأوا ان ذلك يخل بمروءة اهل المانيا ويكسبهم العار حيث كان معه منهم ورقة الامان وكان الامبراطور شرلكان ايضا لا يحب ان يدنس مبادى حكمه بمثل هذه الفعلة الذميمة

فى ٢٦ من شهر نيسان

خلوا سبيله وانطلق آمنا مطمئنا الا انه بعد ارتحاله من مدينة وورمس ببعض ايام صدر امر باسم الامبراطور ومشورة الديت ان لوتير قد استحق القتل وهو مذموم مخذول يجب تجريده عن سائر المزايا التى يتمتع بها بوصف كونه من رعايا الامبراطورية ولا يجوز لاحد من الامراء ان يدخله فى حماه بل يجب عليهم ان يقبضوا عليه بعد فراغ الاجل المسمى فى ورقة الامان التى معه ولكن لم يجر العمل على مقتضى هذا الامر وذلك لسببين احدهما ان الامبراطور عرضت له اشغال كثيرة لما حصل اذ ذاك من التعكيرات والفتن فى اسبانيا والحروب التى وقعت فى ايطاليا ومملكة البلاد الواطية وثانيهما هو ان الامير فريدريق منتخب سكس كان يحب لوتير محبة صادقة ويبذل جهده فى محاماته والذب عنه فتحيل فى انقاذه من ذلك

مطلب
الامر الصادر بالقبض على لوتير

مطلب
نبض على لوتير واخفائه ن اعدائه فى وارتبورغ

باحتراسات مبنية على الحزم وسداد الرأى وذلك انه لوتير عند رجوعه سنة ١٥٢١
من مدينة وورمس مر بقرب مدينة ألتنستين فى اقليم تورنجه
نخرج عليه من اجمة هناك جماعة من الخيالة متنكرة فاحتاطت به وبجماعته
وكان فريدريق هو الذى اخفاهم بهذا المحل لذلك الغرض فبعد ان صرف
الخيالة من كان مع لوتير اخذوه واتوا به الى وارتنبورغ وهى قلعة قريبة
من الاجمة التى قبضوا عليه فيها فامر فريدريق حالا بان يعطى له
كل ما يحتاج اليه وان يجاب فى كل ما طلبه الا انهم ضيقوا عليه باخفائه
فى محل مجهول من هذا القصر لئلا يطلع عليه احد ومكث على تلك الحالة حتى
تغيرت احوال اوروبا وخمدت نار حقد اعدائه وكانت مدة مكثه فى هذا المحل
تسعة اشهر وكان يسميه البتموس وفى هذه التسمية اشارة لطيفة لان البتموس
اسم الجزيرة التى نفى فيها الحوارى مارى يوحنا ولم يزل فى تلك المدة يعضد
مذهبه ويؤيد آراءه ويبرهن على بطلان مذهب اخصامه مع الجدية والشدة
التى كان عليها قبل ذلك وكتب فى هذا المعنى عدة تآليف ونشرها
بين الناس فاحيت ميت عزم اصحابه واعادت لهم همتهم بعد فتورها لغيبته
عن اعينهم

ولم يزل مذهبه فى عزلته آخذا فى التقدم والانتشار حتى تمكن من عقول مطلب تقدم مذهبه
الناس فى اغلب مدائن سكس وفى ذلك الزمن تقوت قلوب قسوس الطائفة
الاوغوسطينية الذين كانوا بمدينة ويتانبرغ بسبب قبول مذهب لوتير
فى الاونيورسيتة (مجمع العلماء ومنبع الاحبار) وتصدى فريدريق لحمايته
لانه كان ظهيره ونصيره فى الباطن وشرعوا فى احداث امر جديد فى كيفية
العبادة فأبطلوا اقامة صلوات القداس الصغير واشركوا طائفة اللايك
فى كل من نوعى القداس الكبير والصغير وكان لوتير يتسلى فى سجنه بما يبلغه
من الاخبار فى شأن اجتهاد اصحابه ونجاحهم وتقدم مذهبه فى وطنه الا انه
حصل فى اثناء ذلك حادثتان نغصتا عليه عيشه حيث رأى انهما مانعتان من
انتشار مذهبه فى مملكتى فرانسا وانكلترة اللتين هما اعظم ممالك

سنة ١٥٢١

اوروبا شوكة وصولة الاولى هي ان جمعية العلوم بباريس حكمت ببطلان مذهبه وصدر منها فرمان في هذا الشان عليه الخاص والعام وكانت هذه الجمعية المسماة الاونيورسيتة اقدم واعظم مجامع العلماء والاحبار التي كانت زاهية زاهرة اذ ذاك ببلاد الافرنج والحادثة الثانية هي ان الملك هنري الثامن ملك الانكليز صنف كتابا بصدد الرد على كتاب لوتير الذي الفه في اسر بابل وكان والد هذا الملك الشاب كثير الظن والوسوسة يخشى ان يقف ولده على مصالح الدولة فيغدر به فشغله عن ذلك بتعلم الآداب فلما تولى على انكلترة لم يزل باقيا على الرغبة في المطالعة والاجتهاد اكثر مما كان يظن فيه بالنظر لما فيه من الحدة الغريزية والميل الى الشهوات النفسانية وكان يحب ان يكون له فخر في كل شيء ويحب الكنيسة الرومانية حبا جما لا سيما وكان في غيظ شديد من لوتير على ما وقع منه من القدح والذم في حق المؤلف توماس داكين وكان هنري يحبه كثيرا فرأى انه لا يكفيه ان يستعمل شوكته الملوكية في ابطال مذهب لوتير وتفنيد آرائه واقواله بل عزم على محاربته ببواتر البراهين السكولاستيكية وصوارم الحجج والادلة التيولوجيكية فنشر في هذا المعنى مؤلفا سماه بالاسرار السبعة وقد صار الآن نسيا منسيا كغيره من التآليف الجدلية التي تزول بزوال مقتضياتها وهو مع ذلك لا تنكر دقته بل تشهد لمؤلفه بالفضل في المحاورات والمجادلات وقد حمل التملق ندماءه وخاصته على الاطراء والمبالغة في مدح هذا الكتاب حتى وصفوه بانه جمع من درر المعارف والعلوم ما يقضي بتبحر الملك هنري الثامن وسعة اطلاعه وفضله على غيره من المؤلفين في العلوم الادبية كما فضلهم في الرتبة والمقام وقدم الكتاب المذكور للبابا في احتفال عظيم حضره الكردينالات وغيرهم فتكلم البابا في شأن هذا الكتاب مع الاحترام التام حتى كأنه يتكلم في شأن كتاب صادر عن الهام الهي او فيض رباني ولقب مؤلفه بحامي حمى الدين ليريه ان الكنيسة تثني عليه وتشكره على سعيه المبرور وهو مدافعته عنها ولكن لم يثبت هذا اللقب

مطلب
الامر الصادر من اونيورسيتة باريس ببطلان مذهب لوتير

مطلب
صنف الملك هنري الثامن ملك الانكليز تأليفا يفسد وينقض به مذهب لوتير

سنة ١٥٢١

لهنرى الثامن * وصار طو يلا فى عقول من لقبوه به بل بقى لخلفائه وان تخلفوا وعدلوا عن العقائد التى استحق هنرى الثامن بتأييدها وتعضيدها ان يلقب بهذا اللقب ولما كان لوتير لا يخشى باس جمعية احبار باريس ولا بطش ملك انكلترة بادر بنشر ملحوظات تتضمن الرد على الفرمان الصادر من الجمعية المذكورة وعلى كتاب هنرى وقد سلك فى عباراتها مسلك الخشونة والقدح حتى كانه انما كان يرد على احقر اخصامه واصغرهم ولم تنفر نفوس اهل ذلك العصر من جراءته ووقاحته فى هذا الشان بل عدت ذلك برهانا جديدا على ثبات جنانه ولما كان ابطال هذا الميدان كلهم مشهورين ومتمازين كانت مجادلاتهم مطمح نظر الخاص والعام وكانت عقول الافرنج اذ ذاك قد تعودت على الابداع والاختراع وكانت براهين اصحاب المذاهب الجديدة اكيدة جلية لا تقبل ردا حتى لم تتمكن القسوس ولا الملوك من نقضها بل كان يظهر لها كل يوم انصار واحزاب حتى فى مملكتى فرانسا و انكلترة

مطلب
رد لوتير

وكان الامبراطور شرلكان يود كثيرا ان يمنع تقدم مذهب لوتير الا انه مدة انعقاد مشورة الديت بمدينة وورمس كان مشغولا بامور اخرى اهم من امر لوتير تستدعى مزيد الالتفات اليها فلم يأل جهدا فى تدبيرها وذلك ان الحرب كان قريب الوقوع بينه وبين فرنسيس فى مملكة نوار والبلاد الواطية وبلاد ايطاليا فكان يلزمه ان يسلك سبل النشاط والسياسة ليمنع وقوع هذا الحرب بالكلية او يحترس بما ينقذه من اخطاره ان لم يمكنه منعه لكن كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تلزم الامبراطور بترجيح الامر الاول وهو منع وقوع الحرب لان بلاد اسبانيا كانت حينئذ فريسة للفتن والحروب الداخلية ولم يكن له فى ايطاليا حليف يثق به ويعول عليه وكان رعاياه فى البلاد الواطية يخافون من معاداة الفرنساوية لما حصل لهم قبل ذلك غير مرة من الضنك والكساد فى التجارة بسبب معاداتهم لهم وزيادة على ذلك كان الوزير شيورة مدة وزارته يبذل غاية جهده فى ابقاء الصلح بين الامبراطور والملك فرنسيس فبهذه الاسباب لم يجل الامبراطور شرلكان

مطلب
حالة المصالح بين شرلكان والملك فرنسيس الاول

سنة ١٥٢٤

باشهار الحروب بل كان يحاول ابقاء الصلح بينه وبين الفرنساوية الا ان الملك فرنسيس ووزراءه كانوا لا يميلون الى الصلح لان فرنسيس كان يعلم ان الصلح لا يمكن دوامه بينه وبين الايمبراطور وانه لا يمكن التأليف بين قلوبهما لاختلاف اغراضهما ولمعاصرتهما وشدة طمعهما وكان له عدة امور يطمع بها فى الظهور على خصمه اذا فاجأه بالهجوم قبل ان يستعد للمدافعة والمقاومة وهى ان مملكة فرانسا كانت وقتئذ ملتئمة الاجزاء لا منافسة بين اهلها خالية عن الفتن الداخلية والحروب الاهلية وكان الملك فيها يكاد ان يكون مطلق التصرف وكان اهلها يميلون الى الحرب ويحبون ملوكهم حبا جما ولا شك انه بهذه المثابة كان لها اقتدار اعظم من دول الايمبراطور شرلكان نعم ان دول الايمبراطور كانت اوسع من مملكة فرانسا الا انها كانت فى شقاق لا ينقطع وفتن لا تمتنع فكان بعضها يعصى على الوزراء وكانت شوكة الايمبراطور فيها اضعف من شوكة خصمه فرنسيس فى دوله

مطلب انضمام هنرى الثامن ملك انكلترة للايمبراطور

واما الملوك الذين كان لهم اقتدار على تسكين نيران هذا الحرب او على اطفائها بالكلية فمنهم من اهمل فى ذلك ومنهم من قواها واوجد فى اضرامها وكان الملك هنرى الثامن يظهر انه يريد الاصلاح بينهما حتى اتخذاه حكما يعرضان عليه جميع امورهما ومع ذلك فلم يكن خليا عن الاغراض مع ان ذلك لازم الحكم وذلك ان وزيره ولسى بخداعه ومكره اوجب بغضته لملك فرانسا فكان هنرى يضمر سرا نيران الشقاق التى كان يلزمه اطفاؤها وكان مصمما على ضم الجيوش الانكليزية الى جيوش الايمبراطور لقتال الفرنساوية وانما كان ينتظر لذلك فرصة او سببا مقبولا يتعلل به ويستند اليه

مطلب تردد ليون بين الحزبين

واما البابا ليون فكان سعيه فى ايقاع الفشل بين الايمبراطور والملك فرنسيس الاول على وجه اظهر واقوى تأثيرا مما سلكه الملك هنرى الثامن مع ان الواجب عليه بالنظر لكونه ابا النصارى كافة وبالنظر لمصالحه الخصوصية حيث انه ملك ايطاليا ان يكون محافظا على الامن العام

وان

وان يتجنب كل ما يترتب عليه فساد المذهب السياسي الذى لم يمكن نشره سنة ١٥٢١
فى ايطاليا الا بعد المشاق والتعب الشديد وسفكت من اجله دماء كثيرة
وقد ادرك من مبدء الامر انه لا يليق به الا اتباع هذا السبيل فبمجرد استوآء
شرلكان على الكرسي الامبراطوري صمم هذا البابا على ان يكون حكما بينه
وبين خصمه فرنسيس وان يداهن كلا منهما على حدته من غير ان يجدد معه
علائق الفة اكيدة ولو استمر البابا ليون على سلوك هذا الطريق لامكنه ان
ينقذ بلاد اوروبا من المصائب التى كان يخشى منها عليها الا انه كان جسورا
طماعا وكان فى عنفوان شبابه فكان يريد أن يشهر ايامه بواقعة مهمة جسيمة
لاسيما وقد كانت أخذت منه حينئذ دوقية برمه ودوقية بلزنسه فكان
جزعا قلقا يود أن يتطهر من درن الخزى والعار الذى لحقه بسبب اخذ هاتين
الدوقيتين منه وكان فى حنق شديد من كونه يرى الاجانب يأتون من خلف
جبال البه ويحكمون بلاد ايطاليا حتى ان الايطاليين اقتداء
باهل جمهورية قدماء الرومانيين كانوا يسمون هؤلاء المتغلبين باسم المتبربرين
وكان البابا يؤمل انه بمساعدته لاحد الملكين المتقدمين اعنى شرلكان
والملك فرنسيس على تجريد الآخر من البلاد التى يملكها فى ايطاليا
يمكنه ان يتوصل فيما بعد الى طرد الغالب من بلاده ويثبت له مثل البابا
جاليوس الثانى الفخر بكونه انقذ بلاد ايطاليا من الرق والاستعباد واعاد
لها السعادة التى كانت تتمتع بها قبل اغارة الملك كرلوس الثامن حين كانت
كل دولة يحكمها ملك من اهلها وتعمل بشرآئعها وقوانينها التى رتبتها لنفسها
ولم تكن دخلت تحت حكم الاجانب ومع ان هذا الامل كان من قبيل الهوس
والتسولات النفسية التى لا طائل تحتها وافقه عليه اصحاب العقول والنهى
والطمع من الايطاليين حتى مكثوا معظم القرن السادس عشر وهم يجعلون
هذا المقصد مطمح نظرهم فى كل مشروع هموا بتتميمه وتنجيزه فكانوا يعللون
انفسهم بالامانى والاباطيل ويطمعون انهم لاتقانهم فن السياسة والتدبير
والخداع والمكر يمكنهم ان يغلبوا اعدآءهم المتبربرين وان كانوا اكثر منهم قوة

سنة ١٥٢١

والشجاعة واغتر ليون ايضا بهذه الامانى حتى انه وان كان يميل بطبعه الى الصلح والرفاهية والتمتع بالراحة بادر الى تعكير اوروبا واوقع نفسه فى حرب خطر مع عزم كبير يكاد يكون مساويا لعزم جاليوس الثانى الذى كان ذا طيش وحدة لا تفتر له همة من الحرب

ولكن كان ليون محبوا بين ان يكون مع من شاء من هذين الملكين وينضم الى حزبه وكان كل منهما يرغب فى استعطافه واستمالته اليه ويسعى فى ذلك بجميع وسعه وطاقته فمكث مدة وهو يتردد بين الجانبين ثم عقد معاهدة مع الملك فرنسيس كان الغرض منها اخذ مملكة نابلى واقتسامها وكانت هذه المملكة بأيدى الايمبراطور شرلكان والظاهر ان البابا لما كان يعهده فى الملك فرنسيس من النشاط والمهارة والجسارة اعتقد انه ان ساعده برعاياه الايطاليين الذين هم موصوفون بتلك الاوصاف يظفر بالايمبراطور شرلكان لبطئ مشاورة فى بت الامور وكثرة ترددها وبذلك يسهل عليه ان يتغلب على نابلى لانها منعزلة من ممالك الايمبراطور بعيدة عنها رديئة التحصين لا تستطيع المدافعة عن نفسها فكانت دائما عرضة لان تكون غنيمة لمن شن الغارة عليها ولكن عما قليل تخلى هذا البابا عن حزب فرنسيس واخذ يتداول مع الايمبراطور سرا ولا يعلم سبب ذلك هل هو كون ملك فرانسا ظهر منه ما يدل على كونه غير واثق بالبابا فخاب امله فيه ورأى ان معاهدته معه لا تجديه نفعا اوانه من مبدء الامر لم يعقد معه هذه المعاهدة الا ليتوصل بها الى التمكن من المداولة مع الايمبراطور شرلكان اوانه رأى فيما بعد ان معاهدته مع الايمبراطور اوفق به من المعاهدة مع فرنسيس اوانه احب الايمبراطور ومال اليه بسبب انه شرف الكنيسة بعقابه لوتير ومنع الناس عن مطالعة كتبه

مطلب
المشارطة المنعقدة بين البابا والايمبراطور

هذا وكان الامير حنا منويل نديم الملك فيليبش ابى شرلكان قد اخرج من السجن بعد موت الملك فرديننذ وكان صاحب سياسة وحزم حتى انه افسد على الملك فرديننذ جميع ما كان يدبره من المقاصد والامور السياسية

سنة ١٥٢١ م

فارسله الامبراطور شرلكان الى ديوان رومة لما كان يعلم انه لا احد اعظم منه اقتدارا على استعطاف البابا واستمالته الى حزبه ففوّض له امر المداولة مع البابا واخفى هذا الخبر عن الامير شيوره لانه كان يحاول منع وقوع الحرب بين الامبراطور ومملكة فرانسا فلو علم هذه المداولة لافسدها وصارت سدى ولذلك انعقدت المعاهدة فى اقرب وقت بين البابا والامبراطور التى حصل عليها الاتفاق وكانت تلك المعاهدة اساسا للشوكة العظيمة التى اكتسبها شرلكان فى ايطاليا وكانت موادها الاصلية سبعة الاولى ان الامبراطور والبابا يضمان عساكرهما الى بعضهم ليطردا الفرنساوية من دوقية ميلان ويعطياها الى ابن الملك لويزلومور وهو الامير فرنسيس سفورس وكان قاطنا فى طرنته منذ غصبت البلاد من اخيه مكسيليان وكان الغاصب لها ملك فرانسا الثانية ان ترد الى الكنيسة دوقية برمه ودوقية بليزنسه الثالثة ان الامبراطور يعين البابا على اخذ اقليم فراره الرابعة ان يزاد فى الخراج السنوى الذى كانت تدفعه نابلى لكنيسة رومة الخامسة ان الامبراطور يدخل فى حماه عائلة المديسيس السادسة ان يجعل للكردينال دوميديسيس عشرة آلاف من الدوقات على مطرانية طليطلة السابعة ان يعطى ما يساوى هذا المبلغ من الاراضى فى مملكة نابلى للامير اسكندر وهو ابن الامير لورنت دوميديسيس من الزناء

في ٨ من شهر ايار

مطلب موت شيورة وزير الامبراطور ونديمه

فلما علم الوزير شيوره بهذه المعاهدة العظيمة ولم يكن له دخل فيها ايقن بضياع الكلمة التى كانت له على تلميذه شرلكان الى ذلك الوقت حيث كان قبل ذلك لا يفعل شيأ الا باستشارته فحصل له غم شديد لا سيما وكان يعلم انه سينشأ عن الحرب مع مملكة فرانسا مصائب كبيرة واهوال كثيرة فيقال ان غمه عجل بهلاكه فمات بعد هذا الخبر بايام قلائل والظاهر ان هذا ليس الا من موضوعات المؤرخين الذين يحبون ان ينسبوا الى الاسباب غير العادية جميع ما يقع للمشاهير الممتازين من الناس حتى انهم ينسبون امراضهم وموتهم

سنة ١٥٢١

الى أسباب سياسية مع ان تلك الاسباب فى الغالب انما تنغص على الانسان عيشه ولا مدخل لها فى تقصير اجله وغاية ما يقال ان موت هذا الوزير مؤدب شرلكان فى وقت كثرت اهواله وخطوبه منع الناس من الطمع فى امكان منع الحرب بين الايمبراطور ومملكة فرانسا ولم يتأسف شرلكان على موته حيث كان يضيق عليه ويمنعه عن تنجيز مقاصده لانه كان متعودا على الطاعة والامتثال اليه من صغره فكان لا يمكنه ان يفعل شيأ بدون رأيه واستشارته وكان ذلك لا يليق وقتئذ بمقامه ولا بسنه فلما انقذته المنية منه ظهرت نفائس قريحته ونمت قواه العقلية ولاح عليه الفلاح حتى ابدى فى مشاوره وتنجيز مشروعاته من الحزم والاصابة فوق ما كان يؤمله فيه اهل عصره واستوجب به مدح الاجيال التى اتت بعده

مطلب

بدء الحرب فى مملكة نوار

وبينما كان البابا والايمبراطور يستعدان للهجوم على دوقية ميلان بموجب المعاهدة التى انعقدت بينهما سرا اذ وقع الحرب فى مملكة اخرى وذلك ان اولاد حناد لبرطه ملك نوار طلبوا اعادة مرات من الايمبراطور أن يرد لهم مملكة ابيهم حسبما هو مقرر فى المشارطة المنعقدة بمدينة نوايون على يد الملك فرنسيس وكانوا كلما طلبوا من الايمبراطور ذلك يحاولهم ويتعلل بامور عديدة فرأى الملك فرنسيس انه يجب عليه اعانة هذه العائلة الملوكية التى افرغ عليها الدهر نكباته وكانت ظواهر الاحوال وقتئذ تقضى بمساعدته فى هذا المشروع لان الايمبراطور شرلكان كان بعيدا عن مملكة نوار والجيوش التى كانت بها ذهبت لتسكين الفتنة التى كانت حاصلة حينئذ فى اسبانيا لا سيما ومن كان من اهل هذه المملكة فى غيظ من شرلكان كان يلح على فرنسيس ان يتغلب على مملكة نوار ويفيده ان معظم سكانها ينتظرون اعانته ليقوموا على حزب الايمبراطور ويدخلوا فى حزب عائلة ملوكهم الاقدمين هذا وكان الملك فرنسيس يحاول ان لا يغضب الايمبراطور وملك انكلترة فجمع العساكر وابتدأ الحرب باسم هنرى دلبرطه لا باسمه وكانت قيادة الجيش للامير اندرودوفوا كس دولسپار وكان شابا لا تجربة عنده بامور الحرب والقتال

سنة ١٥٢١

مطلب
تقدم الفرنساوية وظفرهم

وانما قلد هذا المنصب المهم لانه كان حليفا صادقا للملك هنرى دلبرطه لاسيما وكان اخا العشيقة . فرنسيس وهى القونتيسة شاتوبريان فلما دخل هذا الامير مملكة نوار ولم يجد بها جيشا مستعدا للمقاومة تغلب عليها كلها فى ايام قليلة ولم يعقه فى سيره الا القلعة بميلون الان المبانى التى كان الوزير اكزيمنيس اخذ فى تجديدها لتحصين هذه القلعة لم تكن تمت فقاومت مقاومة قليلة كانت لا تستحق الذكر فى التاريخ لو لم يكن جرح بها الامير اينياس دولوايولة بجرح اخطر افكث هذا الامير مدة طويلة وهو يعالج وكان يتسلى فى تلك المدة بقراءة مناقب القديسين فحصل لها موقع عظيم فى نفسه واثرت فى عقله تأثيرا قويا لاسيما وكان بالطبع يميل الى الحماسة وكان صاحب طمع وجسارة فاخذته الحمية والغيرة واراد ان يساوى فى الفخار قديسى الكنيسة الرومانية لما قام بنفسه من العجب بعد قراءة مناقبهم مع ان هذه المناقب مخترعة لا اصل لها ولم يكن هذا الامن القديسين من اتصف بها وبناء على ذلك تصدى الامير المذكور لامور هوسية كانت عاقبتها انشاء الجمعية او الطائفة العيسوية التى صارت احسن الطوائف القسيسية واعظمها سياسة وادارة وان اضرت بالنوع البشرى اكثر من غيرها كما نفعته ايضا اكثر من غيرها

مطلب
دخول الفرنساوية فى مملكة قسطيلة

ولو اكتفى الامير لسبار بعد اخذه قلعة بميلون بكونه يحترس بقدر الامكان حتى يأمن على حفظ فتوحه لكان من الجائز ان تبقى مملكة نوار مع الفرنساوية الا انه لطيشه جاوز حدود تلك المملكة ووضع الحصار امام لوغرونيو وهى مدينة صغيرة من مملكة قسطيلة لاسيما وكان الملك فرنسيس يفرح اذا نالت رماحه اولاح نجاحه فلما علم بنصرة الفرنساوية بعث يحرض الامير لسبار حتى هم بهذا المشروع الخطر واخذ يحاصر مدائن مملكة قسطيلة وكان اهالى هذه المملكة الى ذالك الوقت لا يفكرون فيما وقع من الفرنساوية بمملكة نوار ولكن لما اخذوا فى حصار مدائن مملكتهم استيقظوا من غفلتهم وتهيأوا للمدافعة بجميع جهدهم هذا وكانت

سنة ١٥٢١ نيران الفتن باسبانيا قد خمدت فانضم اهل اسبانيا الى اهل قسطيلة
ليدافعوا عن وطنهم وكان فريق منهم يقصد بقتال الفرنساوية ان يمحو ما لحقه
من المعرّة فى تقاعده وتكاسله فى مبدء الامر وكان قصد الفريق الآخر
ان يثبت لنفسه الفخار بطرد اعداء الامبراطور كما ثبت له الفخر بكونه قمع
نفوس رعاياه الخارجين عن طاعته فجاءت جيوش اسبانيا بغتة
وانضمت الى اهل مدينة لوغرونيو فاضطر قائد الجيوش الفرنساوية الى
ترك مشروعه الخطب ورفع الحصار عن المدينة المذكورة وركن الى الفرار
بجيشه فتبعه جيش اسبانيا وصار يطرده ويهجم عليه مع الشدّة والقوة
ولعدم تبصر هذا الامير وقلة رأيه لم ينزل الى قلعة عمپلون حتى يأمن من
اعدائه ولم يصبر حتى تصل اليه العساكر التى كانت مبعوثة لاعانته بل رجع
وهجم على جيش اسبانيا وكان اكبر من جيشه واشتد القتال بين الفريقين
وكان لسپار لا يحسن ادارة العساكر فهزم فى اقرب وقت واسر هو
واعيان ضباطه واخذ اهل اسبانيا مملكة نوار فى زمن اقل مما لزم
للفرنساوية فى التغلب عليها

مطلب
هزم الفرنساوية وطردهم من مملكة نوار

وكان الملك فرنسيس يحاول ليبرهن على ان اغارته على مملكة نوار من
باب العدل والانصاف لانها كانت باسم هنرى دلبرطه وكان يبحث
من جهة اخرى عن حجة يتعلل بها للهجوم على اراضى الامبراطور شرلكان
وذلك ان الامير روبيردولامرك ملتزم اقليم بولون وهو اقليم صغير
مستقل بنفسه على ضواحى اقليم لوكزمبورغ واقليم شمپانيا خرج
عن طاعة الامبراطور شرلكان ودخل فى حمى ملك فرانسا وادعى
ان المشورة الاوليقية (المشورة العليا الامبراطورية) قد افتاتت على حقوقه
ومنعته من قضائه وحكمه فى التزاماته فاشار عليه من يثق به ان يبعث رسولا
الى الامبراطور ويطلب الحرب معه من شدة غيظه وحنقه بسمع قوله وبعث الى
الامبراطور رسولا فى هذا الشأن فتعجب شرلكان من وقاحته وجزمه انه
لا يقدم على مثل ذلك من نفسه بل لابد وان يكون ملك فرانسا وعده بالاعانة

مطلب
ابتداء الحرب فى مملكة البلاد الواطية

سنة ١٥٢١

فى هذا المشروع وقد ظهر بعد ذلك بقليل ان ما فهمه الايمبراطور فى محله لان الامير روبير جمع سرا من فرانسا جيشا برضاء الملك فرنسيس وان كان فى الظاهر يتراآى انه لم يأمر بذلك وسار الامير روبير مع هذا الجيش حتى دخل اقليم لوكزمبورغ فبعد أن خرب السهول وضع الحصار امام قلعة ورطون فاخذ شرلكان يتشكى من ذلك ويبدى ان فيه هتك حرمة الصلح المنعقد بينه وبين ملك فرانسا وطلب من ملك انكلترة هنرى الثامن ان يوجه جيوشه الى قتال ملك فرانسا حيث انه بموجب المشارطة المنعقدة فى لوندرة (سنة ١٥١٨) تعهد بان يكون عدوا لمن يبدء بالتعدى من الفريقين وانه ينضم الى الفريق المتعدى عليه لقتال المتعدى فزعم الملك فرنسيس انه ليس كفيلا ولا ضامنا للامير روبير حتى يطالب بما يفعله وان هذا الامير اشهر الحرب مع الايمبراطور باسمه ولمصلحة نفسه وان دخول الفرنساوية فى عسكر الامير روبير لم يكن عن ارادته بل كان على خلاف اوامره ولكن لم يلتفت ملك انكلترة الى هذه الحجة ولم يقبل منه صرفا ولا عدلا فرأى فرنسيس انه لا ينبغى له ان يغضب ملك انكلترة لان غضبه يفسد عليه ما آربه فبعث الى روبير يامره ان يسرح العساكر ويخلى سبيلهم

ومع ذلك جمع الايمبراطور جيشا لينتقم من روبير فى نظير وقاحته وكان قدر هذا الجيش عشرين الفا وكان قائده القونتة ناسو فانقض به على ارض روبير وفى ظرف ايام قليلة تغلب على سائر مدنه وقلاعه ما عدا قلعة سيدان وبعد أن أراه انه لا قدرة له على غضب الايمبراطور ولا طاقة له على العصيان والخروج عليه توجه الى ضواحى مملكة فرانسا لان الايمبراطور شرلكان كان جازما بان ملك انكلترة يوثره على الملك فرنسيس فكان لا يخشى العواقب مثله وامر ناسو بمحاصرة مدينة موزون وكان محافظو هذه المدينة اهل فشل وجبن فاضطر حكمدارها الى التسليم بعد مقاومة قليلة وبعد ذلك حاصر الامير ناسو مدينة ميزيير ولم تكن حصينة منيعة الا انها

مطلب محاصرة جيش الايمبراطور لمدينة ميزيير

سنة ١٥٢١

بسبب وضعها وتغلب عليها جيش الايمبراطور لسهل عليه ان يدخل اقليم شمپانيا ولو دخل هذا الاقليم لسهل عليه الجولان فى داخل فرانسا لانه كان لا يوجد حينئذ بهذا الاقليم مدن حصينة لها اقتدار على صده ومنعه ولكن لقيام حظ فرانسا كان الملك فرنسيس يعلم اهمية هذه المدينة فلما رأى انه يخشى عليها من العدو سلمها للامير بيار وكان بطلا همامامتازا بين اهل عصره ومعروفا عندهم بالشجاعة وشرف العرض حتى لقبوه بهذا اللقب وهو الامير المنزه عن الخوف والملامة لانه كان ذا عزم عجيب وتجلد غريب فى الهيجاء وكان صاحب عرض شريف ومزاج لطيف وكان حائز الاعظم اخلاق ابطال الشوالرية القديمة وكان ذادها ونهى مستكملا لسائر صفات الابطال وفحول الرجال كما يشهد بذلك ماوقع منه غير مرة فى المدافعة عن ميزيير حيث انه بعزمه وحزمه طالت مدة المحاصرة حتى اضطرت عساكر الايمبراطور الى رفع الحصار بعد أن فقد منهم اناس كثيرون وركب الملك فرنسيس حينئذ فى جيش عظيم واسترجع مدينة موزون ثم سار بجيشه الى مملكة البلاد الواطية وتغلب منها على عدة قلاع ومدائن هينة لكنه فى هذه المرة بلغ حد الافراط فى الاحتراس حتى ضاعت منه فرصة عظيمة لاحت له وهى انه كان يمكنه ان يقطع الطريق بقرب مدينة والنسين على الجيش الايمبراطورى وهو آخذ فى الفرار ووقع منه امر آخر اعظم من ذلك اضرت به عاقبته كل الضرر وهو انه اغضب سر عسكره الامير بوربون حيث اعطى للدوق دالنسون قيادة مقدمة الجيش مع ان هذه الوظيفة الشريفة كانت من وظائف الامير بوربون ومعدودة من جملة خصوصيات منصبه

مطلب
رفع الحصار

وفى مدة هذا الحرب كان بمدينة كالس جمعية من الوزراء منعقدة لقطع الحرب بالتى هى احسن وكان ملك انكلترة هنرى الثامن هو الواسطة فى ذلك والمصلح بين الفريقين ولو كان باطنه موافقا لظاهره لحسنت عاقبة المداولة التى حصلت بتلك الجمعية وترتب عليها غاية ما يؤمل فى الاصلاح بين فرنسيس

مطلب
انعقاد جمعية الوزراء بمدينة كالس وتوسط ملك انكلترة فى ذلك

والامبراطور الان الملك هنرى فوض هذا الامر لوزيره ولسى فافسده واضاع ثمرته لان هذا الوزير كانت آماله دائما متعلقة باخذ منصب البابا وكان ذلك غاية امله ونهاية مرامه فكان احب شئ اليه اعانة الامبراطور لان هذا الامر كان بيده وكان هذا الوزير لا يخفى اغراضه مع الامبراطور حتى ان الملك فرنسيس كان لا يرضاه واسطة ولم يكن يخشى بأسه لانه كان من طبعه الحرص على الانتقام من خصمه ولو بعد حين فمكث ارباب الجمعية مدة مستطيلة وهم يبحثون عمن بدأ بالحرب من الفريقين هل هو الامبراطور او الملك فرنسيس وكان الوزير ولسى يدقق فى معرفة البادى ليثبت ان فرنسيس هو الذى بدأ لانه ان ثبت ذلك امكنه بسبب المشارطة المنعقدة فى لوندرة ان يبنى عليه صحة المشارطات التى تنعقد فيما بعد بين ملك انكلترة والامبراطور ووقعت المفاوضة بعد ذلك فى شأن الشروط التى يمكن اتمام الصلح بها الا ان ماطلبه الامبراطور دل على انه لا يميل الى الصلح ابدا او انه كان معتمدا على الوزير ولسى وجازما بانه يستحسن كل ماطلبه ويقره عليه فطلب الامبراطور ان ترد له دوقية بورغونيا وهو اقليم يمكن بواسطته أن يدخل فرانسا وطلب ايضا انه لا يكون لمملكة فرانسا امارة على اقليم الفلمنك ولا على اقليم ارتوازة مع ان ذلك كان ثابتا لها من قديم الزمان واقره آباؤه واسلافه بل واقره هو ايضا فى المشارطة المنعقدة بمدينة نوايون فلم يرض فرنسيس بهذه الشروط واستنكف ان يقبلها والواقع ان كل ملك كريم شريف النفس لا تطيق نفسه ان يقبل مثل هذه الشروط ولو بعد هزيمته وتدميرعساكره غير ان الامبراطور وعد ملك فرانسا بامور اخرى احسن واصوب من الاولى وهى ان يرد مملكة نوار الى ملكها الاحق بها وان يأمر برفع الحصار عن مدينة تورنه وبناء على ذلك تمت مذاكرة الجمعية بدون ثمرة ولا جدوى وانما كانت ثمرتها ايقاع الفشل والتنافر بين الفريقين مع انه كان القصد منها التأليف بينهما

وفى اثناء المذاكرة بتلك الجمعية السابقة سافر الوزير ولسى الى مدينة

مطلب
اضاعة ثمرة المداولة

مطلب
عصبة الامبراطور وهنرى ملك انكلترة على الملك فرنسيس

ابروجه ليقابل الايمبراطور متعللا بان الايمبراطور نفسه يمكن ان يتساهل في الشروط ويرضى بما لم ترض به وزراؤه وكان الايمبراطور يعلم ان هذا الوزير يعجب بنفسه ويحب الزينة والظهور فتلقاه في احتفال عظيم واكرمه غاية الاكرام كانه ملك انكلترة ولكن لما قابله ولسى لم يسع في عقد مشارطة الصلح بينه وبين ملك فرانسا بل عقد معه باسم ملك انكلترة مشارطة بها يكونان عصبة على الملك فرنسيس وكان مضمون هذه المشارطة ان الايمبراطور يهجم على مملكة فرانسا من جهة اسبانيا والملك هنرى يهجم عليها من جهة پيكارديه ومع كل منهما اربعون الفا وان الايمبراطور يتزوج بالاميرة مارية بنت الملك هنرى ووارثته في بلاده ودولته حيث لم يكن له وقتئذ غيرها ولم يجد الملك هنرى اصلا يبنى عليه صحة تلك العصبة التى كانت في حد ذاتها من محض الظلم والعدوان وتضر بمصالحه السياسية الا كونه استند على بند من المشارطة المنعقدة في لوندرة كان مضمونه انه يجب على ملك انكلترة ان يحارب من تعدى من الفريقين سواء كان الايمبراطور او الملك فرنسيس وحيث ثبت ان فرنسيس هو المتعدى اتخذ ملك انكلترة تعديه علة بنى عليها صحة تعصبه مع الايمبراطور وابدى سببا آخر وهو ان الملك فرنسيس رضى برجوع الدوق دلبانى الى مملكة ايقوسيا مع انه كان رئيس عصبة تبحث عن اضرار هنرى الثامن ملك انكلترة هذا وكان لهنرى المذكور مآرب اخرى حسنت له الدخول في حزب احد الفريقين وذلك انه كان يومئذ في عنفوان شبابه متولعا بالظهور والمعالى فرأى ان المنفعة التى تعود على رعاياه من تخليه عن كل من الحزبين والشرف الذى يعود عليه من بقائه حكما عدلا بينهما ليس كبير شيء بالنظر للفخر الذى يحصل للايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس من قيادة الجيوش وفتح الاقاليم والبلدان فكان لا يمكنه ان يمكث مدة مستطيلة من غير ان يكون له دخل بين الفريقين فبمجرد ما تصدى لهذا الغرض رأى من اوجه عديدة ان معاهدته مع الايمبراطور اوفق له وانفع من معاهدة الملك فرنسيس وذلك

انه

سنة ١٥٢١

انه لم يكن له شبهة حق في شيء من دول الامبراطور لاسيما وكان موقع اغلبها يمنع الاغارة عليها الا مع المشقة العظيمة والخسارة الجسيمة بخلاف مملكة فرانسا فكان اغلب اقاليمها البحرية قد مكث زمنا طويلا في ايدي ملوك انكلترة حتى ان هؤلاء الملوك كانوا الى ذلك الوقت يدعون ان لهم الحق في تاج مملكة فرانسا لاسيما وكانت مدينة كالس بيد الملك هنري فبها كان يسهل عليه ان يدخل في بعض اقاليم فرانسا ويرجع في امن واطمئنان اذا عانده الدهر ولم تسعفه المقادير وكان يقوم بنفسه ان الامبراطور اذا هجم على فرانسا من جهة وهجم هو عليها من جهة اخرى لا يجد في تلك الجهة من يقاومه وكان يعتقد ان الله تعالى كتب له ان يكون له الفخر بكونه يضيف ثانيا الى مملكة انكلترة جميع البلاد التي كان يملكها اسلافه في الاراضي القارة من اوروبا وكان الوزير ولسي يقوي عنده تلك الاماني ويحسنها له حيث كانت تعينه على تتميم مآربه القائمة بنفسه لاسيما وكانت بغضة الانكليز للفرنساوية متوارثة من جيل الى جيل ومن نسل الى نسل فلم يستقبحوا من ملكهم عزمه على الحرب مع مملكة فرانسا

مطلب
وقوع الحرب في ايطاليا

هذا وكانت العصبة المنعقدة بين البابا والامبراطور قد ترتب عليها امور جسيمة وحوادث عظيمة في بلاد ايطاليا ونتج عنها كون بلاد لمبرديا اعظم ميادين الحرب واكبرها * وكان بين اخلاق الفرنساوية واخلاق الايطاليين مباينة كلية حتى ان الايطاليين لم ينفروا ابدا من حكم الاجانب كما نفروا من حكم الفرنساوية وكان سكون اهل النمسا وعدم طيش اهل اسبانيا يلايمان طبع الايطاليين اكثر من طبع الفرنساوية لان الايطاليين يميلون بالطبع الى سلوك طرق التكليف في معاملة الغير ويراعون نواميس الادب ورسوم المجالس ومن طبعهم الغيرة والحمية بخلاف الفرنساوية فمع ما عندهم من البشاشة والخفة لا يتكلفون شيأ ولا يراعون تلك النواميس ولكن لما تولى الملك لويز الثاني عشر على فرانسا وكان مهذب الاخلاق عدلا في احكامه اعطى اهل ميلان مزايا وخصوصيات اعظم مما كانوا يتمتعون به

سنة ١٥٢١

في عهد ملوكهم فامكنه بذلك ان يضعف حقدهم للفرنساوية ويؤلف بينهم واما الملك فرنسيس فانه لما استرجع هذه الدوقية لم يقتف اثر لويز الثاني عشر فانه وان كان حليما لا يحب ان يظلم رعاياه الا انه كان يأتمن اخصامه ويثق بهم كل الوثوق فكان لا يلتفت الى سلوك من يوليهم الحكم على العباد فمن ثم ارتكبوا عدة مظالم تأباها النفوس الشريفة فبذلك وقع التنافر بين الايطاليين والفرنساوية

سآمة اهل دوقية ميلان من حكومة الفرنساوية

وكان الملك فرنسيس قد قلد حكومة دوقية ميلان للامير اوديت دوفوا كس مارشال لوتريك وهو اخو مدام شاتوبريان وكان من اهل الخبرة والتجاريب ذا شهرة عظيمة الا انه كان متكبرا جبارا طماعا لا يقبل نصيحة ولا يستطيع ان يعارضه احد فيما يفعل فباساءته وظلمه اغضب اهل ميلان ونفرت نفوسهم منه وذلك انه نفى عدة من اكابرهم واشتد ظلمه لهم حتى اضطر بقية الاكابر الى المهاجرة من البلاد ليأمنوا على انفسهم وكان ممن هاجر منهم الشهير جيروم مورون وكيل فخليبير دوقية ميلان وكان له اقتدار غريب على ايقاع الفتن والاقدام على المشروعات الجسيمة لاسيما وكان ذلك العصر عصر فتن وتحزبات وكانت الاحوال وقتئذ تقتضي ذلك خصوصا في هذه الدوقية فانه كان لا تخمد فيها نيران الفتن والشقاق وكان جيروم مورون قد خان الامير مكسيمليان ومع ذلك التجأ بعد مهاجرته الى اخيه الامير فرنسيس سفورس ولما ادرك مورون المذكور ان البابا يريد الهجوم على دوقية ميلان لطرد الفرنساوية منها مع ان المشارطة المنعقدة بين البابا والامبراطور في هذا الشان كانت لم تشع بين الناس عرض للبابا باسم فرنسيس سفورس انه يريد ان يهجم بغتة على عدة من قلاع ميلان ومدائنها مع بقية الاعيان المنفيين لانهم لبغضتهم للفرنساوية ومحبتهم لعائلة ملوكهم الاقدمين كانوا مستعدين لاقتحام الاخطار والاهوال حتى يتمكنوا من طرد الفرنساوية من دوقية ميلان فلما وقف البابا ليون على قصد مورون استحسنه وصار يحثه ويحرضه على تنجيزه بل واعطاه

مبلغا

سنة ١٥٢١ في ٤ كـ من شهر حيزران

مبلغا جسيما ليستعين به على ذلك ولكن طرأت احوال افسدت ما هموا به فان البابا المنفيين الذين كانوا مجتمعين لاجل هذا الغرض ان يذهبوا الى مدينة رغجيو وكانت تلك المدينة وقتئذ من مدآئن الكنيسة وكان المارشال دوفوا كس يحكم في ميلان مدة غيبة اخيه فاعتقد انه يمكنه القبض على هؤلاء المنفيين الذين هم اعداء الملك فرنسيس في دوقية ميلان ويسهل عليه ذلك بسبب اجتماعهم في محل واحد فخاطر بنفسه ودخل اراضي الكنيسة وهجم على مدينة رغجيو وكان حكمدار هذه المدينة اذ ذاك هو المؤرخ غيشاردين الشهير فلسياسته وحسن سلوكه صد المارشال دوفوا كس وجبره على العدول عن مشروعه والتحول عن تلك المدينة على وجه يزرى به فلما وقف البابا ليون على هذا الخبر سر غاية السرور واتخذه حجة مستحسنة في فسخ الصلح بينه وبين مملكة فرانسا وعقد فورا مشورة الكردينالات وعرض عليهم شكواه من اغارة ملك فرانسا على بلاده ومدح لهم كثيرا في الايمبراطور ومحبته للكنيسة واستدل على ذلك بما فعله ذلك الايمبراطور مع لوتير الذي هو عدو الكنيسة وعرض عليهم انه لامنه وامن بلاده يلزم ان يضم عساكره الى عساكر الايمبراطور لقتال الفرنساوية وانه لا توجد واسطة اخرى يؤمن بها على دول الكنيسة واراضيها وعقد حينئذ مشارطة في هذا الشان مع الامير حنا منويل وزير الايمبراطور شرلكان حتى كأن تلك المشارطة لم تنعقد بينهما منذ عدة شهور وحكم البابا بالحرمان على المارشال دوفوا كس في نظير هجومه على حرم الكنيسة وهتك حرمتها

مطلب تخاصم البابا مع الملك فرنسيس

وكان البابا ليون وقتئذ قد جهز المهمات واستعد للحرب حيث استأجر جيشا عظيما من اهل السويسة ولكن ابطأت جيوش الايمبراطور في مجيئها من نابلي و المانيا حتى مضى نصف فصل الخريف قبل ان يصلوا الى ميدان الحرب وكان قائدها الشهير پروسپير كولون وكان انشط جنرالات ايطاليا وامهرهم وكان لكثرة تجاربه وحزمه احق من غيره بمقاومة

مطلب الحرب في دوقية ميلان

سنة 1521

الفرنساوية وفى اثناء ذلك كان المارشال دوفوا كس يرسل للملك فرانسا بريدا بعد بريد يخبره انه عرضة للاخطار والخطوب ولكن كان بعض عساكر الملك فرنسيس مشغولا فى البلاد الواطية وكان البعض الآخر مجتمعا فى ثغور اسبانيا وكان هو نفسه لا يترقب الهجوم على بلاده التى بمملكة ايطاليا فعند وقوفه على هذا الخبر بعث رسلا الى السويسيين المتعاهدين معه ليطلب منهم عساكر وصدر منه امر الى الامير لوتريك ان يذهب الى دوقية ميلان ليقوم بحكمها غير ان هذا الامير كان يعلم ما هنالك من الاهمال وعدم التدبير فى ادارة خزائن الملك فرنسيس وكان يعلم ان العساكر لحقهم فى ميلان ما تقصر عنه العبارة من المشاق القادحة لعدم صرف ماهياتهم فابى السفر الا اذا اعطى ثلاثمائة الف ايكو (ريال) فوعده الملك فرنسيس وامه لويزة دوسبوه وكذلك سمبلانسى مباشر الخزينة انه بمجرد وصوله الى ميلان يجد هنالك ذلك المبلغ فاعتمد لوتريك على قولهم وسافر الى ميلان ولكن من سوء حظ فرانسا كان من دأب الملكة لويزة ام الملك فرنسيس الخيانة والشره وكانت تؤثر مآربها وشهواتها النفسانية على كل شئ ولو ترتب على ذلك ما ترتب من المضار والمفاسد وكان لها كلمة نافذة عند ابنها ولا يستطيع مخالفتها لانها ربته واعتنت به فى صغره لاسيما وكانت ذات معارف غزيرة وسياسة شهيرة وكانت مصممة على ان لا تفى بوعدها الى لوتريك لانه لكبره وشممه كان لا يواليها ولا يراعى مرضاتها وان كان يحادثها فى شأن ما وقع له من الامور الغريبة الغزلية والنوادر العشقية فلاجل ان تنتقم منه هذه الملكة ارادت حرمانه من الفخر الذى يثبت له بمدافعته عن دوقية ميلان وظفره بالاعداء فاخذت المبلغ الذى وعد به واعدته لخصوص مصاريفها

مطلب ظفر العساكر الايمبراطورية

ومع حرمان لوتريك من هذا المبلغ الذى كان يعينه اتم الاعانة وكان ضروريا من اجله وجد وسايط اخرى امكنه بها ان يجمع جيشا عظيما وان كان اقل عددا من جيش المتعاهدين ودبر امر المدافعة على احسن وجه يلايم الحالة التى

سنة ١٥٢١

كان عليه ان كان يتجنب ملاقاة صفوف الاعدآء وانما كان يحمل عليهم مع
عساكره الخفيفة وينهب مساكنهم ويقطع عنهم الذخائر والزاد ويصدهم عن كل
قلعة ارادوا الهجوم عليها او يساعد اهلها على منعهم فبحسن سلوكه وحزمه
اخر ظفر عساكر الايمبراطور واعى الپاپا حيث انه الى ذلك الوقت هو الذى
كانت عليه جميع مصاريف الحرب تقسو بيا واعى الايمبراطور ايضا
لان ايرادات اسبانيا كانت قد نفدت مدة الفتن التى حصلت بها وكان
يلزمه القيام بمصاريف الجيش العظيم الذى كان بمملكة البلاد الواطية
لحفظها وحمايتها ولكن فى اثناء ذلك طرأت عوارض اوقعت لوتريك
فى الارتباك والخبل واودت بمملكة فرانسا الى سوء الحظ والشقاوة
وذلك انه كان يوجد فى الجيش الفرنساوى اثناعشر الفا من السويسيين
كانوا يخدمون فى عساكر الجمهورية السويسية التى كانت وقتئذ متعاهدة
مع مملكة فرانسا وكان بموجب القانون الذى رتبته دول جمهورية
السويسة لا يجوز للعساكر السويسيين ان يدخلوا فى خدمة الايمبراطور
او الملك فرنسيس ولا شك ان ذلك موافق لحسن السياسة وشعائر المروءة
الا ان حب الكسب احوج فى بعض الاحيان الى اهمال هذا القانون فرخص
لبعض افراد فى الدخول فى خدمة من احبوا من الفريقين ولكن لم يكن ذلك
تحت الوية الجمهورية بل كان تحت الوية بعض ضباط مخصوصين وكان
للكردينال دوسيون كلمة نافذة بين ابناء وطنه وكان يبغض مملكة فرانسا
فاستأذن ان يجمع عساكر من السويسة فاجيب لذلك وجمع اثنى عشر الفا من
السويسيين ليضمهم الى جيش المتعاهدين (الايمبراطور والپاپا) فلما رأت
دول جمهورية السويسة انه قد انضم الى الملتين المتحاربتين كثير
من العساكر السويسيين وانه سيدمر بعضهم بعضا وكانت تعلم ان ذلك يورثها
العار بين الدول بعثت رسلا الى العساكر السويسية ليتخلوا عن الفريقين
ويعودوا الى وطنهم فاما الرسل الذين بعثوا الى جيش الايمبراطور والپاپا
فرشاهم الكردينال دوسيون فلم يوصلوا الامر الذى معهم الى العساكر

سنة ١٥٢١

السويسين الذين كانوا فى ذلك الجيش واما البرد الذين بعثوا الى جيش فرنسيس فوصلوا الامر الذى كان معهم الى العساكر السويسية الذين كانوا فى هذا الجيش وكانوا قد سئموا من طول الحرب وكانت قواهم لاسيما وكانت ماهياتهم لاتصرف لهم فبمجرد وصول الامر اليهم بادروا بالطاعة والامتثال وماسلكه معهم لوتريك من الترغيب تارة والتهديد اخرى لم يجد نفعا فلما تخلوا عنه وكان مدار قوة جيشه عليهم لم يتجاسر على مقاومة المتعاهدين فرجع الى مدينة ميلان ونزل بعساكره على شواطئ نهر آدا ولم يجد حيلة الامنع الاعداء عن عبور هذا النهر وهى حيلة ضعيفة هينة قل أن نجحت او نفعت مع سر عسكر ماهر ذى خبرة ودراية كالشهير كولون الذى كان سر عسكر جيش البابا فلذا اجتاز كولون المذكور هذا النهر مع مهارة لوتريك ونباهته ولم يخسر فى ذلك الا خسارة هينة فعند ذلك اضطر لوتريك الى دخول مدينة ميلان وغلق ابوابها فهم حينئذ جيش الايمبراطور والبابا بحصار هذه المدينة فجأ منها رجل مجهول الى الامير مورون سر عسكر جيش الايمبراطور واخبره بانه ان قرب بجيشه ليلا من المدينة فتح له حزب الجبليس اى حزب الايمبراطور بابا من ابوابها ثم انطلق لوقته ولم يظهر ثانيا حتى يفتخر بهذا الصنيع او يطلب مكافأة فى نظيره وكان الجنرال كولون لا يحب المخاطرة فى المشروعات ومع ذلك امر الملترم بسكير ان يتوجه بالقرابة الاسبانيولية الى المدينة وتبعه هو بنفسه مع بقية الجيش فلما جاء الليل الاووصل الملترم المذكور الى الباب الرومانى على ضواحى المدينة ونزل بغتة على العساكر الفرنساوية الذين كانوا هناك فعند ذلك فر عساكر التحصينات القريبة من الباب المذكور وصار الملترم بسكير يتغلب على كل محل تركته العساكر الفرنساوية ولم يزل سائرا جهة المدينة مع غاية الاحتراس والثبات حتى تغلب عليها من غير أن يسفك فى ذلك دماء كثيرة بل لم يجد من يقاومه او يصده حتى حصل التعجب لكل من الفريقين من هذه الواقعة وسرعة نجاحها على هذا الوجه وبمجرد ماتغلبوا على المدينة

مطلب
تغلب جيش الايمبراطور على مدينة ميلان

سنة ١٥٢١ فرّ الجنرال لوتريك الى ارض البنادقة مع بقايا جيشه وتأست سائر مدائن دوقية ميلان بالتخت فسلمت لجيش البابا والامبراطور وانضمت مدينة پرمة ومدينة پليزنسة الى دول الكنيسة وضاع من الفرنساوية جميع البلاد التي فتحوها في بلاد لومبردية ولم يبق لهم منها سوى مدينة كريمون وقلعة ميلان وبعض قلاع اخرى صغيرة

مطلب موت البابا ليون العاشر

ولما بلغ البابا ليون اخبار هذه النصرة العظيمة كاد يطير فرحا حتى ذكر بعض المؤرخين انه لفرط سروره لحقته حمى شديدة واهملها في مبدء امرها فتمكنت منه حتى مات بها في اثنين من شهر كانون الاول وكان في ابان شبابه فرحا بظفره وفخاره وبموته انحلت روابط المتعاهدين وتشتت شملهم فترك كل من الكردينال دوسيون والكردينال دوميديسيس الجيش وذهبا ليحضرا ديوان الكردينالية لاجل انتخاب پاپا بدلا عن البابا ليون ودعيت العساكر السويسيون الى بلادهم وتفرق باقي العساكر المستأجرة لعدم صرف ماهياتهم فلم يبق في دوقية ميلان من يدافع عنها الا العساكر الاسبانيولية وبعض عساكر من المانيا في خدمة الامبراطور فكانت ذلك فرصة عظيمة للجنرال لوتريك في اخذ دوقية ميلان الا انه لم يكن عنده رجال ولا مال فلم يمكنه ان يغتنم من هذه الفرصة ما كان يوده نعم انه هجم على دوقية ميلان عدة مرات الا انه لم يبلغ مرامه لتيقظ الجنرال مورون وحسن سلوك الجنرال كولون وهجم ايضا على مدينة پرمة مع الهمة والثبات فلم ينجح ايضا بسبب سياسة الشهير غيشاردين وشهامته

سنة ١٥٤٢ ثم انه حصل الشقاق والتفاقم بين الكردينالات في مشورة الكردينالية المنعقدة بعد موت ليون العاشر لانتخاب من يكون پاپا بدلا عنه فسلك الكردينالات في هذا الشان جميع طرق الحيل التي يقدر على اقتراحها رجال شبوا على الدسائس وشابوا في المخادعات وتجود بها عقولهم عند المحاورة في غرض جسيم مهم كتاج البابا فلم يذكر في هذا الديوان اسم الكردينال ولسي (وزير ملك انكلترة) مع انه ذكر الامبراطور حينئذ بذلك وكان قبل ذلك وعده

ان يعينه فى نيل هذا المنصب وانحط رأى خمسة عشر من ارباب ديوان الكردينالية على اعطاء هذا التاج للكردينال جاليوس دوميديسيس وهو من اقارب البابا ليون وكان اعظم الكردينالات امتيازا واعتبارا لثروته ومعارفه وتجاربه وتعوّده على ادارة الامور الجسيمة والمصالح المهمة العظيمة وكان من اصول ديوان الكردينالية ان هذا القدر يكفى فى منع غيره من انحط عليه الرأى ولكن لا يكفى فى انتخاب انسان وتقليده بمنصب البابا فتعصب على جاليوس سائر الشيوخ من الكردينالات ولم يرضوا بجعله بابا الا انه لم تتفق كلمتهم على غيره وبينما كان ارباب الديوان يتنازعون ويتعبون بعضهم بالمحاورة والمجادلة ويرشو بعضهم بعضا اذ خرج الكردينال جاليوس دوميديسيس ذات يوم فى الصباح مع حزبه من الكردينالات وذهبوا الى مجلس الانتخاب وكان على حسب العادة وقتئذ ينعقد كل يوم واعطوا رأيهم بان الذى يتولى بابا هو الكردينال ادريان دوتريك وكان اذ ذاك يحكم فى اسبانيا نيابة عن الايمبراطور ولم يكن غرضهم من اتفاقهم على تولية هذا الرجل الاجنبى منهم الا ان يجدوا زمنا يكفيهم فى اخذ اهبتهم واستعدادهم لتنفيذ ما ربهم لكن حصل خلاف ما اضمروه ووافقهم فوار بقية الكردينالات على هذا الرأى وتعجبوا هم انفسهم غاية العجب وكذلك سائر اهالى اوروبا من تولية رجل غريب لا تعرفه اهالى ايطاليا بل ولا يعرفها احد ممن انحط رأيهم عليه ويجهل بالكلية اخلاق الامة التى دعى الى ان يمسك بزمام حكومتها ويجهل منافعها وما تقتضيه مصالحها الخصيصا وكانت توليته على كرسى البابا فى وقت صعب فكان لا يتصور ان يعطى هذا المنصب الا لمن يفوق بفراسته ودرايته سائر العصابة الكردينالية ولما خرج الكردينالات من الديوان فى زفاف واحتفال سخط عليهم الاهالى فى نظير تحابيهم لهذا الغريب وعجز الكردينالات انفسهم عن ان يذكروا لذلك وجها الا قولهم ان ذلك الهام من روح القدس والصواب ان يقال ان ذلك الهام من الامير خنامويل فانه مراعاة لمصلحة سيده الايمبراطور شرلكان

مطلب
انتخاب ادريان للبابية
فى ٩ من شهر كانون الثانى

سنة ١٥٢٢

هو الذى الجأهم بتحيله ومكره الى انتخاب هذا الرجل لانه من رعايا الايمبراطور وكان صادقا فى خدمته فصنع ذلك مراعاة لمصلحة نفسه وحبا فى الايمبراطور واقرارا له بالشكر لما اغدق عليه به من الخيرات الجليلة واسبغه عليه من النعم الجزيلة .

مطلب
ابتداء الحرب ثانيا فى دوقية ميلان

وبارتقاء ادريان الى كرسى البابا ازدادت شوكة الايمبراطور وصار لتدبيره وادارته فى ممالكه رونق جديد ومما يدل على عظم شوكته حينئذ وعلو شانه هو انه كافأ ادريان الذى كان مؤدبه مكافأة عظيمة حيث جعله بابا كنيسة رومة وهو الذى رقاه ايضا قبل ذلك ورفعه الى اوج المعالى حتى جعله حاكما على اسبانيا نيابة عنه فحصل للملك فرنسيس من ذلك غيرة عظيمة حملته على ان يبذل غاية جهده فى التغلب على دوقية ميلان ثانيا وحيث كان خروج العساكر السويسيين من جيشه هو منشأ ضياع هذه الدوقية رأى اهل السويسة انه يجب عليهم ان يعينوا ملك فرانسا ثانيا ان اخذها لتطييب نفسه من الاساءة التى فرطت منهم فى حقه وهو اخذ عساكرهم منه فاذنوا له ان يأخذ من بلادهم اثنى عشر الف رجل يستعين بهم فى مشروعه فلما وصل هؤلاء العساكر الى الجنرال لوتريك وكان الملك فرنسيس قد ارسل اليه ايضا مبلغا هينا من الاموال رأى انه يمكنه ان يحارب الاعداء ويناومهم فهجم عليهم واخذ منهم عدة قلاع وتقدم جهة التخت وكان جيش المتعاهدين لا يمكنه فى تلك المرة ان يمنع جيش الفرنساوية الا ان الجنرال موررون بحيله وخداعه امكنه ان ينفر قلوب اهل ميلان من حكم الفرنساوية حتى اعانوه عليهم حق الاعانة واعطوه امدادات كثيرة ومع ذلك كان جيش الفرنساوية كسيل العرم لا يأتى على شئ الا اخذه حتى كان لا يمكن الجنرال كولون ان يثبت فى المحطة الحصينة التى عسكر بها قريبا من مدينة بيكوك وكان يضطر الى تسريح عساكره لعدم الاموال الا ان العساكر السويسيين الذين كانوا مع الفرنساوية فعلوا ما كانوا فعلوه اول مرة وتخلوا عن الفرنساوية عند الشدة

سنة ١٥٢٢

مطلب
انهزام الفرنساوية في دواقعة بيكوك .

وطالما غدر السويسيون بالحزب الذين هم منه اذ كانوا اهل سفه ووقاحة
لا يدومون على حالة واحدة فكان احبابهم يخشون غدرهم كما كان اعداؤهم
يهابونهم لشجاعتهم وبراعتهم في الفنون العسكرية وانما تخلوا عن الفرنساوية
في هذه المرة لانهم مكثوا في خدمة فرانسا عدة اشهر ولم تصرف لهم
ماهياتهم فاخذوا يتشكون من ذلك ويظهرون السآمة والقلق فبعث اليهم
من مملكة فرانسا مبلغ ليصرف عليهم وكان يخفره سرية من الخيالة
الا ان الجنرال موروني كان متيقظا لا يغفل عن حركات الفرنساوية ابدا
ولا يخفى عليه امر من امورهم فوضع عساكر على الطريق الذي يأتي منه هذا
المبلغ واحكم وضعهم حتى لم يمكن للخيالة الذين كانوا يخفرونه ان يمروا بهم فلما
وقف السويسيون على هذا الخبر عيل صبرهم فاجتمعوا كلهم ضباطا وانفارا
وطلبوا من الجنرال لوتريك ان يعطي لهم ماهياتهم او يعدهم بان يتوجه
بهم في غد لملاقاة الاعداء صباحا وان لم يفعل احد هذين الامرين تخلوا عنه
حالا وذهبوا الى حال سبيلهم ولم يصغوا لقول لوتريك حين عرض عليهم
انه لا يمكنه بوجه من الوجوه ان يوفيهم حقهم وانه لا يليق التوجه لملاقاة
الاعداء لتحصين معسكرهم حيث كان محكم الوضع من اصله وزادوا احكامه
بالتحصينات التي جددوها فيه فلا ثمرة في الهجوم عليهم بل هم الغالبون بدون
مرية الا ان السويسيين كانوا لا يعقلون وكانوا يرون ان شجاعتهم تكفي في ازالة
كل عائق وتظهر على كل مانع فالحوا عليه كل الالحاح والتزموا ان يكونوا
في مقدمة الجيش ليكونوا اول من يحمل على الاعداء فلما رأى الجنرال لوتريك
شدة عنادهم وانه لا يمكن ردهم عما صمموا عليه قبل ذلك منهم مؤملا
ان تسعفه حادثة من الحوادث الاتفاقية التي تطرأ على حين غفلة لا سيما
في الحرب فعساه أن ينجح بها في هذا المشروع ولقد عهد تخلف الظنون وايضا
كان يعلم ان الانهزام لا يضر به اكثر من تخلي السويسيين عنه اذ كانوا على
النصف من جيشه وفي صبيحة اليوم الثاني كان السويسيون اول من برز الى
ميدان الحرب وحملوا على معسكر الاعداء وكان محصنا من سائر جهاته محاطا

في شهر ايار

بالطوابي

سنة ١٥٢٢

بالطوابى والمدافع ومستعد للملاقاة العدو فضربت عليهم المدافع من جهة المعسكر ضربا شديدا فثبتوا أمامها ولم يتأخروا عن السير حتى تصل اليهم مدافع الفرنساوية بل هجموا على تحصينات معسكر الاعداء بقلوب ثابتة لا تفزعها اخطار ولا تفجعها اهوال ولكن مع ما ابدوه من الشجاعة الغريبة والشهامة العجيبة التى تقف دونها العقول ولا تصدر الا عن الابطال والفحول واعانهم الفرنساوية كل الاعانة هلك منهم اشجع ضباطهم واحسن عساكرهم ورأوا انه لا يمكنهم الجولان فى معسكر الاعداء فرجعوا على اعقابهم مطرودين لا مغلوبين حيث انهم عند الرجعة لم يزالوا باقين على غاية من الترتيب والانتظام ولم يمكن للاعداء ان يشتتوا شملهم او يوقعوهم فى الخلل والارتباك

مطلب
طرد الفرنساوية
دوقية ميلان

فلما كان اليوم الثانى سافر السويسيون الذين نجوا من واقعة بيكوك الى بلادهم فعند ذلك رأى الجنرال لوتريك انه لا يمكنه مقاومة الاعداء فرجع الى مملكة فرانسا بعد أن وضع محافظين فى قلعة كريمون وبعض قلاع اخرى وكلها لم يمكنها المقاومة بل سلمت الى الجنرال كولون ما عدا قلعة كريمون المذكورة

مطلب
اخذ جنويرة
الفرنساوية

وكان للفرنساوية ارض عظيمة فى بلاد ايطاليا غير دوقية ميلان وهى ارض جنويرة فكان يسهل على الملك فرنسيس ان يأخذ دوقية ميلان الا ان الجنرال كولون لما ظفر باعدائه غير مرة صار يستحقر كل خطب ويستسهل كل صعب فعزم على اخذ بلاد جنويرة لاسيما وكان يحثه على ذلك حزب الادورنى الذى كان عدوا للغريعوزيين وكانوا تحت حماية الفرنساوية فلذا كان له ببلاد جنويرة الكلمة النافذة فاخذ كولون المذكور البلاد مع غاية السهولة كما تغلب على دوقية ميلان وتمكنت فيها صولة الحزب الادورنى وحكومة الامبراطور من غير معارضة ولا سفك دم

مطلب
اشهار الملك هنرى الثـ
للحرب مع مملكة فر
فى ٢٩ من شهر ايار

ولا شك ان هذه المصائب المتوالية قد اودعت فى باطن الملك فرنسيس الاما

سنة ١٥٢٢

شديدة واحزانا كبيرة ازدادت شدتها حين اتى اليه في اثناء تلك المدة على حين غفلة رسول من طرف ملك انكلترة بصدد طلب الحرب عن لسان هذا الملك وكان منشأ ذلك هو المشارطة المنعقدة في مدينة بروجه بين الايمبراطور والوزير ولسى وكانت الى ذلك الوقت خفية لم يقف لها احد على جلية فتعجب الملك فرنسيس من ذلك كل العجب حيث انه كان يبذل جهده في استعطاف ملك انكلترة واستمالة وزيره ولسى ومع ذلك قابل الرسول بالترحيب والاحترام ولاطفه واكرمه كل الاكرام ثم اخذ اهبته واستعد بامور جسيمة ليدفع عن نفسه هذا الملك ولم يزل على عناده مصمما على مراده الذى كان يضمره للايمبراطور وحيث كانت خزآئنه قد نفدت في الحروب السابقة وفيما صرفه من المبالغ الجسيمة على نفسه في اللعب واللهو اضطر الى ارتكاب امور غير عادية لتحصيل المبالغ اللازمة له فاخترع مناصب جديدة في الدولة وعرضها للبيع وباع الجفالك والاراضى الملوكية وضرب على الاهالى مغارم زائدة عن الحد واخذ ضريحا من خالص الفضة كان الملك لويز الحادى عشر لكثرة ديانته قد وضعه حول قبر القديس سنت مارطين وبهذه الوسايط امكنه ان يجمع جيشا كبيرا ويحصن جميع المدن التى على ضواحى مملكته تحصينا عظيما

مطلب ذهاب الايمبراطور الى انكلترة

هذا ولم يهمل الايمبراطور شيأ يجلب به لنفسه كل فائدة لاحت له من الملك هنرى فقد حصل انه لما رأى اذ ذاك قيام حظه واقبال الدهر عليه وان مصالحه تسوغ له الذهاب الى اسبانيا وكان ذهابه اليها من الامور المهمة فاراد وهو متوجه اليها ان يمر بمملكة انكلترة ليقابل الملك هنرى ولم يكن قصده بذلك مجرد تأكيد روابط المحبة بينهما وتحريضه على الاستمرار في الحرب مع الفرنساوية بل كان قصده ان يأخذ بخاطر الوزير ولسى حتى تطيب نفسه وينسى ما لحقه من الحنق والغيظ بسبب ما كان يؤمله من اخذ منصب البابا وكان الايمبراطور قد وعده بالاعانة على تحصيله فلما مات البابا لم يوفه الايمبراطور بما وعده به بل ولم يكن له ذكر في ديوان الكرديناليه الذى انعقد

سنة ١٥٢٢ لهذا الشان وقد نجح الايمبراطور شرلكان وزاد نجاحه عما كان يؤمله وذلك انه لما نزل بانكلترة تلقاه الملك هنرى بحسب مايليق بمقام الايمبراطورية لاسيما وكان الايمبراطور قبل ذلك قد اظهر له الاحترام التام فى كل فرصة لاحت له فى هذا المعنى فبعد ان اكرمه هنرى كل الاكرام وافقه على جميع مقاصده ووعده بتتميمها معه واما الوزير ولسى فلما كان يعلم ان ادريان لطعنه فى السن لا تطول مدة اقامته على كرسى البابا فسى غمه او اخفاه لاسيما وزاد الايمبراطور فى المرتبات التى كان جعلها له قبل ذلك ووعده بانه سيعينه على اخذ منصب البابا فصار ولسى من وقتئذ يبذل جهده فى خدمة الايمبراطور ليكون اهلا للانعامات التى انعم عليه بها او ليحمله على ان يعينه اتم اعانة فى نيل هذا المنصب ولما كانت ملة الانكليز تقتسم مع ملكها حظه وفخاره حصل لها غاية المسرة والانشراح من ائتمان الايمبراطور له واعتماده عليه حيث جعل الامير سورى الانكليزى سرعسكر جيوشه البحرية ولم تكن رغبتها اقل من رغبة ملكها فى اشهار الحرب مع مملكة فرانسا

مطلب دخول الانكليز فى اراضى فرانسا

ولاجل ان يتحقق الايمبراطور شرلكان قبل ارتحاله عن انكلترة من رغبة الملة الانكليزية فى تنفيذ ما ربه سافر الامير سورى الى فرانسا بالسفن التى كانت متجهزة اذ ذاك وخرب نواحى بلاد نورمندية ثم نزل ابريطانيا ونهب مدينة مورلكس وحرقها وكذلك بعض مدن اخرى اصغر منها وبعد هذه الاغارات الصغيرة التى كان اذلالها الفرنساوية اكثر من اضرارها بالتدمير والتخريب لبلادهم رجع هذا الامير الى كالس واخذ الجيش الانكليزى الكبير وكان ستة عشر الفا وضمه الى الجيش الفلمنكى الذى كان يقوده القونتة بوران ودخل بالجيشين فى اقليم بيكردية وكان الجيش الذى جمعه الملك فرنسيس اقل عددا من مجموع هذين الجيشين الا ان الفرنساوية بممارستهم الحروب الطويلة التى حصلت قبل ذلك بينهم وبين الانكليز عرفوا مكايد الانكليز حق المعرفة وعلموا الطرق التى يمكنهم بها

سنة ١٥٢٢م

مدافعتهم عن بلادهم فكانت النكبات قد علمتهم ان لا يحاربوا الانكليز صفا وان لا يجلوا بقتالهم بل يحاولونهم ويمهلونهم لانه كلما طالت مدة الحرب مع الانكليز عظمت ثمرته لاعدائهم وانقرض جيش الانكليز شيأ فشيأ وعلمتهم ايضا ان يجعلوا محافظين على القلاع التى يمكنها المقاومة وان يغلبوهم فى جميع حركاتهم ويقطعوا عنهم الزاد والذخائر وان يحملوا على طلائع عساكرهم وان لا يغفلوا عن الاغارة عليهم فى كل وقت مع جم غفير من الخيالة وقد سلك معهم هذا المنوال الدوق واندوم وكان اذ ذاك رئيس جيش الفرنساوية فنجح غاية النجاح حتى ان القونتة سورى لم يمكنه ان يتغلب على شئ من المدائن الكبيرة المهمة بل اضطر الى الرجوع بعد ان نقص جيشه نقصا بينا لشدة ما لحقه من المشاق والمكايد وقلة الزاد ولما هلك منه فى عدة مصادمات حصلت بينه وبين الفرنساوية وكان الجيش الفرنساوى فيها هو الغالب

وكان ذلك آخر الواقعة الثانية من هذا الحرب الذى كان اعظم الحروب التى حصلت الى ذلك الوقت ببلاد اوروبا ثم قد ضاع من الملك فرنسيس جميع البلاد التى كانت له بايطاليا وكان السبب فى ضياعها حقد امه للجنرال لوتريك وظلم جنراله للناس وتخلى العساكر الاجنبية التى كان يستأجرها ومع ذلك فنقول ان الدول التى كانت متحزبة عليه لم يمكنها ان تأخذ شيأ من دولة الوراثية بل كانت ايثما تتوجه او تهجم تراها حصينة متينة مستعدة لمقاومتها حتى المقاومة

مطلب فتح السلطان سليمان بجزيرة رودس

وبينما كان ملوك النصرانية يضعف بعضهم قوى بعض ويدمرون عساكرهم فى الحروب اذ دخل السلطان سليمان القانونى بلاد المجار فى جيش جرار وحاصر مدينة بلغرادة وكانت اعظم المدائن والثغور الحصينة التى تحمى مملكة المجار من جيش الدولة العثمانية ومع ذلك سلمت فى اسرع وقت وتولى عليها السلطان المذكور فلما نجح فى هذا الحرب تقوى قلبه ووجه جيوشه المنصورة الى جزيرة رودس وكان فيها حينئذ طائفة الخيالة

سنة ١٥٢٢ المسماة سنت جان دوجور برآليم اى انصار بيت المقدس وهجم على تلك الجزيرة بسواد عظيم من تلك الجيوش الكبيرة التى لا يعجز عن جمعها ملوك آسيا الذين هم مطلقو التصرف فى رعاياهم حيث اغار عليها بمائتى الف رجل ومعه دونمة تحتوى على اربعمائة سفينة حربية وحاصر تخت جزيرة رودس ولم يكن فيه من العساكر الا ستة آلاف وستمائة من خيالة وباقى الشوالرية وكان رئيسهم الشهير وليبردوليل آدم وكان لحزمه ومهارته وعزمه وشجاعته جدير بابتلاء الرياسة فى مثل هذا الوقت الذى كان كثير الخطوب والاهوال فبمجرد ما بلغه ان السلطان سليمان عزم على اخذ جزيرة رودس ارسل بردا الى ملوك النصرانية يطلب منهم المدد والاعانة على عدو الملة المسيحية وكان جميع هؤلاء الملوك يعلمون ان تلك الجزيرة هى حصنهم ببلاد المشرق وان شجاعة من كان بها من خيالة الشوالرية هى اعظم سور يمكن اقامته لحماية بلادهم من جيوش الاسلام ومع ذلك لم يسعفوه بالاعانة واغرب من ذلك ان البابا ادريان حث الفريقين المتشاحنين مع الحمية التى يقتضيها كونه ابا النصارى كافة ورئيس كنيستهم على ان ينسيا ما بينهم من العداوة والبغضاء وان يتفقا جميعا حتى يمنعا جيوش الاسلام من تدمير طائفة بيت المقدس التى هى فخر ابناء النصرانية ولكن كانت البغضة بينهما قد تمكنت فلم يؤثر فيهما وعظ ولا تحريض ولم يلتفتوا الى الاخطار التى كانت بلاد اوروبا عرضة لها ولم تأخذهما رأفة لتضرع الرئيس وليبردوليل آدم ولا لالحاح البابا ادريان عليهما بل قطعا النظر عن جزيرة رودس وتركاها للسلطان سليمان يفعل بها ما شاء وبعد ان ابدى الرئيس وليبرد وليل آدم فى هذه المحاصرة التى مكثت ستة اشهر العجب العجاب واظهر هو وجماعته من الشهامة والعزم والتجلد والحزم ما لا يتصوره الفكر ولا يحصره الذكر وثبت امام المسلمين فى عدة مصادمات وعارضهم ايما توجهوا بهمة عجيبة غلبت كثرة المسلمين شجاعته واضطر الى التسليم لكنه لم يسلم فى المدينة الا على وجه اوجب له الشرف والفخار حيث لم يتركها الا بعد ان صارت اطلالا دارسة ليس فيها ما يسد الرمق

سنة ١٥٢٢

حتى ان السلطان تعجب من شجاعته كل العجب فلذلك احترمه غاية الاحترام واجابه فيما طلبه من الشروط واما الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس فلما لحقهما من المعرة والخزى حيث كانا سببا فى حصول تلك الخسارة لابناء النصرانية اخذ كل منهما يبرى نفسه ويوجه اللوم على صاحبه ولكن الافرنج ينسبون ذلك لهما معا الان منشأه هو الحرب الذى كان واقعا بينهما لمجرد اطماعهما واغراضهما النفسانية وفى نظير ذلك انعم الايمبراطور شرلكان على امرآء تلك الطائفة بجزيرة مالطة وصارت من ذلك الوقت دار اقامتهم وهم الى الآن باقون فيها على شجاعتهم القديمة وبغضتهم للمسلمين وان كانوا قد انحطوا عن العهد القديم بهجة وشوكة

انتهت المقالة الثانية

المقالة الثالثة من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
الحروب المدنية التى وقعت فى مملكة قسطيلة

ثم ان الايمبراطور شرلكان بعد ان شفى غليله وحظى بمرامه من ايقاع الحرب بين مملكتى فرانسا و انكلترة ودع الملك هنرى وسافر من انكلترة حتى وصل الى اسبانيا فى ١٧ من شهر حيزران وكانت نيران الفتن قد اخذت تسكن واخذ الاهالى يستظلون بظلال الامن والاطمئنان وشرعت المملكة فى اصلاح ما حصل فيها من التلف والفساد بسبب الحرب الداخلى الذى اضر بها وافسد حالها مدة غيبة الايمبراطور عنها وقد اخرنا الى هنا ذكر منشأ هذا الحرب وسبب اتساع دآئرته لانه لا رابطة بينه وبين الحوادث الاخرى التى كانت وقتئذ حاصلة فى بلاد اوروبا فنقول

مطلب
قيام اهل طليطلة

ان الاهالى بمجرد ما بلغهم ان مشورة القورطس المنعقدة فى مدينة غالسية قد سمحت للايمبراطور بمبلغ من الدراهم على سبيل التبرع مع انه لم يجبهم فى شئ من الامور التى تشكوا له منها غضبوا غضبا شديدا ونفرت نفوسهم كافة وكان اهل مدينة طليطلة بموجب ما كانوا يتمتعون به من المزايا العظيمة والخصوصيات الجسيمة يرون فى انفسهم انهم حفظة على حرية الجمعيات البلدية فى مملكة قسطيلة فلما اعطت مشورة القورطس للايمبراطور المبلغ

سنة ١٥٢٢ المتقدم ولم تعبأ بمخالفة رسل تلك المدينة اشتدحنق الطليطليين واظهروا العصيان لاسيما وكان اعطاء هذا المبلغ للايمبراطور ربما يخالف القوانين والاصول المبنية عليها احكام المملكة وتغلبوا على الابواب المحصنة من المدينة وهجموا على القلعة مع عزم متين وجهد مكين فاضطر حكمدارها الى التسليم فلما نجحوا فى هذا المشروع قويت قلوبهم واجحفوا بكل من توهموا فيه انه من احباب الدولة واحزابها وجردوهم عن وظائفهم ومناصبهم ورتبوا فيما بينهم نوعا من الحكومة الاهلية وجعلوا اربابها وكلاء انتخبوهم من خوريات المدينة وجمعوا ما يلزم من العساكر للمدافعة عن انفسهم من اهل الدولة وبطش الملك وكان اعظم رؤساء الاهالى فى هذه الفتنة هو الامير حنا دوپاديلة بكر حاكم قسطيلة وكان شابا ذا انفة وشجاعة عجيبة وكان له من الطمع والمعارف ما يعلو به المرء فى مثل تلك الحروب المدنية اقرانه ويرتقى به فى درجات الصولة والشوكة اعلى مكانة

مطلب قيام اهل مدينة سيغوبيه

وكذلك اهل مدينة سيغوبية كان لغضبهم وغيظهم عواقب شنيعة وكان تورديزيلاس احد رسلهم بمشورة القورطس فى تلك المرة الاخيرة قد وافق من انحط رأيهم من ارباب تلك المشورة على اعطاء المبلغ المتقدم للايمبراطور وكان رجلا جسورا لا يخشى بأس احد فلما رجع من المشورة جمع اهل المدينة فى الكنيسة الكبرى على حسب عادتهم وقص عليهم ما فعله فى المشورة فبمجرد سماعهم انه اقر اربابها على تبرعهم للايمبراطور بالمبلغ السابق غضبوا كل الغضب لاسيما حين تجاسر على تصويب هذا الفعل الذى كانوا يرونه من باب الخطاء الذى لا عذر لمرتكبه وبلغ منهم الغضب ان عمدوا الى ابواب الكنيسة فكسروها وقبضوا عليه وصاروا يسحبونه على الارض فى ازقة المدينة ويلعنونه ويسبونه حتى وصلوا به على تلك الحالة الشنيعة الى الميدان الذى يقتل فيه كل من استحق القتل فخرج رئيس الكنيسة وجميع الرهبان فى احتفال وبايديهم القربان المقدس قاصدين تسكين غضب الاهالى فما زادوهم الا غيظا وحنقا وكانوا كلما مروا به على دير يخرج رهبانه ويتضرعون للاهالى

سنة ١٥٢٢م

ويلتمسون منهم العفو عنه اوتركه حتى يعترف بذنوبه وخطاياه ويسأل الغفران لكن لم يجد ذلك شيأ بل صاحوا حينئذ قائلين لا يبرى من خان وطنه سوى يد الجلاد ثم سحبوه على الارض مع غاية القسوة حتى زهقت روحه وهو بين ايديهم فاخذوا جثته وعلقوها فى المشنقة العامة وجعلوا رأسه الى اسفل

وقد غضب كذلك اهالى مدينتى بوغوس و زاموره وعدة مدائن اخرى وارادوا ان ينتقموا من رسلهم الذين كانوا فى مشورة القورطس غير ان هؤلاء الرسل لما بلغهم ما صنع بسيء الحظ توردزيلاس هربوا فوقتهم خرق الاهالى التماثيل المصنوعة على صورهم وهدموا بيوتهم من اساسها والقوا فى النار جميع امتعتهم واثاثهم وكان ذلك عاقبة غضب الاهالى على هؤلاء الناس الذين اتهموهم بانهم خانوا الحرية العامة ولم تطمع نفس احد من الاهالى ان يأخذ شيأ من امتعتهم مع انها كانت محتوية على كثير من الاشياء النفيسة

مطلب الوسايط التى استعملها ادريان فى معاقبته

وكان ادريان اذذاك نائبا عن الملك فى بلاد اسبانيا وكان قد جعل دار اقامته مدينة والادوليدة فلما بلغه وقوع هذه الفتن امر فورا بجمع ارباب مشورته ليتذاكروا فيما يكون به تسكين تلك الفتن ونشر لواء الامن والاطمئنان بين الناس فوقع الخلف بين ارباب هذه المشورة فقال بعضهم

فى ٥ من شهر حزيران سنة ١٥٢٠م

يلزم استعمال القوة والقسوة لاجل اطفاء نيران تلك الفتن قبل ان يتسع الخرق على الراقع وقال آخرون يجب سلوك سبيل الرفق ولين الجانب لان غضب الاهالى فى محله من بعض الوجوه وابدوا انه لا يليق معاملتهم بمحض القوة والقهر لان ذلك يجر الى خطر عظيم فانه ربما ازداد عصيانهم وكبر طغيانهم وكان رئيس المشورة مطران غرناطة فاستحسن الرأى الاول وكان رجلا مشهورا ذا كلمة نافذة الا انه كان فيه حدة وحمية وصدق عليه الوزير ادريان لفرط حرصه على تأييد صولة سيده الايمبراطور شرلكان وابقاء دولته ولو عمل على مقتضى طبعه من شدة الخوف والرهبة والاحتراس لما وقع منه ذلك وصدر منه امر الى قاض من قضاة الملك يقال له رونكيلو ان

يسافر

سنة ١٥٢٢ يسافر حالا الى مدينة سيغوبية التي بدأت بنشر العصيان والقيام ليحكم
على المذنبين بما تقتضيه القوانين ووجه خلفه طائفة كبيرة من العساكر وكان
اهل هذه المدينة يعرفون طبع هذا القاضى حق المعرفة فادركوا انه سلك
فى معاملتهم مسلك الشدة والقسوة فاخذوا اهبتهم وحملوا اسلحتهم وغلقوا
ابواب المدينة فى وجهه فغضب من ذلك وحكم بانهم عاصون واهدر دماءهم
وتغلب مع عساكره على طرق المدينة ومنافذها ظنا منه انهم سيضطرون الى
مطلب التسليم فى اقرب وقت لفقد الزاد من عندهم وعدم الجالب لكنهم مع ذلك دافعوا
طرد عساكره فى مدينة عن انفسهم حق المدافعة حتى اتاهم الامير پاديلة من مدينة طليطلة
سيغوبية بطائفة كبيرة من العساكر فصدت القاضى المذكور وحلت عليه حملة منكرة
فالجأته الى الفرار واخذت جميع ما كان معه من المهمات والذخائر
الحربية
مطلب وبعد هذه الهزيمة صدر امر من ادريان الى انتواندوفونسيكة وكان
طرد عساكره فى مدينة الامبراطور شرلكان قد ولاه سرعسكر الجيوش الاسبانيولية ان يجمع
مدينة دلكمپو جيشا عظيما ليحاصر مدينة سيغوبية محاصرة مستكملة الاركان
والشروط وكان الوزير اكزيمنيس قد جعل فى مدينة مدينة دلكمپو
مخزنا كبيرا وملأه بانواع المهمات الحربية فاراد السرعسكر فونسيكة
ان يأخذ منه ما يلزم له فى تلك المحاصرة فلم يسلم له اهالى مدينة مدينة دلكمپو
فى ذلك ولم يستطيعوا ان يأخذ شيأ لهلاك ابناء وطنهم حيث ان هذه الاسلحة
معدة لتدمير اعداء مملكتهم من الاجانب ولما كان فونسيكة لا يمكنه
ان ينفذ اوامر ادريان بدون هذه المهمات عزم على التغلب على مخزنها
فى ٢١ من شهر اب ببعض القوة والقهر فاستعد سكانها للمدافعة وهجم على المدينة بكل
ما فى وسعه فلاقاه السكان بقلب لا يفزع وجنان لا يجزع وبتوا امام عساكره
فلما يئس فونسيكة من الظفر بهم ورأى انه لا يمكنه التغلب على المدينة امر
بوضع النار فى بعض بيوت منها حتى يترك السكان الاسوار ويشتغلوا بانقاذ
عائلاتهم وامتعتهم من الحريق فيسهل عليه اخذ المدينة لكن خابت آماله فانهم

سنة ١٥٢٢

لم يلتفتوا الى النار بل ازداد غضبهم منه ولم يزالوا يقاتلونه حتى هزموه وطردوه بالكلية هذا وكانت النار لم تزل تنتقل من زقاق الى آخر وتتسع في المدينة حتى كادت تجعلها رمادا وكانت هذه المدينة اذ ذاك من اعظم مدائن اسبانيا واكبر مخازن المحصولات الخارجة من فبريقات مدينة سيغوبية وغيرها من المدائن الكبيرة وكانت مخازنهم اوقتئذ مشحونة بالبضائع المعدة للبيع في سوقها لان زمنه قد قرب فاحترقت جميع هذه البضائع وكانت خسارة المملكة بذلك عظيمة وكان اهالي مملكة قسطيلة منذ زمن طويل قد نسوا اهوال الحروب المدنية فاشتد غضبهم حتى كنت تخال ان بهم جنة وصار فونسيكة مبغوضا عند الناس كافة وسموه محرق وطنه وعدوه والى ذلك الوقت كان سكان مدينة والادوليدة منقادين للايمبراطور فلم يخرجوا عن طاعته وكان يمنعهم من ذلك حضور ادريان بين اظهرهم لكن لما رأوا ما فعله فونسيكة بمدينة مدينة دالكمبو اظهروا انهم لا يستطيعون السكوت على ذلك وابناء وطنهم في اكبر المصائب فبادروا الى اسلحتهم لما قام بهم كغيرهم من الحمية الغضبية وحرقوا بيت فونسيكة وانتخبوا قضاة غير القضاة الذين كانوا موجودين اذ ذاك وجمعوا عساكر وجعلوا عليهم ضباطا ومكثوا يحافظون اسوار مدينتهم حتى كأن العدو واقف على ابوابها

مطلب
تسريح الكردينال ادريان للعساكر

ومن المعلوم ان الكردينال ادريان كان من اهل الفضائل والعفة خاليا عن الاغراض ولو كانت المملكة حينئذ خالية عن الفتن والتعصبات لامكنه ان يحكمها بطريقة مستحسنة توجب له المدح والثناء الا انه لم يكن مستكملا للشجاعة والمهارة التي كانت تستدعيها مقتضيات الاحوال اذ ذاك فلما علم انه لا يمكنه اطفاء نيران الفتن بطريق القوة والقهر اخذ يسلك مع الاهالي مسلك اللين والرفق ليستعطفهم ويسكن غيظهم ويثبت عندهم ان السرعسكر فونسيكة قد جاوز الحد فيما امر به وانه يعني نفسه قد لحقه غم شديد من الفعال القبيحة التي ارتكبها هذا السرعسكر ولكن لما كان هذا الاستعطاف ناشئا عن عجزه وعدم اقتداره لم يزد العاصين الا طغيانا وبغيا فامر بعد ذلك بقليل

السر

السرعسكر فرنسيكة ان يرجع من الجهة التي كان فيها وسرح العساكر سنة ١٥٢٢
لانه كان لا يمكنه ان يدفع لهم ماهياتهم لما ان خزائن المملكة
كانت قد نفدت باختلاس الوزراء الفلمنكيين وكانت المدائن الكبيرة لم تزل
متعصبة عليه فعلم انها لا تساعده ادنى مساعدة ولا تعطيه شيأ من الاموال
يستعين به وترك الاهالى يفعلون ما بدا لهم حتى لم يبق له عندهم من الشوكة
والصولة سوى خيالها

ولم يكن خروج تلك الجمعيات البلدية من قبيل الغضب الوقتى الذى يطرأ على مطلب
امة مثلا حتى اذا خمدت ناره ترجع الى طاعة حكامها بل كان مبنيا على مآرب مقاصد الجمعيات البلد
جسيمة ومقاصد مهمة عظيمة وهى ابطال عدة مظالم كانت موجودة فى مملكة قسطيلة ودعوا
بالمملكة اذ ذاك واقامة دعائم الحرية العمومية على اساس متين بحيث
لا يعتريه فيما بعد تزلزل ولا اضطراب ولا شك ان هذه المقاصد حرية بما بذله
الاهالى فى شأنها من الجد والاجتهاد ومنشأ ذلك هو ان الحكومة الالتزامية
فى بلاد اسبانيا كانت حينئذ تلايم الحرية اكثر مما فى غيرها من ممالك
اوروبا وكان السبب الاصلى فى ذلك هو كثرة المدائن الحرة بتلك المملكة
كما نبهنا عليه فيما سبق وهو الذى اعان اكثر من غيره على تلطيف الحكومة
الالتزامية فى هذه المملكة واضعف شدة قوانينها وسهل صعوبة احكامها
وجعل تلك الحكومة فى بلاد اسبانيا اعدل والطف مما كان فى غيرها
من الممالك الافرنجية فكان سكان كل مدينة وجاقا واحدا كبيرا له مزايا جمة
وخصوصيات مهمة وكانوا معافين من الرق والتبعية وكان لهم مدخل عظيم
فى التشريع ووضع القوانين وكانوا بمكان من الفنون والصنائع التى بدونها
لا يستقيم حال اى مدينة كانت وكانوا على غاية من الغنى والثروة لعظم
تجاراتهم واتساع دائرتها وبالجملة فكانوا احرارا مستقلين بانفسهم ليسوا
اتباعا لغيرهم ولذلك كانوا حفظة على الاستقلال وانصار الحرية العمومية
لا سيما وكانت حكومتهم الداخلية مبنية على شعائر الحكومة الديموقراطيقية
والحكومة الجمهورية فكانت الحرية عزيزة عندهم بحيث لا تسوغ لهم

سنة ١٥٢٢م

انفسهم ان يفرطوا فيها الا فى تفريط ولا ريب ان الحكومة اذا كانت بهذه المثابة تكون الحرية عزيزة عند اهلها ولو كان حاكمها مطلق التصرف ولذا كانت عادة وكلاء الاهالى ببلاد اسبانيا انهم متى حضروا مشورة القورطس التى هى مشورة العموم يناقضون الملك فيما لم يستحسنوه من مشروعاته ومقاصده ويعارضون الاشراف والاعيان حتى لا يلحق الاهالى ضرر من ظلمهم وجورهم وكانوا دائما يجنحون الى مافيه توسيع دائرة مزايا الاهالى وخصوصياتهم ويبذلون جهدهم فى محو المضار التى كانت باقية من شعائر الحكومة الارستوقراطية اى الالتزامية ولم يكتفوا بانهم كانوا من اعظم الطوائف فى الدولة بل كانوا يتطلبون ان يكونوا اقواها شوكة

مطلب معاهدة الجمعيات البلدية المشهورة بالمعاهدة او العصبة المقدسة

وكان يظهر لهم اذ ذاك ان مقتضيات الاحوال تعينهم اتم الاعانة على تنجيز مشروعاتهم التى كانوا عازمين عليها الان ملكهم وهو الامبراطور شرلكان كان حينئذ بعيدا عنهم وكان قد نزع حبه واعتباره من قلوب رعاياه لقبح سلوك وزرائه فلما سئمت نفوس الاهالى من عدة مظالم حلت بهم من طرف الحكام شهروا السلاح واخذوا فى العصيان وان كانوا لم يدبروا امرهم من قبل وكان غضبهم شديدا بحيث كان يمكن ان يفضى بهم الى مجاوزة كل حد وغاية لاسيما وكانت الخزينة الملوكية قد نفدت اموالها وكانت المملكة خالية من العساكر والجيوش وكانت الحكومة بيد رجل اجنبى ليس عنده من المعارف ما يكفى فى القيام باعباء المملكة وان كان صاحب فضائل وخصال حميدة واول شئ فعله الامير پاديلة وبقية رؤساء العصبة الذين كانوا يلتفتون كل الالتفات الى ما تقتضيه الاحوال اذ ذاك حتى لا يضيعوا ما يلوح لهم من الفرص هو انهم جددوا بين العصاة نوع معاهدة به امكنهم ان يتموا امورهم بدون اختلال واختلاف وان يكون مطمح نظرهم واحدا وحيث ان الاسباب التى حملت المدائن على الخروج والعصيان كانت واحدة بل وكانت تلك المدائن ترى نفسها انها اوحاق ممتاز عن بقية الرعايا امكن للامير پاديلة وغيره من بقية رؤساء العصبة ان يبلغ مرامه بدون مشقة وتعين لهذا الشان مشورة عامة فى مدينة آويلة وحضرها

وسل المدائن التي كان لها الحق في ارسال وكلاء بمشورة القورطس وتحالفوا جميعا على ان يحيوا او يموتوا على خدمة ملكهم وحماية مزايا حريتهم وخصوصيات طائفتهم وتسموا من وقتئذ باسم المعاهدة المقدسة واخذوا يتذاكرون في شأن مصالح الاهالي وما ينبغي ابطاله من المظالم التي كانت موجودة اذ ذاك بمملكتهم فكان اول شيء افتتحوا به مذاكراتهم هو عدم اقرار الاجنبي على نيابة مملكتهم قائلين ان ذلك مخالف لاصول المملكة وانحط الرأى على ان يبعثوا الى الوزير ادريان وكان هو النائب وقتئذ رسلا من طرفهم يأمرونه بالنزول عن الكرسي الملوكي وان لا يتشبث من الآن فصاعدا بشيء من امور الدولة لانهم لا يقرونه على ذلك ولا حق لاحد من اقرارهم

مطلب قبضهم على الملكة حانة ام الامبراطور شرلكان ٢٩ من شهر آب

وبينما كانوا يأخذون اهبتهم لتنجيز هذه الهزيمة الجسيمة اذ حصل ان الامير بادياه بت امر مشروع جسيم هو من اعظم المشروعات فائدة في اعانتهم على تتميم ما ربهم وذلك ان هذا الامير بعد ان انقذ مدينة سيغوبية توجه الى مدينة توردزيلاس وكانت بها الملكة حانة منذ مات زوجها فيليبش وكانت دائما بين احزان واشجان وتقرح اجفان فبذل هذا الامير جهده واعانه السكان حتى دخل تلك المدينة وقبض على الملكة حانة وكان الوزير ادريان قد اهمل في حفظها حتى تكون آمنة من مثل هذا الامر فبمجرد دخول الامير المذكور هذه المدينة ذهب لزيارة الملكة فلما امتثل بين يديها مع الاحترام والادب التام الذي كانت توجبه على بعض افراد كانت تأذن لهم بالدخول عندها قص عليها تفصيلا الحالة المحزنة التي حلت برعاياها القسطيليين تحت حكم ولدها شرلكان لانه لصغر سنه وقلة تجاربه واختباره للامور جعل عليهم وزراء من الاجانب شددوا عليهم كل التشديد واساؤهم كل الاساءة حتى سئمت نفوسهم وضاقت عليهم الارض بما رحبت فاظهروا العصيان وشهروا السلاح ليدافعوا عن حرية بلادهم فلما سمعت الملكة ذلك انتعشت كأنها افاقت من عتهها وتحسرت على سوء حال رعاياها واخبرته بانها الى الان لم يبلغها موت ابيها فرديننند ولا ما حل

برعاياها من الضنك فاذن لا لوم عليها ولكنها من الآن فصاعدا انهم باصلاح
تلك المقاسد ويمحق تلك المظالم والمكايد وكان آخر كلامها معه أن قالت
حافظ ايها الامير على فعل ما فيه المصلحة العامة للرعايا وكان بادية يصدق
عاجلا بما يلايم بغيته ويوافق منيته فاعتقد انه عاد اليها عقلها لا محالة واخبر
بذلك رسل العمالات اى وكلاء المملكة ودعاهم الى المجيء الى مدينة
توردز يلاس ليعقدوا مشورتهم بها فبمجرد ما وقف الوكلاء على هذا الخبر
ذهبوا الى تلك المدينة وتحولت الدعاوى اليها وتلقت الملكة على وجه حسن
تقريرا عرضته عليها العصبة المقدسة يتضمن تضرع تلك العصبة اليها ان تأخذ
بعنان المملكة فرضيت حانة بذلك وكانت علامة رضاها انها اذنت لوكلاء
المملكة أن يقبلوا ايدها بل وحضرت ايضا ملعب التورنواس الذى نصب
لهذا الشان وظهر عليها كل السرور من رؤية هذا الملعب لاسيما وكانوا لاجل
شرح صدرها قد اظهروا فيه فنونا عجيبة وفروعا مرغوبة غريبة لكنها بعد
ذلك بقليل عادت الى عتهها واختلال عقلها ولم يمكن بوجه من الوجوه
ان يستميلها احد الى وضع امضائها على شيء من مصالح الدولة
فاخذت حينئذ العصبة المقدسة تخفى هذا الخبر واستمرت على ادارة المملكة
باسم الملكة حانة لان اهل قسطيلة كانوا يحبونها حبا جما لما كان لهم
من المحبة الصادقة فى امها الملكة ايزابيلة فبمجرد ما بلغ الاهالى ان الملكة
حانة رضيت باخذ عنان المملكة ظهرت عليهم علامات الانشراح والفرح
وزال عنهم بذلك كل هم وترح ولما اعتقدوا انها افاقت حقيقة من عتهها
وخبالها زعموا ان الله سبحانه وتعالى لم يقض بذلك الا لكونه اراد انقاذ المملكة
من ظلم الاجانب ولما رأت هذه العصبة انه قد صار لها شهرة عظيمة وصولة
جسيمة باظهارها انها تحكم الدولة باسم الملكة حانة طلبت من ادريان ان
يتخلى عن نيابة المملكة ولا يتشبث بشيء من امور الدولة وارسلت كذلك بادية
الى مدينة والادوليدة ومعه سرية عظيمة من العساكر وامرته ان يقبض
على كل من كان باقيا فى هذه المدينة من ارباب المشورة الملوكية ويحضره معه الى

مطلب
ادارة المملكة باسمها

سنة ١٥٢٢ م

مدينة توردبزيلاس ويأتى معه ايضا بأختام المملكة ودفاترها ودفاتر الخزينة فحين وصول بادلة الى مدينة والادوليدة رحب به اهلها وتلقوه كأنه منجى الوطن وحاميه وفعل بادلة كما امرا لا انه اذن للوزير ادريان بالاقامة فى مدينة والادوليدة كما حاد الناس.

مطلب
تأسف الايبراطور وغمه

وكان الايبراطور حينئذ ببلاد الفلمنك وكانت تأتيه الاخبار بكل ما يحصل فى بلاد اسبانيا وعرف حقيقة الخطاء الذى ارتكبه وزراؤه وبكونهم مكثوا زمنا طويلا وهم يحتقرون تشكى اهل قسطيلة ولا يقبلون منهم صرفا ولا عدلا فكان فى حيرة كبيرة وغم عظيم حيث كان يرى ان تلك المملكة التى هى اعظم ممالكه واصل شوكته وصولته كادت تخرج عن طاعته وتقع فى المصائب العظيمة والاهوال الجسيمة التى تنشأ عن الحروب الداخلية والفتن المدنية وكان من الممكن ان حضوره يسكن تلك الفتن ويمنع تلك المصائب الا انه كان لا يمكنه حينئذ ان يرجع الى اسبانيا خوفا من ان يضيع منه التاج الايبراطورى لانه اذا غاب يسهل على خصمه فرنسيس الاول أن يتمم مقاصده ويفوز باغراضه فرأى انه لا يمكنه ادخال اهل قسطيلة تحت الطاعة الا باحد امرين اما ان يستميلهم بالعطايا ويسلك معهم مسلك الرفق واللين او يأخذهم بالقهر ومحض القوة لكنه لم يصمم على واحد منهما بعينه بل صار يتردد بينهما حتى ظهر له ان الاوفق ان يتبع الامر الاول ليعلم ما يترتب عليه وان يتأهب فى اثناء ذلك ويستعد للامر الثانى اذا لم ينجح الاول فكتب لسائر

مطلب
ما دبره فى شأن العاصين

مدن قسطيلة عبارات عذبة رقيقة يعدهم فيها بعطايا جزيلة ومزايا جليلة اذا هم القوا السلاح واقلعوا عن العصيان ووعدهم انه لا يطلب من المدائن التى لم تعص المغرم الذى انحط عليه الرأى فى مشورة العموم المنعقدة اخيرا وكذلك جميع المدائن التى ترجع الى الطاعة وتترك التشبث بالعصيان والقيام والتزم انه من الآن فصاعدا لا يولى اجنبيا على مملكة قسطيلة ولا يعطى مناصبها الا لاهلها وكتب ايضا الى الملتزمين والاشراف يحرضهم على الجد والاجتهاد فى المدافعة عن حقوقهم وحقوق الملك من تعدى الجمعيات البلدية

سنة ١٥٢٢

ودعوا اهلها واقام مع الوزير ادريان اثنين آخرين فى نيابة المملكة وهما الاميرال الاكبر (قبودان باشا) فدريق هنريكيز والامير انيغو دوبلاسكو سرعسكر قسطيلية وكل من هذين الاميرين كان له معارف غزيرة وصولة كبيرة وعين لهم اصولا يعملون عليها ورخص لهم ان يسلكوا سبيل القهر والغلبة فى تأييد الشوكة الملوكية ان ازداد العاصون بغيا وعتوا ولم ينفع معهم الاخذ بالرفق واللين والمعاملة بالتى هى احسن

مطلب تقرير العصبة المقدسة المشتمل على شكاويهم والمظالم التى يريدون رفعها عنهم

ولاشك ان المزايا والاقطاعات التى سمحت نفسه حينئذ باعطائها كانت تكفى فى ارضاء خواطر الاهالى لو فعل ذلك حين سافر من اسبانيا ولكنه فعله فى غير وقته فلم ينشأ عنه ثمرة وذلك ان جميع الاهالى اقروا العصبة المقدسة وكانوا ظهيرا لها وكانت قد قويت همة تلك العصبة وازداد عزمها بما حصل لها من النجاح فى مشروعاتها لاسيما وكانت لاترى للدولة عساكر وجنودا قادرين على قمعها ومنعها عن تنفيذ مقاصدها فارادت حينئذ ان ترفع مظالم الدولة وتمنع الاجحاف بحقوق الاهالى فمكثت مدة وهى تحرر تقريرا مشتملا على تلك المظالم التى تريد رفعها وعلى جميع الاصول والقوانين التى رأت ان ترتيبها لازم فى اثبات مزايا الجمعيات البلدية وتعضيد حقوقها وكان هذا التقرير مؤلفا من عدة بنود تخص ارباب الدولة ودواوين الادارة والتدبير فهو يفيدنا مقاصد العصبة المقدسة افادة اصح وأكد من معاينة المؤرخين الاسبانيوليين المتأخرين لانهم كانوا فى عصر جرت العادة فيه ان المؤلف اذا اراد تدوين تاريخ امة او قبيلة عاصية يطرى فيما حصل منها ويصف افعالها واطوارها بكل كريهة ويبالغ فى الاسباب التى حملتها على الخروج والعصيان فهو لايذكر شيأ على حقيقته *وصورة هذا التقرير انه صدر بمقدمة طويلة مشتملة على المصائب الكبيرة والاهوال الكثيرة التى كان يكابدها الاهالى وعلى اختلال حكومة اهل الدولة وفسادها وقبح ادارتهم الذى هو السبب فى جميع تلك المصائب ثم بين ان الاهالى قد تحملوا ما لا طاقة لهم عليه حتى عيل صبرهم ورأوا ان مصلحة انفسهم ومصلحة وطنهم توجب عليهم أن يجتمعوا كلهم ويتفقوا جميعا على تدبير

امر موافق مستحسن يحق اتباعه فيه علونه ويأمنون به على انفسهم وعلى بقاء سنة ١٥٢٢
القوانين المبنية عليها مملكتهم وصونها عن الخلل والفساد فكتبوا ان الملك يجب
عليه ان يرجع الى مملكة اسبانيا ويجعلها دار اقامته كسلفه من الملوك
الذين حكموا على تلك المملكة ولا يجوز له ان يتزوج الا برضاء مشورة وكلاء
المملكة وانه ان اضطر بموجب مقتضيات الاحوال الى الغيبة عن المملكة
لا يجعل نيابتها في يد احد من الاجانب الذين ليسوا من اهلها وان تقليد
الكردينال ادريان بهذا المنصب لم يقره الاهالى بل عزلوه منه وانه يجب
على الملك عند رجوعه الى اسبانيا ان لا يصحب معه احدا من الاجانب
سوآء كان فلمنكيا او غير فلمنكى وان لا يدخل ابدا عساكر من الغرباء في المملكة
باى وجه كان ولا باى علة كانت وان غير اهل اسبانيا لا يجوز ان يعطى
لهم منصب او وظيفة في الدولة او في الكنيسة وانه لا يجوز اندراج احد من
الغرباء في جريدة السكان المتأصلين بحيث يعد منهم وتعطى له الوثيقة اللازمة
لذلك ولا يجوز من الآن فصاعدا ان تكون سكنى العساكر مجانا وان لا يسكن
بيت الملك بالعساكر الا مدة ستة ايام بشرط ان يكون ذلك وقت سفر الديوان
الملوكى وجميع الفرد والغرامات ترجع الى ما كانت عليه حين موت الملكة
ايزابيلة ويجب أن ترد سائر الاشياء التي خرجت من ايراد الملك ومن الجفالك
والاراضى الملوكية بعد موت هذه الملكة سوآء كان خروج هذه الاشياء
وانتقالها ببيع او تبرع او غير ذلك ويجب ابطال سائر المناصب والوظائف
التي حدثت بعد وفاتها وان لا يؤخذ من اقليم جليقية المسمى غاليسة
الاعانات التي رضيت بها مشورة وكلاء المملكة وان كل مدينة من الآن
فصاعدا تبعث في كل مشورة عموم تنعقد وكيلا ينوب عن طائفة القسوس
ووكيلا ينوب عن طائفة الاشراف ووكيلا ينوب عن طائفة الاهالى وكل
من هؤلاء الوكلاء الثلاثة تنتخبه طائفته ولا مدخل للديوان مباشرة
او بواسطة في انتخاب هؤلاء الوكلاء ولا يجوز لاحد من ارباب مشورة العموم
ان يقبل وظيفة او مرتبا يعطى له او لاحد من اقاربه من طرف الملك ومن خالف

ذلك عوقب بالقتل وضبطت جميع امواله لجانب الديوان ولكن يجب على كل سنة ١٥٢٢
مدينة او جمعية بلدية ان تدفع لوكيلها ما يليق بمصاريف مدة اقامته بمشورة
العموم ويلزم ان مشورة العموم تجتمع فى كل ثلاث سنوات مرة فاكثر سوآء
دعاها الملك اولم يدعها واذا انعقدت تلك المشورة ثم تذاكرت فى شأن المصالح
العامة ابتدأت فى التفسير هل عمل فيها بمقتضى هذا التفسير ام لا ويلزم
الرجوع فى كل مكافأة اعطيت او ستعطى لارباب مشورة وكلاء اقليم جليقية
ولا يجوز ان يخرج من مملكة اسبانيا ذهب ولا فضة ولا حلى ومن اخرج
شيأ من ذلك كان عقابه القتل ويعين للقضاة شئ معلوم حتى لا يأخذوا شيأ من
المغارم التى تضرب على المذنبين ولا من اموال اصحاب الجنايات الكبيرة التى
تضبط اموالهم وتضم لجانب الديوان وكل ما وقع التبرع به من الاموال من
المتهمين فهو باطل مالم يكن تبرعهم به قبل الحكم عليهم وكل مزية ثبتت
للاشراف فى اى زمن كان يجب الرجوع فيها متى كانت تضر بالجمعيات
البلدية ولا يجوز من الآن فصاعدا ان تعطى حكومة المدن للاشراف ويجب
ان يضرب على اراضيهم جميع ما يضرب على اراضى الجمعيات البلدية من
العوايد والجرائم العمومية ويجب ايضا البحث عن كيفية سلوك كل من انيط
بادارة الاراضى والاملاك الملوكية الوراثية من وقت استيلاء الملك فردينند
على الكرسى وان لم يعين الملك فى ظرف ثلاثين يوما لهذا الشأن اناسا يصلحون
كان لمشورة العموم الحق فى تعيين من يصلح ولا يجوز اذاعة الغفران ولا الوعظ به
فى المملكة الا بعد ان تبحث مشورة العموم عن الاسباب المبنى عليها هذا الامر
وتجرى ما تستحسنه وجميع النقود التى تحصل من بيع الغفران ان تصرف
فى المحاربة مع المسلمين اعدآء دين النصرانية وكل قسيس لا يمكث فى ابرشيته ستة
اشهر من كل سنة يحرم من ايراده المدة التى غابها والقضاة القسيسون واتباعهم
لا يطلبون الا قدر المبلغ الذى يدفع فى دواوين اللاييك وحيث ان مطران
طليطلة الآن اجنبى يجب عزله واعطاء منصبه لواحد من اهل قسطيلة
ويجب على الملك ان يقر جميع ما تفعله العصبة المقدسة ويعده نصحا له وللامة

سنة ١٥٢٢م

باسرها وان يعفو عما ارتكبته المدا آن لفرط غيرتها على حقوقها لانه اصلا
صحيحا وان يحلف انه يفعل بموجب هذه البنود ولا يتعداها ولا يحاول ابدا
ابطالها ولا يتساهل وانه لا يتضرع ابدا الى البابا اوالى قسيس آخر يأذن له
في الحنث في هذا اليمين ليخلص من وزره بحيث لا يكون مطالبا به

مطلب
تولع تلك العصبة بالحرية وغيرتها عليها

فهذه هي البنود الاصلية التي احتوى عليها هذا التقرير الذي قدمته العصبة
المقدسة لملكها شرلكان وحيث ان القوانين والرسوم الالتزامية كانت
في الاصل متحدة في سائر الممالك الافرنجية كانت الحكومات المبنية على اصول
المذهب الالتزامي تميل الى مآرب واحدة تقريبا فالقوانين التي كان اهل
قسطيلة حينئذ يسعون في انشائها بمملكتهم كانت تخالف قليلا القوانين
التي اهتمت بانشائها الملل الاخرى عند منازعاتها ومجادلاتها مع ملوكها
في شان الحرية فالمظالم التي تشكت منها الجمعيات البلدية في بلاد انكلترة
حين تنازعت مع امرآء عيلة ستوار الملوكية والقوانين التي رتبتها تلك الجمعيات
لابطال هذه المظالم هي اقرب شبها بالاصول والقوانين التي كانت العصبة
المقدسة حينئذ تدقق في طلب انشائها بمملكة اسبانيا الاان اهل اسبانيا
كانوا من ذلك الوقت يعرفون للحرية والاستقلال قيمة غالية واهمية عالية
وكان لهم في السياسة مجال عظيم ودآئرة واسعة لم يصل اليها الانكليز الا بعدهم
بقرن كامل

مطلب
سبب تكدر طائفة الاشراف

ومع ذلك فالظاهر ان النسخ لما اشتهر بين اهل قسطيلة واشرب في قلوبهم
حبه لم يمكن للدولة ان تمنعهم عن اتباعه تجاوز الحدود حتى حمل العصبة
المقدسة على ان تطلب انشاء امور جديدة عادت عليها بالضرر والسوء حيث
نفرت منها قلوب الطوآئف الاخرى وسبب ذلك هو ان الجمعيات البلدية
مادامت لا تطلب الا ابطال المظالم الناشئة عن عدم اختبار الملك وقلة
تجاربه لصغر سنه اوعن طمع الوزرآء الاجنبيين وعدم حسن اداراتهم كان
الاشراف لا يتصدون لها ولا يعارضونها بل كانوا يساعدونها في مشروعاتها
ومن لم يكن يساعدها منهم كان يغضي عما تفعله ولكن بمجرد ما اخذت تلك

سنة ٢ ٢٥٣ ١٠

الجمعيات فى خدش مزايا الاشراف غضبوا كل الغضب وعرفوا حق المعرفة ان اعمال العصبة المقدسة تجرّ الى ابطال شوكة الاشراف كما تجرّ الى تضييق مزايا الملك نعم وان كان الاشراف فى حنق عظيم من تولية الكردينال ادريان نائبا عن الملك فى المملكة الاان هذا الحنق تناقص منذ اشرك الاعمبراطور مع ادريان فى منصب النيابة الاميرين المشهورين المتقدمين وهما سر عسكر البروسر عسكر البحر لاسيما ورأى الاشراف ان اتساع دائرة مزايا الملك لايحط بقدرهم كدعوى الاهالى العريضة الزائدة عن الحد فعزموا على ان يعطوا للملك الامدادات التى كان يطلبها واخذوا فى جمع اتباعهم لتنفيذ هذا المقصد هذا وكانت العصبة فى جزع وقلق وهى فى انتظار جواب الملك عن مضمون التقرير الذى بعثته لتعرضه عليه مع رسل مخصوصين من طرفها فبمجرد ما اخذ الرسل التقرير سافروا بدون تراخ ولا مهلة الى بلاد المانيا الا انهم وهم فى اثناء سفرهم جاءتهم النصائح من عدة جهات انهم ان ظهروا فى الديوان الاعمبراطورى ببلاد المانيا يخشى عليهم ان يكونوا عرضة للهلاك فامسكوا عن السفر وبعثوا يخبرون العصبة بذلك فلما وصل هذا الخبر الى العصبة اشتد غضبها حتى جاوزت حدود ما يوجبه الحزم والكياسة واصالة الرأى وحسن السياسة

مطلب
عدم تجاسر رسل العصبة على عرض التقرير الذى هم مبعوثون به الى الملك * فى ٢ من تشرين الاول

فلما سمعت انه يخشى على الرسل المبعوثين من طرفها الى الملك تعجبت كل العجب حيث لم يسبق فى العادة ان احدا من ملوك قسطيلة أبى ان يسمع شكوى رعاياه ورأت ان ذلك هو الظلم الذى لم يسمع بمثله ولا طاقة على تحمله وعلمت انه لا ينقذها من هذا الظلم الشنيع الا السلاح وهو الذى يمكنها ان تبعد عن الملك سائر الغرباء الذين كانوا محدقين به حيث انهم لم يكتفوا بسلب اموال المملكة بل بعد أن اكلوا اموالها وافسدوا احوالها ارادوا ان يمنعوا اهلها عن الذهاب الى الملك ولا يمكنوهم من الوصول اليه حتى يبثوا اليه شكواهم ويبينوا له الجهة التى يحصل لهم منها الضرر ومن وقتئذ اختلفت آراء ارباب العصبة فمنهم من يشدد فى العمل بموجب رأى كان قيل به قبل ذلك وهو ان شرلكان

مادامت امه فى قيد الحياة لا يثبت له لقب الملوكية على قسطيلة ولا يجرى سنة ١٥٢٢م
له امر عليها وان اقراره على هذين الامرين لم يكن مبنيا الا على ظن ان المملكة
شانه امه لا اقتدار لها اصلا على القيام بادارة المملكة ومنهم من راى انها تزوج
باسير كلابرة وارث ملوك نابلى الذين هم من عائلة اراغون الملوكية
ليعينها فى الادارة وكان الملك فرديننند قد افتات على اجداد هذا الامير وتغلب
على ملكهم ووضع هذا الامير فى السجن فلم يزل مسجونا حتى حصلت تلك الفتن
ورأى الجميع انهم قد اخطأوا فى كونهم املوا ان الملك سينصفهم ويثبت لهم
حريتهم وفى كونهم اقتصروا على عرض تقرير يتضمن شكواهم وانحط رأيهم
على انه يجب الخروج عن الطاعة وان يجمعوا سائر قواهم ليحاربوا كلا من
حزب الملك والاشراف ولا يفرطوا فى حريتهم

وبرز من الاهالى فى ميدان الحرب عشرون الف رجل الا انه حصل بينهم
منازعة كبيرة فى شأن من تكون له رياسة الجيش وكان الاهالى والعساكر
يحبون الامير پاديلة فاتفقوا على انه هو الجدير بشرف هذا المنصب ولكن
كان هناك امير آخر من ذوى الحسب والنسب وهو الامير پدروجيرون ابن
القونتة اوروثة البكرى وكان هذا الامير قد غضب من الامبراطور
شرلكان فانضم الى حزب الجمعيات البلدية فنزل له پاديلة عن هذا
المنصب نظرا الى جلالة قدره وعراقته فى الحسب والنسب الملايمة للمنصب
المذكور لاسيما وكان هناك جماعة من ارباب العصبة يغارون من پاديلة
لميل الاهالى اليه وملاطفته اياهم فلاجل اغاظته اقتضى رأيهم تولية
پدروجيرون فعما قليل حين حلت بهم المصائب وخسروا خسرانا كبيرا
عرفوا انه ليس اهلا لهذا المنصب حيث لم يكن جامعا لما يلزم له من التجاريب
والشجاعة والمعارف والبراعة

واما نواب المملكة فجعلوا مدينة ريوزيكو موعدا لاجتماع عساكرهم
وكان هؤلاء العسكر دون عساكر الجمعيات البلدية عددا الا انهم كانوا
يفوقونهم فى الشجاعة والمهارة والفنون الحربية وذلك ان النواب اخذوا

سنة ١٥٢٢

من مملكة نوار العساكر المشاة القديمة بجمعوا منها وجاقا عظيما وكان اعظم قواهم الخيالة حيث كان فرسانهم مؤلفين من الأشراف والبيكزادات المتعودين على الحرب العارفين باصوله وفروعه وكانوا بمكان من الشجاعة بمعنى انهم كانوا حائزين لتلك الصفة التي امتاز بها وجاق الاشراف في ذلك العصر واما مشاة العصبة المقدسة فكانت كناية عن اخلاط من الاهالى والصنائعية لا معرفة لهم باستعمال السلاح ولا يحسنون الضرب وكانت خيالتها قليلة ومتجمعة من اخلاط من رعاع الناس لا المام لهم باصول الخيالة ولم يسبق لهم ركوب الخيل وكما كان هنالك بون بعيد بين عساكر الجيشين كان هنالك ايضا فرق كبير في الادارة والمعارف بين سرعسكر حزب الملك وسرعسكر حزب الاهالى لان جيش الملك كان رئيسه القونتة هارو ابن الامير انيغودو بلاسكو البكرى سرعسكر الجيوش البرية القسطيلية وكان هذا القونتة لكثرة تجاربيه ومزيد اختبارمله اقتدار عظيم ورأى سديد قويم يحل كل مشكل ويفض كل معضل

مطلب
عدم حزم سرعسكر العصبة وهزيمته

فتوجه الامير جيرون بجيشه الى مدينة ريوزيكو وتغلب على ما حولها من القرى والطرق ظنا منه ان احزاب الملك بعد سد تلك الطرق عليهم يضطرون عاجلا الى التسليم لعدم الزاد وانهم ان قاتلوا يهزمون ويلحقهم الضرر والخسران لانهم لم يجمعوا سائر عساكرهم ولكن كان يلزم لهذا الامير أن يكون عنده من المعارف اكثر مما كان عليه كما ان عساكره كان يلزم لهم من التجلد والضبط والربط اكثر مما كانوا عليه حتى يثبت لهم النجاح في هذا التدبير واما القونتة هارو فانه ادخل في المدينة بدون كبير مشقة امدادا عظيما من سائر قراقولات الامير جيرون فلما يئس جيرون المذكور من التغلب على تلك المدينة توجه سريعا الى ويلاپندة وهي مدينة تنسب الى سرعسكر الجيوش البرية المتقدم وكانت اعظم المخازن المودعة بها ذخائر العدو وكان هذا الامر المبنى على عدم الحزم وقلة السياسة سببا في فتح طريق لاحزاب الملك الى مدينة توردبزيلاس حيث وصل بهم اليها القونتة

سنة ١٥٢٢
٥ من شهر كانون الاول

هارو ليلا مع غاية السرعة من غير أن يشعر بهم احد وهجم على المدينة المذكورة وكان جيرون لم يترك من المحافظين غير الاى من القشوس جمعه الاسقف زامورا ودخلها بالقهر والغلبة وقت الفجر بعد أن قاومه محافظوها مع التجلد والثبات وقبض على الملكة واسر عدة من ارباب العصبة واسترجع خاتم الدولة الكبير وغيره من العلامات الملوكية

فكان خطر هذا الامر شديدا على العصبة حيث ترتب عليه ضياع ما كان لها من الصولة والشهرة بإظهارها انها لا تعمل الا باوامر الملكة وانضم الاشراف الى حزب الملك واتحدوا اليه بجميع اتباعهم وعساكرهم وكانوا الى ذلك الوقت لم يميلوا الى احد من الفريقين فتسلط الاسف والحزن على جميع من كان من احزاب الجمعيات البلدية وازداد غيظهم باساءة ظنهم في رئيسهم جيرون حيث اتهموه بانه هو الذى سلم للاعداء في مدينة توردزيلاس والظاهر انه بريء من ذلك لان نجاح احزاب الملك انما كان من سوء ادارته لا من خيانته ولكنه لم يبق على ما كان له من الصولة ونفوذ الكلمة في قومه فرأى انه مضطر الى النزول عن رياسة العساكر والعزلة عن الناس في قصر من قصوره ففعل ذلك

مطلب
تصميم العصبة على رايها الاول

ثم ان من نجا من ارباب العصبة في مدينة توردزيلاس فر الى مدينة وللادوليدة ومكثت العصبة زمنا طويلا تبحث عن اناس تقيمهم مقام من اسر منهم فانتخبوا جماعة من بينهم قلدوهم بالادارة العليا وكان جيشهم يزداد كل يوم بمن كان يأتيهم من العساكر من سائر اقطار المملكة فلما عظم هذا الجيش توجه الى مدينة وللادوليدة وكانوا قد جعلوا الامير بادبلة سر عسكرهم وعادت للعسكر قوتهم وشهامتهم ونسى حزب الجمعيات البلدية جميع ما حل بهم من المصائب والشدائد واستمروا على قوتهم الاصلية في المدافعة عن حرية الوطن وظهروا البغضاء للذين كانوا يظلمونهم ويهتكون حرمة حقوقهم

سنة ١٥٢٢

مطلب
ما فعلته العصبة لاجل تحصيل الدراهم

واعظم ما كان يوجب الحيرة لتلك العصبة هو طريق تحصيل الدراهم اللازمة لصرف ماهيات العساكر لان الفلمنكيين كانوا قد نقلوا الى خارج المملكة مبلغا جسيما من النقود المتعامل بها وما كان يؤخذ في زمن الصلح من المغارم كان قليلا جدا وكانت محصولاتهم تتناقص يوما فيوما لان الحرب عطل تجاراتهم على اختلاف فروعها وكانوا يخشون ضجر الاهالي ونفرتهم اذا هم ضربوا عليهم مغارم جديدة لم يكونوا متعودين عليها في هذا الوقت الا انه كان للامير بادية زوجة من الاشراف يقال لها الاميرة مارية باشيكو وكانت ذات معارف وكان امرها غريبا في الطمع والشره الا انها كانت تميل كل الميل الى حزب العصبة فبذلت جهدها حتى اخرجته من تلك الورطة على احسن حال وذلك انها كانت ذات جسارة كبيرة وكانت سالمة مما انطبع عليه النساء من الاوهام الباطلة والبدع العاطلة فصممت على اخذ النفائس التي كانت بكنيسة مدينة طليطلة لاجل الزخرفة والزينة من ذهب وفضة وغير ذلك الا انها رأت ان ذلك ربما نفر نفوس الاهالي واوجب سخطهم وغضبهم لانه يظاهر من المآثم الكبيرة وربما اغضبت الناس كافة فسلكت في ذلك مسلك المداهنة والخداع لتسلم من غضب الاهالي اولومهم وذلك انها ذهبت مع خدمها وحشمها في محفل عظيم الى الكنيسة وهي تبكي وتضرب صدرها هي وسائر اتباعها حتى وصلوا الى الكنيسة وهم على هذه الحالة وعليهم ثياب الحزن فلما دخلوا الكنيسة خروا ساجدين وطلبوا العفو والغفران من القديسين الذين بهذه الكنيسة فنجت بتلك الحيلة الاميرة من غضب الناس ولم يحكموا عليها بالكفر في نظير هذه الفعلة بل رأوا انها انما فعلت ذلك للضرورة وللضرورة احكام وايقنوا ان محبتها للوطن هي التي الجأتها الى ارتكاب هذا الامر الغريب ومما قوى ذلك عندهم ما ظهرته من الحزن والغم وهي ذاهبة الى الكنيسة فبهذه الواسطة حصلت العصبة مبالغ جسيمة اعانتها تمام الاعانة وكان ايضا لنواب الملك في حيرة عظيمة في شأن تحصيل الدراهم اللازمة لماهيات عساكر الحزب الملوكي ومصاريفهم لان ايرادات الملك كان قد اخذ بعضها

سنة ١٥٢٤

الفلمنكيون والبعض الآخر تهييته الجمعيات البلدية فاضطروا الى اخذ حلى الملكة وما كان عند الاشراف من آنية الفضة وغيرها فضربوها نقودا فلما نفدت اقترضوا من ملك البرتوغال مبلغا آخر ونصر فوافيه

مطلب ضياع الزمن من العصبة لاشتغالها بالمداولة مع الاشراف

وكان يتراءى من الاشراف انهم لا يريدون ان تقع الحرب بينهم وبين العصبة فانهم كانوا يوافقون الجمعيات البلدية على كراهة الفلمنكيين فكانوا يقرون امورا كثيرة مما ذكرته تلك الجمعيات في تقريرها وكانوا يرون ان مقتضيات الاحوال اذ ذاك تعينهم اتم الاعانة على ابطال ما كان في المملكة من قديم الزمان من المظالم بل وتعينهم ايضا على انشاء قوانين جديدة يترتب عليها اصلاح حال الدولة وانتظام امورها وانما كانوا يخشون ان يحصل بينهم وبين الجمعيات البلدية حرب لان فرقة الاشراف وفرقة تلك الجمعيات كانتا منوطتين بالتشريع ووضع القوانين فان وقع بينهما حرب واضعف بعضهما قوى بعض اتخذ الملك ذلك فرصة في خفضهما او اضعاف شوكتهما وبذلك تقوى الشوكة الملوكية عليهما وتبطل استقلال الاشراف وتفتات على مزايا الجمعيات البلدية ولما كان الاشراف لهذه الاسباب يرغبون في ان يكونوا مع العصبة على قلب رجل واحد كان النواب يبحثون آناء الليل واطراف النهار عن عقد الصلح بينهم وبين تلك العصبة ومكثوا امدة الحرب وهم لا يودون الا الصلح ويتمنون حصول حادثة تساعدهم عليه ومما يدل على ذلك ان الشروط التي طلبوها من العصبة كانت مقبولة ولو تساهلت تلك العصبة فيما كان يفضي بالشوكة الملوكية الى الضعف والاضمحلال او يشابذ حقوق الاشراف من المواد التي ذكرتها في التقرير لوعدها النواب بحمل الايمبراطور على قبول ما عدا ذلك من المواد الاخرى ولو فرض انه يأبى ذلك لالحاح بعض وزرائه عليه في عدم قبولها لالتزم عدة من الاشراف باعانة العصبة على الزام الايمبراطور بقبولها

ولكن لما كانت العصبة لا تخلو من الفشل والشقاق لم يتذاكر اربابها مع بعضهم حتى يجمعوا امرهم على شئ مقبول يكون ناشئا عن الحزم وسداد الرأى وذلك ان اغلب المدن التي دخلت في هذه العصبة كانت تغار من بعضها

كل الغيرة ولا تثق ببعضها لما انها كان لها مآرب دنيئة ناشئة عن الطمع سنة ١٥٢٢
والشره فلذا امكن لسر عسكر السيريه بنفوذ كلمته ومواعيده ان ينفصل اهل
مدينة بورغوس عن حزب العصبة كما امكن لبعض بيكزادات من
الاشراف ان ينفصلوا عن تلك العصبة مدة اخرى صغيرة هذا ولم يكن فى الجمعيات
البلدية من له من شرف النفس والمعارف ما يكفى فى ادارة مصالح حزب العصبة
على ما ينبغى نعم وان كان الامير پاديلة سر عسكرها جامعا للصفات الجيدة
التى تحبب فيه الاهالى وتستميلهم اليه الا ان ذلك نفسه كان سببا فى عدم
امانته عند بعض الاعيان الذين انضموا الى حزب العصبة فكانوا منه دائما
على حذر وكان هناك امر آخر وهو ان الاهالى لما رأوا ما حصل من الامير
جيرون من الزلل وسوء الادارة صاروا لا يأتمنون احدا من الاشراف الذين
كانوا قد انضموا اليه فبناء على ذلك لم تكن افعال العصبة كلها سوى اقدام
واحجام وضياع فرص ثمينة بالتردد وتكرار الاستفهام وكان اربابها لا يثقون
ببعضهم وكان منشأ ذلك هو انه لم يكن فيهم من يقوم بتدبير هذا الامر فبعد
مذاكرات عديدة فى شأن الشروط التى كان يطلبها النواب اى رؤساء حزب
الملك طمس على قلوب الجمعيات البلدية فعميت بصائرهم عن الحق وضلت عن
الهدى لما كان فى قلوبهم من الحقد والبغضة للاشراف فقطعوا علائق الصلح
وفسخوا وثائق النصح وابوا الا العناد والمعاداة مع الاشراف ولم يكفهم ذلك
بل هددوهم بسلب الاراضى والعقارات الملوكية قائلين انهم اختلسوها هم
واسلافهم فيلزم ضمها ثانيا الى الجفالك الملوكية ودققوا غاية التدقيق فى هذا
الامر مع انه فى الواقع يترتب عليه اعدام الحرية التى كان الغرض من سعيهم وبذل
جهدهم انما هو حمايتها والذب عنها ووجه ترتب ذلك عليه هو انه لو حصل
لاستقل ملوك قسطيلة بانفسهم وصاروا مطلقى التصرف فى الرعايا فكان
تشكى العصبة من ظلم الوزراء الاجانب واختلاسهم دون تشكيها من سعة اموال
الاشراف وازدياد شوكتهم فكأنها كانت ترى انه لا يقع بينها وبين الايمپراطور
صلح صحيح الا اذا اعطته ما بايدى الاشراف من الاراضى والالتزامات

سنة ١٥٢٢

مطلب غرور العصبة بسبب نجاحها في بعض وقائع هينة

ثم ان العصبة لما رأت ان سرعسكرها الامير پاديلة قد نجح في بعض وقائع
هينة واستولى على بعض مدن صغيرة اغترت بذلك وسلكت مسلكها المتقدم
معتمدة على شجاعة عساكرها فكانت متيقنة انه لا يعسر عليها
الظفر بحزب الملك فبينما كان الجيش فرحا بهذا النجاح اذ حاصر الامير پاديلة
مدينة طورلوباون حرصا على عدم ضياع هذه الفرصة النفيسة من
انشراح صدور العساكر للقتال وكانت هذه المدينة اعظم المدائن التي اغار عليها
الى ذلك الوقت واكثرها حصونا وكان بها من المحافظين عدد كاف ومع ذلك

غرة شهر ادارسنة ١٥٢١

قصها الامير المذكور عنوة وسلب اموالها بعد أن قاومه اهلها مقاومة عجيبة
وساعدهم سرعسكر البرية وهو من نواب الملك ولو سار الامير پاديلة
بجيشه بعد هذه النصرة الى مدينة توردزيلاس التي هي معسكر احزاب
الملك لظفر بهم لدهشتهم من حميته وكثرة نجاحه لاسيما ولم يكن عندهم اذ ذاك
من العساكر من يكفي للمصادمة والقتال لكن منع من هذا الامر العظيم تردد

مطلب عدم سداد رأى العصبة

العصبة وعدم سداد رأيها ولما لم يمكنها فيما بعد أن تستمر على الحرب اوتعقد
الصلح عرض عليها النواب شروطا جديدة لعقد الصلح فرضيت بهدنة قليلة
المدة وكانت قبل ذلك تأبى الاما شرعت فيه وبينما هي تضيع الزمن في مذاكرات
لا جدوى لها اذ خرج من جيش پاديلة جم غفير من العساكر وفروا
بما اغتنموه من مدينة طورلوباون لانهم لم يكونوا متعودين على قوانين
الضبط والربط والتربية العسكرية وتعب بعضهم من طول مدة الحرب فهرب
ووجد سرعسكر البرية فسحة يجمع فيها عساكره ويتأهب للقتال فجمع
العسكر بمدينة برغوس وبمجرد انقضاء الهدنة انضم بعسكره الى عساكر
القونتة هارو وان كان پاديلة بذل مجهوده في منع اجتماع هذين الفريقين
وبادر كل من الجنرالين بالتوجه الى مدينة طورلوباون فلم يجسر پاديلة
على القتال لضعف جيشه بهروب العساكر المتقدمة فقصد مدينة طورو
ليلتجئ بها ولو امكنه ذلك لسلم مما كان يخشاه من الاخطار لان الفرنساوية كانوا
اذ ذاك مشتغلين بالاغارة على مملكة نوار وكان يلزم النواب أن يرسلوا سرية

سنة ١٥٢٢
٢٣ من شهر نيسان

مطلب
هجوم الاشراف على جيش العصبة

من العساكر الى تلك المملكة فبذلك يختل نظامهم ولكن كان القونتة هارو يعلم ان فراره يضر بهم ضررا شديدا فبادر بالمسير مع خيالته وادركه قريبا من مدينة ويلالار وحمل عليه من غير ان ينتظر مجيء عساكره المشاة وكان جيش پاديلة حينئذ قد فقد همته واعتراه التعب والنصب من شدة جريه وسرعة سيره لاجل الالتجاء حتى كأن ذلك فرار وهروب وقد لحقه القونتة هارو بالخيالة فى مرج مزروع وكانت الارض اذ ذاك وحلا لانه كان نزل بها مطر غزير فصارت عساكر پاديلة كلما سارت تغوص فى الوحل الى ركبها وبذلك صاروا عرضة لنار بعض مدافع كانت مع الخيالة فبهذه المقتضيات فترت همة عساكره لاسيما وكانوا غير متعودين على الحرب فلم يتجاسروا على مصادمة عدوهم ولا مقاومته ادنى مقاومة بل ركنوا الى الفرار وهم على غاية من الاختلال وابدى پاديلة من الشجاعة والعزم ما تقصر عنه العبارة طمعا فى جمع شملهم والتئامهم فلم يجد ذلك نفعا لان الفزع تمكن منهم بحيث صاروا لا يسمعون له قولا ولا يلتفتون الى نصحه وترغيبه ولا يعبأون بتهديده وترهيبه فلما لم يجد لذلك ثمرة رأى ان الموت خير له من الحياة بعد هذه الواقعة المشؤمة وبعد تدمير حزبه فانقض بنفسه على الاعداء وجال بين صفوفهم فجرح وسقط من فوق جواده واخذ اسيرا واسر معه اكابر ضباطه واما العساكر فانهم بمجرد ما القوا سلاحهم عفا عنهم الاشراف حلما منهم وكرما وخلوا سبيلهم من غير أن يسيؤهم ادنى اساءة

مطلب
هزم الاشراف لجيش العصبة

مطلب
قتل پاديلة

ولما كان اعداء الامير پاديلة يبغضونه بغضا شديدا لم يمهلوه اصلا بل حكموا عليه فى ثانى يوم بضرب عنقه ولم يقيموا له دعوى التحقيق على حسب الرسوم الجارية بل رأوا ان شهرة اسمه بما فعل وقيامه على رؤوس الاشهاد يكفى فى عدم اقامة الدعوى وارسل الى نطع الدم هو واثنان آخران وهما الامير حنا براوو والامير فرنسيس ملدوناده وكان احدهما رئيس عساكر سيغوبية والآخر رئيس عساكر سلمنكة ولم يفزع پاديلة عند القتل بل اظهر غاية التجلد والاطمئنان حتى ان الامير حنا براوو الذى قتل معه لما

صار يسخط حين سمع الناس يقولون عليه انه خائن فقال له الامير پاديلة كان يبنبغى لك البارحة ان تظهر شجاعة البيكزادات والامر آخر واما الآن فينبغى ان سنة ١٥٢١م
تصبر على قضاء الله ولا تفزع مما حل بك حتى تموت نصرانيا متمسكا بدينك وقد
امهل الامير پاديلة حتى كتب كتابا لزوجته وكتابا آخر لجمعية مدينة طليطلة
التى هى اصل غرسه ومسقط رأسه وكان الكتاب الاول يدل على شفقته ومحبته
لزوجته وعلى ثبات جنانه وعلو همته وذكر فى الكتاب الآخر ما يدل على فرحه
بموته شهيدا فى خدمة وطنه وبعد أن كتب هذين الكتابين امتثل لقضاء الله
ومد عنقه للجلاد هذا وقد لام عليه فى سلوكه على الوجه المتقدم اغلب مؤرخى
اسبانيا المتأخرين لان الحكومة والشوكة الملوكية فى عصرهم كانتا على
خلاف ما كانتا عليه فى عصر پاديلة فلم ينصفوه ولم يشكروه على ما كان له
من الفضائل فى هذا المعنى ولا شك ان ذلك منهم اما تساهل او خوف فوصفوه
بما يدنس سيرته وحاولوا أن يفهموا الناس انه غير جدير بان يرثى لحاله
مع ان ذلك الامر قل أن يخلات به نفس كريمة على انسان جليل القدر وقع فى مثل
تلك المصيبة

وقد تمت واقعة ويلالار بالنصرة والظفر لاحزاب الملك وفتحت لهم ايضا
ابواب مدينة ولادوليدة وكانت اعظم المدائن المتعاهدة قوة واكثرها مطلب انحلال حزب العصبة
عزما فعاملها النواب بالرفق واللين واكرموا اهلها حتى ان مدينة دلكمبو
ومدينة سيغوبية وعدة مدائن اخرى تأست بتلك المدينة وسلمت الى النواب
فعند ذلك وقع الفشل والشقاق بين ارباب العصبة وانحل نظامها وهذا اقوى
دليل على عدم حزم رؤسائها وربما استدل بذلك على انه كان هنالك امور
خفية اوجبت هذا الشقاق بينهم حيث اختل نظامهم فى اقرب مدة مع ان
عصبيتهم لم تكن مبنية على اسباب هينة بل كانت اسبابها قوية اكيدة حتى
دخل فيها جميع الاهالى ومكثت مدة حتى ثبتت وتمكنت وجددت طريقا
منتظما فى ادارة الحكومة ومما يؤيد ذلك انه حصل بعد ذلك بايام قليلة ان سرية
عظيمة من عساكر الملك الذين انتصروا على عساكر العصبة ارسلت الى

بسنة ١٥٢٢

مملكة نوار لمنع جيش الفرنساوية الذى كان حينئذ يشن الغارة عليها ومع ذلك فلم يقو عزم جمعيات مملكة قسطيلة ولم تفرح بهذه الفرصة النفيسة وتبادر الى نيل المزايا والحقوق التى كانت اولا تبذل غاية الهمة فى طلبها

مطلب
مدافعة زوجة بادية عن مدينة طليطلة مع القوة والثبات

هذا وينبغى ان نستثنى من تلك المدائن مدينة طليطلة فانها لم تزل باقية على قصدها بسبب تحريض الاميرة مارية باشيكو زوجة بادية والحاحها لان تلك الاميرة لم تستول عليها الاحزان بعد موت زوجها ولم تشتغل بالبكاء والنحيب حيث تعلم انه لا جدوى لذلك بل تأهبت للاخذ بثار زوجها من اعدآئه حتى تتم الغرض الذى قتل من اجله وكان الاهالى يحترمونها اما لان النساء ضعيفات بالطبع اولانها كانت ذات شجاعة عظيمة وقلب ثابت ومعارف وعوارف فكانت القلوب تميل اليها وترق لحالها فى مصابها بفقد زوجها لاسيما وكان موته فى خدمة وطنه فكان متى ذكر اسمه قرن بالاحترام والتجبيل فصار لتلك المرأة بين الاهالى الصولة والشوكة التى كان يتمتع بها زوجها مدة حياته وقد اظهرت هى ايضا فى سلوكها وافعالها من الحزم والعزم ما جعلها اهلا لاحترام الناس لها ووثوقهم بها وذلك انها كتبت لسر عسكر الفرنساوية الذى كان بمملكة نوار ان يشن الغارة على مملكة قسطيلة ووعدته بالاعانة وكتبت ايضا للمدآئن قسطيلة تحرضها على القتال وتعيد لها همتها بعد الفتور وجمعت عساكر جديدة وطلبت من القسوس مبلغا جسيما من الاموال لتصرفه على العساكر وامرت ان يحمل العساكر تمثال المسيح على هيئته مصلوبا بدلا عن البيارق والاعلام حتى كانها تقاتل اعدآء دين النصرانية (لان صورة عيسى عليه السلام مصلوبا انما تحمل عوضا عن البيارق امام عساكر النصارى فى قتال ملة اجنبية عدوة لدين النصرانية) وكانت تطوف ازقة طليطلة ومعها ابنها صغيرا راكب على بغلة وعليه ثياب الحزن وامامه راية مرسوم عليها صورة قتل ابيه بادية فمثل هذه الحيل والمخادعات التى دبرتها امكنها ان تهيج تلك المدينة على القيام

وتقوى

سنة ١٥٢٢ م

وتقوى همتهم فعميت بصائرهم عن ادراك الخطر الذى يكونون عرضة له ان تصدّوا وحدهم لمعارضة الشوكة الملوكية وبناء على ذلك مكثوا مدة على القيام والخروج عن الطاعة حتى انه فى مدة ما كان جيش الملك مشتغلا بالقتال فى مملكة نوار لم يمكن للنواب أن يدخلوا المدينة المذكورة تحت الطاعة وانما اقتصروا على بذل جهدهم فى اضعاف شوكة الاميرة مارية وصولتها بين الاهالى وفى البحث عن استعطافها واستمالتها بمواعيد مزخرفة وبعثوا اليها اخاها ملتزم موندوجار ليستعطفها كى ترجع عما هى عليه فلم يجد ذلك نفعا فرجعت طائفة من جيش الملك بعد أن خرج الفرنساوية مطرودين من مملكة نوار الى قسطيلة وحاصروا مدينة طليطلة ولكن لم يؤثر ذلك فى الاميرة مارية ولم تفتر به همتها بل دافعت عن المدينة مع شجاعة غريبة وجسارة عجيبة وهزم عساكرها حزب الملك غير مرة ولم تزل بهذه المثابة حتى قام عليها القسوس حين بلغهم موت غليوم دوكرواه وكان اذ ذاك مطران طليطلة ولا يخفى أن القسوس كانوا فى حنق شديد من تلك الاميرة لانها سلبت اموالهم كما ان شكواهم من الامبراطور شرلكان كان سببها انه اعطى منصب المطرانية المتقدمة لقسيس اجنبى لا يعزى لهم ولا لبلادهم فلما مات غليوم دوكرواه وجعل الامبراطور شرلكان فى هذا المنصب قسيسا من اهالى قسطيلة زال المسبب بازالة سببه وسكن غيظ القسوس وغضبهم على الامبراطور حتى انهم ادخلوا فى عقول اهالى طليطلة ان الاميرة مارية لولا سحرها وشعبذتها لما اخذت بعقول الناس وصار لها كلمة نافذة بينهم وزعموا ان لها صاحبا من الشياطين يأتيها دائما على صورة جارية فهى لا تفعل شيأ الا عن لسان هذا الشيطان فصدقهم اهل المدينة فى ذلك وكانوا قد سئموا من طول المحاصرة ويئسوا كل اليأس من أن يعينهم اهل المدائن الاخرى التى كانت اولا متعاهدة معهم فرأوا انه لا بد لهم من الصلح وابطال الحرب لانه يفضى بمدينتهم الى الخراب والدمار فقاموا على تلك الاميرة وطردوها من المدينة ودخلوا تحت طاعة حزب الملك فانتقلت الاميرة

سنة ١٥٢٢

٢٦ من شهر تشرين الاول

الى القلعة ومكثت اربعة اشهر كوامل وهى تدافع عنها مع عزم قوى وشجاعة عجيبة فلما اعجزتها الضرورة ولم يبق لها حيلة ولا وسيلة تحيلت وخرجت متنكرة قاصدة مملكة البرتوغال لتلحق باهلها هنالك

مطلب
النتائج المضرة التى نشأت عن هذا الحرب المدنى

فبمجرد هروبها بادرت القلعة بالتسليم وانتشرت اعلام الصلح والاطمئنان فى مملكة قسطيلة ولم ينشأ عن هذا المشروع الخطر الذى همت به الجمعيات البلادية الا ما ينشأ عادة عما هو من هذا القبيل فى المشروعات التى لا تنجح حيث لم يترتب عليه الا اتساع دائرة الشوكة الملوكية وتقويتها على التدريج مع انه لم يكن الغرض منه الا تضييقها واضعافها ولم تزل مشورة القرطس معدودة من ارباب الحل والعقد فى التشريع ووضع القوانين بمملكة قسطيلة وصارت تنعقد كلما احتاج الملك الى جمع اموال من الاهالى ولكنها لم تبق على ما كانت عليه اولا من سلوك طريق الحزم والاحتراس وانصاف الملة فيما تشكى منه قبل اجابة الملك فيما يطلبه من الاموال بل ركنت الى الملك واخذت فى مراعاته وموالاته حيث بدأت باعطائه ما كان يطلبه من الامداد فما حظى منها باغراضه وفاز بما اربه لم يأذن لها ان تبحث عما يكون فى الحكومة من المظالم لتبطلها ولا تنقض شيأ يعود نقضه بالضرر على الشوكة الملوكية وصارت المزايا التى كانت للمدن سابقا تتناقص شيأ فشيأ حتى ضاقت دائرتها وتلاشت بالكلية ومن يومئذ اخذت التجارة فى التناقص والاضمحلال ونقصت ثروة المدن وعدد اهلها عما كان اولا وفقدت ما كان لها فى مشورة القرطس من الشوكة ونفوذ الكلمة

مطلب
ازدياد العصيان فى مملكة بلنسية

وبينما كان الحرب الدخلى يخرب مملكة قسطيلة اذ حصل فى مملكة بلنسية فتن اشد من فتن قسطيلة مزقت تلك المملكة كل ممزق وذلك ان العصبة التى انعقدت فى مدينة بلنسية (سنة ١٥٢٠) وكانت تسمى معاهدة جرمانادة اى معاهدة الاخوان استمرت على حالها بعد أن سافر الايمبراطور شرلكان من اسبانيا وكانت تتعلل بانها تدافع عن السواحل ارباب الصيال الذين كانوا يأتون من بلاد الغرب فاخطأ الايمبراطور

في اذنه لهما بذلك حيث انهما من وقتئذ تقويت وأبت أن تلقى السلاح ولكن كان سنة ٥٢٢
الغرض الاصلى لاهل بلنسية من عصيانهم وتشكيهم فيما يخص منع الملك
من الافتيات على حقوقهم ومزاياهم دون ما كانوا مصممين عليه من قمع
الاشراف ومنع مظالمهم ولذلك كان بغضهم في هذه الفتنة للاشراف وقيامهم
عليهم اشد مما في قلوبهم من الحقد على الملك فبمجرد ما صدر لهم الاذن
بان يبقوا على حمل السلاح للتعلل السابق وهو حماية السواحل صاروا
يتقوون حتى عرفوا من انفسهم ان لهم شوكة قوية فلم يتفكروا الا
في الانتقام ممن كان يظلمهم فطردوا الاشراف من اغلب المدآئن ونهبوا ديارهم
وخربوا اراضيهم واغاروا على قصورهم ثم انتخبوا ثلاثة عشر رجلا من
الجمعيات التجارية التي كانت بمدينة بلنسية وكانت عدتها ثلاث عشرة
فاخذوا من كل جمعية رجلا وفوضوا لهم امر ادارة الحكومة قاصدين بذلك
نسخ القوانين القديمة او تحسينها وترتيب طريقة مستحسنة في اجرآء الاحكام
والقوانين على جميع الناس بالسوية من غير اغراض ولا مراعاة مقام بحيث
لا يفرق بين خطير وحقير فبذلك يقرب الناس من التسوية التي كانوا عليها
من اصل الفطرة

فبذلك اضطر الاشراف الى حمل السلاح ليدافعوا عن انفسهم ووقع الحرب
بين الفريقين وبلغ من الشدة ما ينشأ عادة عن بغض الامة وحقدها لمن يظلمها
وعن غضب الاشراف اذا انتهك الاهالى حرمتهم وارادوا اذلالهم وخفضهم
وحيث انه لم يدخل في معاهدة جرمانادة احد من الاعيان ذوى الحسب
والنسب ولا ممن تربى تربية حسنة كان رؤساء مشاورها من جهلة
الصناعية الذين لا معارف لهم ولا شك ان مثل هؤلاء الرؤساء لا يمكنهم
ان يستميلوا قلوب الامة التي كانت اذ ذاك في حمية شديدة كالجنون الا بموافقتهم
لها واظهارهم القسوة والبغضاء في حق اعدآئها لان مثل هؤلاء الناس
لا يعرفون القوانين المرتبة عند الملل المتمدنة لتخفيف الغضب الذي يحتدم
اذا حصل الحرب بينها وبين عدوها ولو فرض ان تلك القوانين كانت معروفة

سنة ١٥٢٢

لهم لما عملوا بمقتضاها ولا التفتوا اليها ولذلك لم يكن هنالك امر قبيح يزرى بالمروءة ويخل بالانسانية الا ارتكبه اهالى بلنسية فى ذلك الحرب

وكان الامبراطور وقتئذ مشغولا بتسكين فتنة قسطيلة التى كان يخشى منها على ضياع شوكته ومزاياه فلم يمكنه أن يلتفت كل الالتفات الى فتن مملكة بلنسية بل ترك الاشراف بتلك المملكة يدافعون عن انفسهم على قدر طاقتهم وكان القونتة موليطو نائب الملك هو قائد العساكر التى جمعها الاشراف من اتباعهم فكثت معاهدة جرمانادة على الحرب سنتى ١٥٢٠ و ١٥٢١ مع قوة وثبات يجل عما كان يخطر بالبال من مثل هؤلاء الجنود الذين لا معرفة لهم بالعسكرية وكان رؤساؤهم مثلهم اى ليسوا اهل فضل ولا معرفة كاتقتم ومع ذلك هزمت معاهدة جرمانادة جنود الاشراف فى عدة وقائع شديدة وان لم يكن لها كبير جدوى حتى صدتهم عن المدآئن التى ارادوا شن الغارة عليها غير ان الاشراف لمعرفتهم بالفنون العسكرية وتعود عساكرهم على الحروب ومشاقها كانت لهم النصرة فى اغلب الوقائع ولم تزل عصبة الاشراف على تلك الحالة حتى انتصر النواب فى قسطيلة بمدينة ويلالار على الامير باديلة وارسلوا الى بلنسية فرقة من العساكر الخيالة لاعانتهم فبمجرد وصول هذا المدد اليهم فاقوا على اعدآئهم حتى انهم بعد مدة قليلة شتتوا عساكر المعاهدة وابادوها بالكلية وقتل رؤساؤها من غير حكم ولا اقامة دعوى بعد ان أذيقوا من العذاب والاهانة ما يقترحه العدو لعدوه وبعد ذلك رجعت حكومة مملكة بلنسية الى ما كانت عليه اولا

مطلب
علامات الفتن فى مملكة اراغونيا

وشوهد ايضا فى مملكة اراغونيا علامات الغم والفتن التى كانت فى غيرها من ممالك اسبانيا الان الوزير حنا الانوزة الذى كان وقتئذ نائب الملك فيها عرف بحزم وسداد رأيه ان يطفئ نيران الفتنة قبل اشتعالها ولكن لم يحصل مثل ذلك فى جزيرة مايورقة لان الاسباب التى ترتبت عليها الفتن

مطلب
الفتنة الكبيرة التى حصلت فى جزيرة مايورقة فى ١٩ من شهر ادار سنة ١٥٢١

سنة ١٥٢٢

الفتن فى مملكة بلنسية كانت بعينها فى تلك الجزيرة ونشأ عنها فتنة كبيرة وذلك ان اهاليها كانت قد سئمت نفوسهم من ظلم الاشراف وعيل صبرهم من جورهم فهموا بالعصيان وعزلوا نائب الملك وطردوه من الجزيرة وذبحوا كل من وقع فى ايديهم من الاشراف واستمروا على العصيان والخروج وكان طغيانهم فوق كل حد ونهاية فلزم مكابدة المشاق الفادحة لادخالهم تحت الطاعة وبالجملة فلم يمكن قمعهم الا بعد أن سكنت الفتن فى سائر ممالك اسبانيا وانتشرت رايات الصلح والاطمئنان فى سائر اقطارها

مطلب
الاسباب التى منعت من اتفاق اهالى اسبانيا

واذا تأمل الانسان ما كان واقعا فى ممالك اسبانيا من الفتن العامة ونظر الى الاسباب التى دعت اهلها الى الخروج والعصيان وعلم ان مقصدهم من ذلك انما هو ازالة المظالم من بلادهم تعجب من كون اهالى هذه الممالك فى تلك الفتن لم يحزموا رأيهم فى سلوكهم ولم يجمعوا امرهم حتى تتفق كلمتهم ويكونوا على قلب رجل واحد لانهم لو جمعوا جيوشهم مع بعضها واتفقوا على امر واحد لتم لهم الظفر ونجحوا اكثر من ذلك فانه لو كانت تلك العصبة ملية اى مركبة من سائر الملة لاحترمها الاهالى وخشى الملك بأسها وكان لا يمكن للامبراطور شرلكان ان يقاوم جيوشهم اذا انضمت الى بعضها بل يضطر الى قبول الشروط التى كان يلزمه بها رئيس تلك العصبة ولكن كان هناك اسباب منعت من اتفاق اهل اسبانيا مع بعضهم وسلوكهم على منوال واحد وهى ان ممالك اسبانيا وان كانت تحت حكم ملك واحد كانت تغار من بعضها فلم يحصل اتفاق بين اهلها لاسيما وبغضاؤهم القديمة كانت لم تزل قائمة بنفوسهم وكانوا يحقدون على بعضهم حقدا عظيما بسبب الاساءة التى كانوا فعلوها سابقا مع بعضهم فكان ذلك داعيا لاختلافهم وعدم وثوقهم ببعضهم ورأى اهل كل مملكة ان مكابدتهم وحدهم لمشاق الحرب اولى لهم من ان يتضرعوا لاهل مملكة اخرى ليعينوهم وزيادة على ذلك كانت صورة الحكومة فى كل مملكة من ممالك اسبانيا مباينة بالكلية للاخرى وكان اهل كل مملكة منها يطلبون امورا مختلفة فكان يعسر اتفاقهم واجتماعهم على امر واحد

سنة ١٥٢٢

فلولا هذا التفاقم لما حفظ الايمبراطور شرلكان تيجان ممالك اسبانيا لانه لما كانت كل مملكة من تلك الممالك بمعزل عن غيرها فى المقاصد والاغراض كانت عاقبة امرها أن اضطرت كلها الى التسليم والدخول تحت الطاعة

مطلب
حزم الايمبراطور فى سلوكه وحلمه على من عصاه من الرعايا

ولما حضر الايمبراطور شرلكان الى اسبانيا استولى الخوف والرعب على قلوب رعاياه الذين كانوا عصوه وخرجوا عن طاعته لكنه ابدى من الحلم ما ادخل فى قلوبهم الامن والاطمئنان وصرف عنهم الهموم والاحزان وذلك انه لم يقتل من اهل قسطيلة الاعشرين نفسا وان كان اغلبهم فى تلك الفتنة الكبيرة قد ارتكب ما يستحق به القتل والدمار نعم ان ارباب ديوانه حثوه على ان يظهر من القسوة اكثر من ذلك الا انه ابى ان يسفك دماء رعاياه على ايدى الجلادين بل اعلن بانه عفا عما سلف وانه لا يلتفت الى ما حصل من اول الفتنة

٢٨ من شهر تشرين الاول

الى آخرها ولم يستثن من ذلك الا ثمانين نفسا عين اسماءهم بل ولم يكن مصرا على قتل هؤلاء الثمانين وانما كان قصده من بيان اسمائهم زجر غيرهم وقمعه ومما يؤيد ذلك ان بعض خاصته المعتبرين عرض عليه ان يعرّفه محل شخص من اكابر هؤلاء الثمانين الذين اهدر دماءهم فاجابه الملك بجواب حسن لا يصدر الا عن ذوى الحلم والكرم حيث قال له انى لا اخشى من هذا الرجل فى شئ واما هو فله اسباب بها يخشى بأسى ويطشى ويحذر ملاقاتى فكان الاحسن لك والاصوب ان تذهب اليه وتخبره بانى هنا الا أن تعرفنى المحل الذى هو فيه وزيادة على هذا الحلم الذى لا يصدر الا عن النفوس الشريفة حاذر مدة اقامته فى قسطيلة أن يفعل ما يوجب غضب اهلها ونفورهم وتخلق باخلاقهم وتعلم لغتهم ووافقهم على آرائهم وعوائدهم حتى صار له فى قلوبهم منزلة لم تكن للملك قبله ولو كان من الملة الاسبانيولية واعانوه كل الاعانة فى جميع مشروعاته وكان صدقهم معه اعظم معين له على تحصيل ماربه وعلو شانه

مطلب
سفر ادريان الى مدينة رومة وعدم تلقيه فيها مع الترحيب والاكرام

ولما وصل الايمبراطور شرلكان الى اسبانيا خرج منها ادريان وسافر الى ايطاليا ليمكث فى منصبه الجديد وهو منصب البابا كما تقدم ذكره

سنة ١٥٢٢

وكان الرومانيون ينتظرون مجيئه مع غاية الشوق الا انه لما وصل اليهم وعاينوه ظهرت عليهم علامات الغم والحيرة لانهم كانوا متعودين على أن يروا ملوكهم وباباتهم في ابتهاج عظيم ورونق كبير فاستحقروا ادريان حين رأوه شيخا هرما متواضعا متقشفا فى ملبوسه متخلقا باخلاق الزهد محتقرا ملابس الزينة والرفاهية لا يحب التصنع وبالجملة فكان خاليا عن تحسين الهيئة والجمالة الظاهرية التى يكون بها لذوى المراتب والمناصب العليا وقع وهيبة فى قلوب العامة وتعجبوا من ذلك غاية العجب حيث لم يعهدوا فى باباتهم السابقين تلك الحالة الرثة فاين ذلك من ابهة جاليوس الثانى ومظهر ليون العاشر وقد تعجب القسوس ايضا من ادارته وسياسته حيث اعترف ان كلا من كنيسة رومة وديوانها لا يخلو من المفاسد وتأسف على ذلك كل الاسف واخذ يصلح حال الكنيسة والديوان ويطهرهما من تلك المفاسد التى لا تليق بهما ولم يظهر منه انه يريد رفع عائلته واكسابها الثروة والغنى حتى انه لافراطه فى التشديد رد الاراضى التى كان اخذها البابات قبله بطريق الظلم والاختلاس فرد الى الامير فرنسيس مارى دوقية اوربان التى كان اغتصبها منه البابا ليون العاشر وارجع الى دوق فرارة عدة مدائن كانت اخذت منه ظلما وعدوانا واضيفت الى اراضى الكنيسة ولما كان قسوس رومة غير متعودين على مثل هذه العدالة ولم يعهدوا فى احد من باباتهم السالفين انه سلك على منهج الحق والاستقامة رأوا ان هذه الفعال ادلة واضحة على ضعفه وعدم خبرته ودرايته بالتجاريب لاسيما وكان ادريان يرتبك غالبا فى المشاور وانهاء المصالح لجهله باسرار سياستهم ودسائسها ولانه كان لا يعول عليهم ولا يثق بهم لغاية التنافر بين اخلاقهم واخلاقه لانهم كانوا اهل خبث ومكر ومخادعة ومحاولة فى ادارة المصالح وهذا مباين لما انطبع عليه من طيب النفس وخلوص الطوية فكان لا يعرف المكر والخداع الذى كانوا يتباهون به فدخل فى وهم الناس انه ضعيف الرأى سخيف العقل ولم يزل هذا الوهم يزداد يوما بعد يوم حتى صار رعاياه يحتقرونه ولا يعبأون بسياسته وادارته كما سخروا منه عند

سنة ١٥٢٢ م

مطلب
بذل ادريان جهده في تسكين فتن اوروبا ونشر رايات الصلح بها

رؤية ذاته

ومع ذلك فبذل ادريان غاية جهده في تسكين فتن اوروبا واظهر في هذا الشان من الانصاف وعدم الغرض والميل الى غير الحق ما يلايم مقامه من حيث كونه ابا النصارى كافة ومن العجب انه لم يجنح الى مساعدة الايمبراطور شرلكان وان كانت له السيادة عليه بل بذل جهده في ايقاع الصلح بينه وبين الملك فرنسيس والتأليف بين قلوبهما حتى يكونا على قلب رجل واحد ويكونا معا على السلطان سليمان الذى بعد اخذه لجزيرة رودس صار يخشى منه على سائر بلاد الافرنج لكن هذا المشروع كان فوق طاقته لان حسن الطوية وخلوص النية لا يكفيان في التأليف بين ملكين لهما اغراض ومآرب مختلفة ولا في ابطال الحروب التى اوجبت بينهما العداوة والبغضاء بل كان يلزم لذلك ان يكون فوقهما في المعارف والمهارة حتى يظفر بمرامه ولم تكن رغبة دول ايطاليا في حصول الصلح اقل من رغبة البابا ادريان وكان وقتئذ الجيش الايمبراطورى الذى تحت قيادة الامير كولون باقيا على اصله لم يسترح من عساكره احد ولكن بسبب نفاد الاموال التى كانت ترد للايمبراطور من بلاد اسبانيا و نابلي ومملكة البلاد الواطية او صرفها في امور اخرى كانت مصاريف هذا الجيش من مأكولات وماهيات مرتبة على اهل ايطاليا فكان من عساكره قسم عظيم نازلا باراضى الكنيسة ولاجل مصاريفهم كان نائب الملك في مملكة نابلي يضرب في كل شهر مغارم على اهل فلورنسة و ميلانة و جنويزة ودوقية لوقة فتشكى هؤلاء الناس وتظلموا من تلك المغارم واخذوا ينتظرون فرصة تعينهم على التخلص منها ولم يصبروا لخوفهم من غضب الايمبراطور وبطشه او لخشيتهم بأس هذا الجيش

سنة ١٥٢٣

مطلب
عصبة جديدة مع الايمبراطور على ملك فرنسا

ولكن قد حصل انه بالحاح البابا ادريان وحثه ونشره فرمانا يحرض فيه ملوك الافرنج على ابطال الحرب وعقد الهدنة بينهم بثلاث سنوات بعث الايمبراطور وملك انكلترة وملك فرانسا الى رسلهم بديوان رومة

سنة ١٥٢٣

خطأ بانهم مفوضون فى هذا العرض فبينما كان هؤلاء الرسل يتذاكرون فى هذا الشأن اذ كان كل من الملوك المذكورين يجهز لوازم الحرب ومهماته وكان اهل البنادقة الى ذلك الوقت باقين على المعاهدة مع الملك فرنسيس فلما رأوا ان مصالحهم ببلاد ايطاليا قد تعطلت تخلوا عنه وتعصبوا مع الامبراطور عليه وايضا الماكان نائب الملك فى نابلى لم يزل يلح على البابا ادريان وكان من اصدقائه ومن ابناء وطنه حتى افهمه ان الموجب لعدم الصلح انما هو طمع نفس ملك فرانسا فجنح ادريان ثانيا الى حزب الامبراطور وتبعته سائر دول ايطاليا فرأى الملك فرنسيس ان كل الناس قد تخلوا عنه ولم يبق له نصير ولا ظهير يعينه على مقاومة اعدائه الذين كانت جيوشهم تهدد بلاده من جميع الجهات

فى ٢٨ من شهر حزيران

مطلب
الاحتراسات التى استعملها فرنسيس ليقاوم اعداءه ويسلم من مكرهم

ولا شك انه يتراءى ببادىء الرأى ان مثل تلك العصبة العظيمة تحمل فرنسيس على ان يقتصر على حماية بلاده والذب عنها وييأس من الدخول فى مملكة ايطاليا ثانيا ليأخذ بلاده التى تغلب عليها الامبراطور شرلكان ولكن كان من دأب هذا الملك انه يتساهل جدا فى الامور العادية ويقوى عزمه ويثبت ثبوت الابطال لنكبات الدهر واخطاره ويتدارك تهورها حتى لا تحل به او يقتحمها مع الثبات كيف لا وقد جمع فى هذه المرة جيشا عظيما قبل ان يأخذ اعداؤه اهبتهم لعمل ما عزموا عليه لانه كان له على رعاياه صولة لم تمكن للامبراطور شرلكان ولا للملك هنرى فى ممالكهما فكان لا يمكنهما ان يأخذا امدادا من رعاياهما الا عن رضاء ارباب مجلس البرلمان وكان لا يعطى لهما عادة الا مبالغ قليلة بل ولا يحصلان هذه المبالغ الا بعد توقف الرعايا وتضجرهم مدة مستطيلة بخلاف فرنسيس فكان يسوغ له ان يضرب على رعاياه مغارم جسيمة ويحصلها منهم فى اقرب وقت وبناء على ذلك سلك فى هذه الواقعة كما سلك فى غيرها من الوقائع السابقة حيث شرع جيشه فى السير قبل ان تجتمع عساكر العدو ولما كان يعلم انه يفوق اعداءه من هذه الحيثية توجه بنفسه مع الجيش الى دوقية ميلان مؤملا انه بذلك

سنة ١٥٢٣

يفسد على الامبراطور ما دبره ولا يخفى انه بهذه الطريقة كان يخشى منه على اعدآئه وكان يظفر بمرامه لولم تمنعه العوائق الآتية وهى انه حين كانت طليعة جيشه على ابواب مدينة ليون وهو يقفو اثرها مع الفرقة الثانية من العساكر بلغه انه قد ظهر فى المملكة فتنة مهولة تفضى بها الى الخراب فاضطر الى الاياب لوقته ورجع عن نيته .

مطلب ضياع فائدة احتراساته بسبب كشف الفتنة التى كان الدوق بوربون سر عسكر البرية يضرم نارها سرا

وكان مثير هذه الفتنة الخطرة هو الامير كرلوس دوق دى بوربون سر العسكر البرية بمملكة فرانسا وكان عريقا فى الاصل ذا حسب ونسب شهير وثروة واسعة وكان لعلو مرتبته اكبر اهل المملكة واعظمهم شوكة وصولة كما كان اشهرهم فى المعارف والفضل وكان ذا رأى سديد وحزم مصيب فى المشاور والحروب وكان مهابا محترما بسبب ما قام به من المنافع العظيمة والخدم الجسيمة للدولة وكان يزاحم الملك فى عدة صفات كالتولع بالحرب والامتياز فى الرياضات الجسمية والحركات البدنية وكانا سويهما فى السن لاسيما وكانت بينهم لحمة القرابة فترتب على ذلك ان الملك كان يحبه محبة خاصة الا ان الاميرة لويزة ام الملك فرنسيس كانت تبغض العائلة البوربونية بغضا شديدا ولم يكن لذلك سبب الا محبة الاميرة آندوبريطانيا زوجة الملك لويز الثانى عشر لتلك العائلة وكانت لويزة تكره آندوبريطانيا هذه كراهة شديدة ولما كان الملك فرنسيس يتأثر بما تتأثر به امه قابل ما قام به من افعال دوق دى بوربون غيرة لا تليق به فلم يكافئه حق المكافأة على ما كابده من المشاق فى واقعة مارينيان وما بذله فيها من الجلد والاجتهاد واستدعاه ايضا من دوقية ميلان التى كان حاكما فيها لاسباب واهية فلما حضر قابله بوجه لا يلايم ما ابداه فى هذا المنصب الخطر من الحزم وسداد الرأى واوقف مرتباته بدون سبب قوى يقتضى ذلك وفى واقعة سنة ١٥٢١ كما تقدم جبهه الملك وخذله بحضرة العساكر وعزله من قيادة طليعة الجيش وولى عليها دوق دالنسون فتحمل اولا هذه الفعال مع ما لم يكن يعهد فيه من الصبر لانفته وكبره لاسيما وكان يعلم ان مقامه وما وفى به من الخدم العظيمة

مطلب مناقب هذا الامير

مطلب اسباب غمه

في المملكة

سنة ١٥٢٣م

فى المملكة يجل عن ذلك ثم ضاق به الحال وعيل صبره لاساآت شتى فتعلقت آماله بالانتقام فاحتجب عن ديوان الملك واخذ يكاتب بعض وزراء الامبراطور شرلكان

وفى اثناء ذلك ماتت زوجته دوقة بوربون ولم تعقب ذرية وكانت الاميرة لويزة حينئذ قد بلغت ستا واربعين سنة ومع ذلك لم تزل تتصابى وتعشق كما كانت تبغض وتحنق فتبدلت بغضتها للدوق بوربون بالمحبة وكان دقيق العقل حسن الصورة فعزمت على التزوج به وان كان لا نسبة بينها وبينه فى السن وكان من الجائز ان يصل هذا الدوق بعشق هذه المرأة التى كانت كلمتها نافذة على ابنها وعلى مملكة فرانسا بتمامها الى اعظم ثروة تعلقت بها آمال طامع لكنه ابى زواجها اما لانه لم يكن مستعدا للعدول عن الكراهة الى المحبة فى اقرب وقت اولانه استنكف ان يخفى البغضة ويظهر المحبة لمرأة طالما اساءته قبل ذلك ظلما وعدوانا ولم يأب الزواج على وجه مستحسن بل اصحبه بالسخرية والذم لخلقها وخلقها فاغتاظت من فضيحتها وعدم احترامها واستحالت محبتها كراهة وصممت على اهلاكه

واتفقت على هذا الامر مع القنجلير دوبرات وكان قد ارتقى الى هذا المنصب الجليل بكونه بخس بمعارفه وغزارة علمه بالاحكام والقوانين حيث كان يحيد فيها عن طريق الصواب لاغراضه فبواسطته اقيمت على الدوق بوربون دعوى فقد بها جميع الاموال والاملاك التى تنسب للعائلة البوربونية فادعى الملك بعضها لانها كانت فى الاملاك الملوكية والبعض الآخر ادعته الاميرة لويزة لانها كانت اقرب وارث للدوقة الهالكة وكانت دعوى كل منهما باطلة ولكن لالحاح هذه الاميرة ونفوذ كلمتها وتحيل دوبرات وتزويره امكنهما ان يأخذا من القضاة حجة تتضمن الحكم بالحجر على اموال العائلة البوربونية ولما كان هذا الحكم مبنيا على الزور والبهتان اوقع الدوق بوربون فى القنوط واليأس وحمله على البحث عن ايقاع الفتنة المتقدم ذكرها فاخذ يكاتب ديوان الامبراطور شرلكان فى هذا الغرض وكان قد بلغ منه

مطلب
مكاتباته السرية مع الامبراطور

سنة ١٥٢٣

المعقد منتهاه حتى كتب للايمبراطور انه يعترف له بانه ملكه وسيده وانه يعينه على الاستيلاء على مملكة فرانسا فاخبر الايمبراطور بذلك هنرى ملك انكلترة واتفقا معا على اجابة بوربون ووعداه بمواعيد عظيمة ليبقى على ماصمم عليه فوعده الايمبراطوران يزوجه باخته اليونوره وكانت اولا تحت ملك البورتغال ثم تايمت وان يجهزها ويصدقها بما يليق بالملوك وعقد له باب مخصوص فى المشارطة المنعقدة بين الملك هنرى والايمبراطور وحاصله انهما اتفقا على ان يعطياه قونتية برونسة وقونتية دوفينة ويلقباه ملكا عليهما والتزم الايمبراطوران يدخل مملكة فرانسا من جبال البرنات وتكفل الملك هنرى ان يهجم على اقليم بيكردية مع عساكر الفلمنك ووقع الاتفاق بينهما ايضا على ان يجمعا من بلاد المانيا اثنى عشر الفا تكون مصاريفها عليهما ويرسلاها الى بورغونيا لتكون مددا واعانة للدوق بوربون مع ستة آلاف تعهد هو بجمعها من احبابه واتباعه وابقى ايقاع هذه الفتنة حتى يسافر ملك فرانسا مع جيشه الى بلاد ايطاليا لان المملكة حينئذ لا تجد من يدافع عنها فبعد أن سافر فرنسيس وتباعد عن مملكته اشرفت على الخراب والدمار

مطلب
كشف الفتنة وظهورها

ولكن لوفور حظ تلك المملكة لم يخف سر هذه الفتنة وان حوفظ على كتمانها بقدر الامكان ولم يخبر بها الا قليل ممن كان يعتمد على امانته ويوثق به وذلك ان بعض الخدم الذين كانوا ببيت الدوق بوربون كانوا يلاحظونه ملاحظة كلية لانهم كانوا يرون انه يستخونهم فاخبر اثنان منهم الملك فرنسيس بالمكاتبة السرية التى كانت منذ عدة اشهر بين سيدهم والقونتة روكس وهو من بيكزادات الفلمنك وكان الايمبراطور شرلكان يثق به ويعهد فيه الصداقة الا ان الملك فرنسيس كان يستبعد أن الدوق بوربون يفضى به الجبن الى التسليم فى المملكة للاعداء لاسيما وهو من اقاربه ومن العائلة الملوكية فسافر لوقته الى مدينة مولان وكان الدوق بوربون قد تمرض فيها ولازم الفراش حتى لا يذهب معه إلى بلاد ايطاليا فلما وصل

سنة ١٥٢٣ م.

الملك الى هذه المدينة عرض على الدوق ما اخبر به فحلف له انه برئ من تلك التهمة ولم يظهر للملك منه ادنى شئ يدل على صحتها واخبر الملك انه آخذ فى مبادى الصحة وانه عما قليل يلحق الجيش ببلاد ايطاليا وكان الملك فرنسيس طيب الباطن خالص الطوية فاغتر بزخرف هذا القول حكما على بواطن الغير بما انطبع عليه من طيب النفس وسلامة الباطن فبقى على ما يعهده فيه من الصداقة وجزم ببرآته حتى انه لم يرض بالقبض عليه مع الحاح العقلاء من خاصته وارباب ديوانه وتوجه الى مدينة ليون كانه لا يخشى شيأ ثم سافر الدوق بوربون بعده مظهرا انه يريد أن يلحق الملك لكنه ولى وجهه الى الشمال واجتاز الرون وبعدما كابده من المشاق الكثيرة والاخطار الكبيرة فاز بنفسه ووصل الى بلاد ايطاليا وكان الملك فرنسيس حين اخبر بفراره ارسل خلفه اناسا للقبض عليه فلم يلحقوه فندم حيث لا ينفعه الندم

فى شهر ايلول

مطلب
التجاء الدوق بوربون الى ايطاليا

فعند ذلك اخذ الملك فرنسيس يحترس بجميع ما فى وسعه ليسلم من عاقبة هذا الخطاء الذى جلبه لنفسه فوضع عساكر وخفرآء فى جميع القلاع التى كانت باراضى الدوق بوربون وقبض على جميع الاشراف والبيكزادات الذين توهم فيهم انهم من ارباب العصبة وحيث لم يمكنه أن يعرف الغرض من تلك العصبة ولا اغراض الرعايا خشى ان يغيب عن المملكة فينشأ فيها حادثة مهولة وعدل عن السفر مع الجيش الى بلاد ايطاليا

مطلب
اغارة الفرنساوية على ميلان.

ومع ذلك لم يرجع عما عزم عليه من التغلب على دوقية ميلان بل جعل الأمير بونيويطة على الجيش عوضا عنه وامره بالسير الى ايطاليا وكانت عدة هذا الجيش ثلاثين الفا ولم يوثر هذا الامير على غيره لمعرفته بالعسكرية حيث لم يكن له من الصفات اللازمة لكل ميرعسكر الا الشجاعة وهى ادنى الصفات فى هذا المعنى واكثرها وجودا وانما ذلك لتفوقه على ارباب ديوان فرانسا الملوكى بحسن اطواره ولطف حركاته ودقة ذهنه وفصاحة كلامه وسحر بيانه وحلاوة لسانه وكان الملك فرنسيس يخالط ارباب ديوانه ويسامرهم اناء الليل واطراف النهار فانشرح صدره من لطائف هذا الامير وبديع نكاته

سنة ١٥٢٣

حتى كان يخصه بمزيد الاعتبار والمراعاة وزيادة على ذلك كان الامير المذكور عدو اللدوق بوربون فلم ير الملك من يعتمد عليه فى الرياسة على الجيش الا هذا الامير.

وكان المنوط بالمدافعة عن دوقية ميلان هو الامير كولون الذى كان فتحها واخذها من الفرنساوية غير انه لم يكن معه من العساكر من يقوم بمقاومة هذا الجيش الجرار ولم يكن عنده ما يفى بماهيات عساكره وزيادة على ذلك كانت عساكره كل يوم فى النقصان بسبب الامراض والهروب فهذا هو الذى حمله على الاهمال فى الاحتراسات اللازمة لامن تلك الدوقية وحمايتها من الاعداء فاقتصر على كونه يجتهد فى منع جيش الفرنساوية عن اجتياز نهر تيزان وظن انه ينجح فى ذلك كانه نسى ما حصل له فى واقعته مع الامير لوتريك من اجتيازه لهذا النهر مع غاية السهولة فخاب سعيه كما خاب سعى لوتريك المذكور واجتاز الامير بونيويطة النهر بدون مشقة من مخاضة رآها خالية عن الحصون وعمن يقوم بالمدافعة عنها فعند ذلك توجه عساكر الايمبراطور الى مدينة ميلان عازمين على تركها متى وصل عساكر الفرنساوية الى ابوابها الا ان الامير بونيويطة اهمل ولم يبادر بالمسير جهة المدينة ولا يعلم لذلك سبب غير ان المؤلف غيشاردين ذكر انه حصل له نوع اختلال منعه عن المسير اليها فمكث به ثلاثة ايام او اربعة واضاع بذلك الفرصة النفيسة التى ابدا هاله الدهر وذلك انه فى اثناء تلك المدة افاق اهل ميلان من فزعهم واخذوا اهبتهم للمدافعة وكان كولون اذ ذاك قد بلغ حد الثمانين ومع ذلك كان نشيطا ماهرا وكان بمعيته الامير مورون وهو عدو مبين للفرنساوية فاشتغلا معا ليلا ونهارا فى اصلاح ما افسده الاعداء من الحصون والاستحكامات وجمعا ما يلزم من الذخائر والزاد وجند الجنود من سائر البلاد التى حولها فلم يصل الفرنساوية الى المدينة حتى صارت قوية حصينة قادرة على مكابدة المحاصرات فهجم عليها الامير بونيويطة عدة مرات بلا ثمرة بل تعبت عساكره من هذا الهجوم اكثر من عساكر اعدائه ولم يزل

كذلك

سنة ١٥٢٣

كذلك حتى اشتد البرد فاضطر الى الاحتجاب فى مساكن الشتاء حتى يمضى هذا الفصل

مطلب
موت البابا ادريان السادس

وفى اثناء ذلك مات البابا ادريان ففرح الاهالى بموته كل الفرح لانهم كانوا يبغضونه ويحتقرونه حتى انهم فى الليلة التى اعقبت موته زينوا باكاليل الازهار بيت الطبيب الذى كان يعالجه وكتبوا عليه هذه العبارة (منجى وطنه) وبمجرد موته اخذ الكردينال دوميديسيس يجدد دعواه فى اخذ منصب البابا ودخل مجلس الكردينالات مؤملا انه ينجح فى ذلك وكان الاهالى يجزمون بنجاحه لان الامبراطور كان يعينه كل الاعانة وكان لهذا الكردينال كلمة نافذة ونشاط غريب فى التحيل وكان بالغا الغاية فى انواع المكر والخداع المشحونة بها المجالس القسيسية ومع ذلك عارضه اخصامه فمكث مجلس الكردينالات خمسين يوما وهو يتذاكرفيمن يتولى منصب البابا وبعد ذلك كله غلبهم الكردينال المذكور وازال كل عائق وظهر على كل مانع وانتخب بابا وتقلد حكومة الكنيسة وسمى كليمان السابع واقر الناس

مطلب
انتخاب كليمان السابع فى ٢٨ من شهر تشرين الثانى

كافة هذا الانتخاب لانهم كانوا يؤملون كل الخير فى هذا الرجل الذى كان بمعارفه وتجاريبه العظيمة فى المصالح يرونه قادرا على حفظ دين الكنيسة وصيانته من مذهب لوتير وعلى ادارة مصالح الكنيسة السياسية مع الحزم الذى كانت تقتضيه الاحوال اذ ذاك وزيادة على ذلك كان له اقتدار على جعل الدول القسيسية محترمة كل الاحترام لما كان له من الشوكة فى فلورنسة ولغنى عائلته وسعة ثروتها

مطلب
عدم نجاح الكردينال ولسى فى نيل منصب البابا غمه وحقده

هذا وكان الكردينال ولسى يطمع فى نيل منصب البابا ولم تفتر همته بعدم نجاحه فى الانتخاب الاول اى حين انتخب البابا ادريان فكان يطمع انه ينجح فى تلك المرة وكتب الملك هنرى الى الامبراطور يذكره ماوعد به الكردينال المذكور من اعانته على نيل منصب البابا واظهر الكردينال ولسى فى الحاحه مايليق بعظم المنصب الذى كان يتطلبه وكتب لوكلائه فى مدينة رومة امرا قطعيا بانهم لايتركون شيأ يلزم صرفه

سنة ١٥٢٣

فى الهدايا او الرشوة الا صرفوه ولا وعدا الا وعدوا به لاجل نجاحه فى هذا المأرب ولكن لم يتصد الايمبراطور شرلكان لاعانته فى هذا الامر ولا يعلم لاى شئ كان يعده قبل ذلك فهل كان وعده اياه من قبيل الامانى الباطلة التى كان مصمما على عدم الوفاء بها اولانه رأى حينئذ انه من عدم الحزم والرأى أن يتصدى لانتخابه وان كان حقه فى ذلك ليس دون حق الكردينال دوميديسيس ولا مانع من كون الكردينالات لم يتصدوا لانتخابه خشية ان يجرّ ذلك لغضب الرومانيين لانه كان اجنبيا منهم لاسيما وكان غضبهم من البابا ادريان المتوفى لم يزل من اذهانهم فبعد أن بذل الكردينال ولسى غاية جهده خاب سعيه ولحقه غم عظيم حيث رأى ان من تولى على كرسى الكنيسة صغير السن عظيم البنية سليم الصحة فلم يبق له رجاء يسليه ويخفف آلامه واحزانه بل ولم يبق له رجاء الفسحة فى عمره حتى يموت البابا المتولى ويسعى فى تحصيل امنيته ولما خاب سعيه فى تلك المرة ايضا علم انه لا يوثق بكلام الايمبراطور وانه ليس من اهل الوفاء واضطرمت فى قلبه نيران الحقد والغضب التى يكون مثلها فى قلب كل متكبر خاب امله وغشه غيره وكان البابا كليمان يعرف أن دأبه الحقد واضمار الانتقام ففعل معه اشياء لطيفة ليسليه ويزيل غيظه فجعله نائبا عنه فى بلاد انكلترة مدة حياته وجعل له التصرف المطلق فيها حتى كانه بابا تلك المملكة ولكن لما لم يفز الكردينال ولسى بمنصب البابا فى تلك المرة غضب على الايمبراطور شرلكان وانفصمت الاسباب التى كانت تربطهما ببعض وصار هذا الكردينال من ذلك الوقت لا يتفكر الا فى الانتقام من الايمبراطور شرلكان ولكن لزمه ان يخفى هذا القصد عن سيده الملك هنرى حتى تساعده الاحوال على اخراجه من معاهدة الايمبراطور وايقاع الفشل والشقاق بينهما ولذلك لم يظهر ما يدل على غمه بل كان اذا تكلم امام الخاصة او العامة يبدى انه حصل له غاية السرور من تولية الكردينال كليمان على منصب البابا

مطلب حرب هنرى فى بلاد فرنسا

وقد وفى الملك هنرى مدة الحرب بجميع ما التزم به فى معاهدته مع الايمبراطور

على

سنة ١٥٢٣م على ملك فرانسا غير ان حربه لم يكن على وجه السرعة كما كان يؤمله وذلك
انه لاسرافه فى ايراداته كان لا يجد غالبا ما يحتاج اليه من الدراهم وكانت
حينئذ طريقة الحرب فى بلاد اوروبا مباينة للطريقة التى كانت جارية
قبل ذلك فان العساكر بعد أن كانت تجتمع مع السرعة وكان لكل جماعة
رئيس مخصوص وكانوا جميعا يتبعون اميرهم فى الحرب ولا يمكثون فيه
الا اياما معدودة ومصاريفهم على انفسهم تغير الحال فى عصر هنرى
فكان يلزم لجمع العساكر مصاريف واسعة وتجعل لهم ماهيات جسيمة
ولم يكن الامر كالسابق من ان الفريقين المتحاربين كانا يجزعان من طول
الحرب فينهيانه بحادثة يثبت فيها الظفر لمن تساعده المقادير لا سيما وكانت
المدائن اذ ذاك غير حصينة فمن واقعة واحدة كان يثبت الامر ويظهر الغالب
من المغلوب ويرجع البارونات مع اتباعهم الى اشغالهم اليومية بل كانت
المدائن فى عصر هنرى حصينة محكمة المبانى وفيها من يدافع عنها مع
القوة والعزم فبعد أن كان فن الحرب سهلا بسيطا صار فنا مشكلا كثير
اللوازم وبناء على ذلك كانت تطول مدة الحروب ولا ينتهى القتال الا بعد
المشاق الفادحة فازدادت بذلك مصاريف الحروب حتى سئم الاهالى منها
حيث لم يكونوا متعودين الا على دفع مغارم خفيفة لا تضر بهم فكان ذلك
منشأ للتقتير والشح الذى اتخذه ارباب جمعيات المشاورة الانكليزية دينا وديدنا
ولم يمكن للملك هنرى مع صولته وشوكته ان يردهم عنه لكنه لما طلب
لاجل هذا الحرب امدادا من الجمعيات البلدية وابت ان تعطيه استعان عليها
بمزية كانت ثابتة لملوك انكلترة حينئذ وهى انهم لهم التصرف المطلق
٢٠ شهر ايلول فى رعاياهم فبهذه الواسطة حصل ما كان يحتاج اليه من الدراهم ولكن لم يكن
ذلك الا بعد مدة مستطيلة حتى انه مضى معظم فصل الشتاء قبل أن يبرز جيشه
الى ميدان الحرب مع سر عسكره الدوق سوفولك وبعد تجهيز جميع اللوازم
سار السر عسكر المذكور بالجيش وضمه الى طائفة عظيمة من عساكر
الفلمنك وتوجه الى اقليم پيكاردية وكان لا يوجد فيها من يدافع عنها

سنة ١٥٢٣
لان الملك فرنسيس حينئذ كان لا يلتفت اليها وانما كان مرامه أن يستولى ثانيا على دوقية ميلان فلم يزل الدوق سوفولك سائرا بدون عائق حتى وصل الى شواطئ نهر الوازة بعيدا عن مدينة باريس بسبعة فراسخ ففزع اهل هذه المدينة وداخلهم الخوف والرعب الا ان الملك كان حينئذ بمدينة ليون فارسل اليه سرية من العساكر فمن مهارة ضباط الفرنساوية ونشاطهم لم يمهلوا العدو لا ليلا ولا نهارا حتى الجأوا الانكليز الى الرجوع لاسيما وكانوا فى شدة الشتاء ونفد الزاد منهم وكان حكمدار تلك السرية الامير لاتريموى فخار الفخار حيث دفع مع شرذمة قليلة من العساكر جيشا جرارا واجلاه من ارض فرانسا مخذولا وانهزم ايضا عساكر الامبراطور فى بورغونيا وفى غيانة وان كان الملك فرنسيس لاهماله لم يحصن هذين الاقليمين على ما ينبغى لكن شجاعة جنرالاته سدت مسد ما فاته من التبصر فى العواقب فطردوا العساكر الالمانية التى هجمت على اقليم بورغونيا والعساكر الاسبانيولية التى هجمت على اقليم غيانة وخسرت خسرانا كبيرا

مطلب انتهاء الحرب
وبذلك انتهت واقعة سنة ١٥٢٣ التى ساعدت المقادير فيها فرنسيس وثبت له الظفر والنجاح حتى صار له موقع عظيم فى قلوب الافرنج واعترفوا له بقوة الشوكة والصولة كيف وقد كشف فتنة مهولة ودمر اهلها وجبر من دبرها وهو الدوق بوربون على الخروج من المملكة حقيرا ذليلا لم يتبعه احد من خدمه وحشمه وافسد على العصبة القوية التى تحزبت عليه سائر مقاصدها واغراضها وعرف كيف يدافع عن دوله وكان العدو قد هجم عليها من ثلاث جهات مختلفة وزيادة على ذلك ظفر جيشه الذى كان حينئذ ببلاد ايطاليا حيث استولى على نصف دوقية ميلان وان كان ذلك دون ما كان يؤمل منه لزيادة عدده عن عساكر العدو

سنة ١٥٢٤
مطلب رأى البابا الجديد فى ٢٧ من شهر سباط
واما الواقعة التى اعقبت تلك الواقعة فكانت مبادئها مشوّهة على مملكة فرانسا وذلك انه ضاع منه مدينة فونترابى بجبن حكمدارها او خيانته

سنة ١٥٢٣

وصمم المتعاهدون فى بلاد ايطاليا على بذل جهدهم فى طرد الامير بونيوبطة مع جيشه من الجزء الذى كان تغلب عليه فى دوقية ميلان وهى البلاد التى خلف نهر تيزان الان البابا كليمان وان كان قبل توليته فى زمن كل من البابا ليون والبابا ادريان يظهر البغضاء للفرنساوية صار يتطير بعين الغيرة والحسد الى نمو شوكة الامبراطور وازديادها فابى ان يقر كغيره ممن سبقه من البابات العصبة المتحزبة على ملك الفرنساوية وتسى بغضته لهم وبذل جهده فى الاصلاح بين الفريقين ولكن خاب سعيه فى ذلك لان المتعاهدين جمعوا جيشا عظيما وارسلوه الى دوقية ميلان فى اول شهر آدار وبعد موت الامير كولون تقلد رياسة هذا الجيش الوزير لانواى الذى كان نائب الملك فى نابلى لكن انيط بعمليات الحروب الجسيمة الدوق دى بوربون والملتزم پسكير لان هذا الملتزم كان انشط الجنرالات الالمانية واعظمهم فى المهارة والحذق واما الدوق دى بوربون فكان لاغاظته من الملك فرنسيس يبذل جميع مجهوداته لاسيما وكان يعرف طبع الجنرالات الفرنساوية وعساكرهم ويعرف قوتهم وضعفهم فكان له اقتدار عظيم على احكام ادارة الجيش الا انه كان هنالك عوائق اخرى وهى ان الامبراطور كان لا يمكنه تحصيل الدراهم اللازمة لتنجيز المشروعات الجسيمة التى عزم عليها فلما اراد الجنرالات ان يتوجهوا بالعساكر الى العدو امتنعوا عن السير الا اذا صرفت لهم ماهية عدة اشهر كانت باقية لهم فاخذ الضباط يهددونهم تارة ويخادعونهم اخرى ولم يجد ذلك نفعا بل استمروا على تصميمهم وعزموا على نهب دوقية ميلان ان لم يجابوا المطلوبهم ولكن كان للامير موررون كلمة نافذة فى هذه الدوقية التى هى وطنه فاخذ من اهلها المبلغ اللازم لدفع ماهيات العساكر وبعد أن صرفت لهم ماهياتهم توجهوا للقاء العدو

مطلب
مبادرة جيش الامبراطور الى الحروب

مطلب
تأخير الحروب بسبب العساكر وامتناعهم السير الى العدو

ولم يكن مع الامير بونيوبطة من العساكر من يكفيه لمقاومة جيوش عدوه وزيادة على ذلك لم يكن له كبير معرفة بالفنون العسكرية كغيره من جنرالات

مطلب
اضطرار الفرنساوية لترك دوقية ميلان

سنة ١٥٢٣

الاعداء فحصلت عدة مصادمات ذكرها على حقيقتها مؤرخو ذلك العصر ولا حاجة الى ايرادها هنا لانها بمعزل عن غرضنا فلا تتوقف عليها الفائدة ولا تتشوق اليها النفس وبعد تلك المصادمات العديدة اضطر الامير بونيويطة الى ترك محطة نفيسة كان قد نزل بها قريبا من مدينة بياغراسة ولو لم يرتحل عن هذه المحطة لاعانته كثيرا على الاعداء فبعد ارتحاله بقليل اختل نظام جيشه لعدم حسن ادارته ولقوة العدو ولانهم كانوا يحملون على جيشه حملة منكرة ويبددون شمله بضرب النار ويحاولون أن لا يصادموه وهو مصطف منتظم وزيادة على ذلك كان للامير بونيويطة ستة آلاف من عساكر السويسيين بالبعد عنه بمرحلة فلما كتب لهم أن يحضروا اليه عصوه وابوا اللحوق بجيشه فاضطر الى الالتجاء والفرار الى فرانسا وكان سبيله وادى اوستة فلما وصل الى شواطئ نهر سيسية عازما على اجتيازه الا وظهر الدوق دى بوربون والامير بسكير مع طليعة جيش الايبراطور وانقضا على مؤخر جيشه فثبت بونيويطة امامها وابدى العجب العجاب حتى جرح جرحا بليغا اجبره على ترك ميدان الحرب فسلم ساقة الجيش للفارس بيار وكان شجاعا من الابطال الا انه لعدم تملقه لم يصل الى الرياسة استقلالا على جيش ولكن كان يعول عليه فى الخطوب الجسيمة وينا ط بالوظائف المهمة التى توقع غيره فى الحيرة والارتباك فسار امام الخيالة ولاقى الاعداء مع الثبات وقوة الجنان وتأسى به العساكر فحملوا على العدو حملة صادقة فامكنه بذلك ان يسهل الالتجاء على بقية الجيش الا انه جرح جرحا قاتلا فلم يمكنه ان يثبت على ظهر جواده فامر بعض اتباعه ان يسنده الى شجرة ويجعل وجهه مقابلا للاعداء ورفع سيفه بيده عوضا عن الصليب وصار ينظر الى مقبضه ويدعو الله تعالى حتى مات على هذه الهيئة التى زاد بها شرفا فى ديانته وشجاعته وكان الدوق دى بوربون امام عساكر الاعداء فلما وجده قبل موته على هذه الحالة رق لحاله واظهر له التأسف والتحسر فاجابه بيار بهذه العبارة لا ينبغى التأسف على مثلى اذ انا اموت شريف العرض فى تأدية ما يجب على وانما ينبغى

مطلب
موت الفارس بيار وانهزام جيش الفرنساوية

التأسف

سنة ١٥٢٣

التأسف على شقاوة من خان ملكه ووطنه ونقض عهده * ومر به ايضا الملتزم بسكير ومدح فضائله وتأسف على فقده واظهر له من الشفقة غاية ما يؤمل من عدو كريم النفس واراد ان ينقله من محله فرأى ان فى نقله مشقة وخطرا فأبقاه بهذا المحل ونصب له فيه خيمة وابقى عنده اناسا يقومون بخدمته ومعالجته لكن لم تنفعه المعالجة بل مات فى ميدان الحرب كآبائه واجداده منذ عدة اجيال فاخذ الامير بسكير جسمه وصبره وارسله الى اقاربه فانظر كيف كانوا فى تلك الاعصر يحترمون صاحب المعارف فى العسكرية حتى ان دوق ساووة امر بان كل مدينة من اراضيه تمر بها جنة الفارس بيار يجب عليها ان تؤدى له من التشريف ما يجب اداؤه لجنازات الملوك ولما وصل الى وطنه وهو اقليم دوفينة صنع له فيها محافل عظيمة وشيع جنازته سائر الناس على اختلاف حرفهم ومراتبهم

وسار بونيويطة الى فرانسا مع من بقى من جيشه وفى هذا الحرب القصير المدة جرد الملك فرنسيس عن سائر اراضيه ببلاد ايطاليا ولم يبق له فيها ولى ولا نصير

مطلب
تقدم النسخ فى بلاد المانيا

وحين كانت نيران الحرب مشتعلة فى عدة من ممالك الافرنج بسبب معاداة الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس لبعض كانت بلاد المانيا فى صلح عظيم وراحة تامة تعين على تقدم النسخ فى الدين واتساع دائرته * ففى مدة ما كان لوتير مختبيا فى قصر وارتبورغ حصل ان رجلا من تلامذته يسمى كرلوستاد كان قد شرب من مشربه وان كان دونه فى الحزم والسياسة فبذل جهده وادخل فى اعتقاد العامة امورا باطلة واوهاما عاطلة تضر بمذهب لوتير وغيره واشربت فى قلوبهم مواعظه حتى عصوا فى عدة قرى من دوقية سكس وخربوا الكنائس وكسروا صور القديسين التى كانت تلك الكنائس محفوفة بها ولا شك ان مثل هذه الفعال كانت تغضب الامير فريدريق منتخب سكس الذى كان يدافع عن لوتير فى حماه ولو لم يكن منعها على وجه السرعة لكفت فى انفصاله وتخليه عن حرب لوتير لان هذا الامير

سنة ١٥٢٣

المنتخب كان يحاذر مهما امكن ان لا يغضب الايمبراطور وغيره من الملوك الذين كانوا قائمين بتأييد المذاهب الدينية القديمة ولما كان لوتير يعرف ان ذلك يكون به عرضة للخطر ويؤدى الى اضراره وتعطيل مذهبه خرج فورا من القصر المذكور من غير أن يستأذن الامير فريدريق ورجع الى مدينة وتمبرغ وبمساعدة الاقدار كان الناس يحترمون لوتير كل الاحترام ويهابونه حتى انه بمجرد وصوله الى العاصين سكتوا واقلعوا عن الفعال القبيحة التى ارتكبوها وزعموا انه لم يحثهم على ذلك احد من البشر وانما سمعوا صوت ملك يناديهم ويأمرهم به

فى ٢٦ من شهر ادار سنة ١٥٢٢

مطلب ترجمة لوتير الكتاب المقدس

وقبل أن يخرج لوتير من ملجئه كان قد شرع فى ترجمة الكتاب المقدس (كتاب العهد القديم والجديد) باللغة الالمانية ومثل هذا كان مشروعا صعبا لكنه رآه مهما جدا وبعينه حق الاعانة على مقصوده فصمم على ترجمته ولم يكترث بصعوبته ولا شك انه كان مستكملا لجميع الصفات التى بها يكون النجاح فى مثل هذا المشروع الصعب وذلك انه كان له الملم فى الجملة باللغات المشرقية وكان له معرفة غزيرة بالكتب المقدسة وانشاآت الاحبار الملهمين وكان يعرف لغة وطنه (اللغة الالمانية) حق المعرفة وكان انشاؤه فيها بليغا طريا لا تعلوه بلاغة فى تلك اللغة وان كان انشاؤه فى اللغة اللاطينية صعبا ركيكا تسأم منه النفوس فلكثرة اجتهاده ومواظبته واعانة تلميذه ميلنختون وغيره من تلامذته النجباء تم جزء من كتاب العهد الجديد سنة ١٥٢٢ وكانت اذاعة ترجمة هذا الجزء اكثر ضررا بالكنيسة رومة من سائر الكتب التى الفها لوتير فى هذا المعنى وذلك ان الناس على اختلاف مناصبهم وحرفهم قرؤه واعتنوا بقراءته كل الاعتناء وتعجبوا حين رأوا ان دين عيسى عليه السلام فى الاصل مخالف بالكلية لدين الكنيسة الرومانية ومناقض لسنن البابات الذين يزعمون انهم خلفاء عيسى عليه السلام وحفظة اسرار دينه وحيث كان يوجد فى الانجيل قواعد الدين ظن الناس ان كل انسان له اقتدار على تطبيق تلك الاصول والاحكام الدينية وعلى البحث فى مذاهب

الكنيسة

سنة ١٥٢٤

الكنيسة ومعرفة ماهو موافق منها الدين المسيح وما يخالفه فلما رأى احزاب لوتير قبول الناس لترجمته اقتدوا به فى ذلك وترجموا الكتاب المقدس بعبارات يفهمها الخاص والعام ونشروا ترجمته فى سائر الاقطار الافرنجية

مطلب ابطال المواسم والحفلات الدينية فى عدة مدائن

وحصل فى اثناء ذلك ان مدينة نورمبرغ ومدينة فرنكفورت ومدينة همبورغ وعدة مدائن اخرى كبيرة من بلاد المانيا قد اتبعت الدين الجديد وابطلت بامر ولاتها القداس وغيره من المناسك الدينية التى كانت تأمر بها كنيسة رومة وقام كل من الامير منتخب برندبورغ ودوق برونسويك ودوق لونبورغ وامير أنهلته بحماية مذهب لوتير وتعضيده وامروا باتباعه فى سائر اراضى دولهم

الوسايط التى استعملها ادريان ليمنع تقدم مذهب لوتير

فصار ارباب ديوان رومة فى غم شديد بسبب هذه المصيبة التى كانت كل يوم فى نمو وازدياد وكان البابا ادريان بمجرد وصوله الى ايطاليا قد اعتنى بتحصيل ما يكون به دواء هذا الداء بجمع مشورة للكردينالات ليتذاكر معهم فى هذا الشان وكان ادريان متمكنا من علم اللاهوت الاسكولاستيكى وامتاز فيه من صغره وكان هذا العلم اصلا فى شهرته وفلاحه ثم لم يزل يحبه ويذب عنه حتى كان لا يفرق بين الكفر وبين قدح لوتير فى العلماء الاسكولاستيكيين لاسيما قدحه فى العالم توما آلين لان آراء هذا العالم كانت تظهر له واضحة مبنية على براهين وادلة قوية لا يمكن نقضها فكان رأيه انه لا يناقض تلك الآراء ولا يشك فى صحتها الا من طمس على بصره وبصيرته وضل فى اودية الجهالة او كان دأبه انه يكتم الحق وان اعتقده وبالجملة فما كان احد من البابات يدافع عن مذهب الكنيسة كالبابا ادريان فان البابا ليون العاشر كان يدافع عن مذهب الكنيسة القديم لمجرد انه كان يخشى على الكنيسة الضرر ان حصل فى مذهبها تغيير وتبديل واما البابا ادريان فكان يعضد هذا المذهب القديم ويبدى فى الاستدلال على صحته جميع ما يقتدر عليه علماء اللاهوت الاسكولاستيكى من جدل وعناد غير انه لما كان من طبعه الورع والزهد وكان منزها عن جميع المفاسد التى كانت حينئذ بديوان رومة

سنة ١٥٢٤

كان يعترف ان ديوان رومة مشحون بالمفاسد وكان يسخط باطنا على ارباب هذا الديوان بقدر ما كان يسخط عليهم احزاب لوتير ومما يدل على ذلك الفرمان الذى ارسله الى مشورة الدييتة التى انعقدت بمدينة نورمبرغ

فى تشرين الثانى سنة ١٥٢٢

والامور التى اوصى بها القسيس شيريغاتو حين ارسله الى تلك المشورة لينوب عنه فيها فمن جهة شنع فى هذا الفرمان على آراء لوتير تشنيعا لم يسبق قبله من البابا ليون العاشر ووبخ فيه امراء المانيا على كونهم تحملوا من هذا المبتدع ان ينشر بين الناس آراءه المضرة واهملوا فى اجراء امر الايمبراطور الصادر الى مشورة الدييتة المنعقدة فى مدينة ورمس وامرهم ان يحرقوا لوتير ان لم يبادر بالاقلاع عن اعتزاله وضلاله وان لا يمهلوه لانه فى ابناء النصرانية كعضو قد شل من بدن ولا حرج فى ازالته وقطعه كما فعل موسى عليه السلام حين قتل الرافض داثان والرافض آبيرون وكما قتل الحواريون المعتزل أنانياس والكافر سافيرة وكما قتل ايضا بعض الملوك والامراء ابناءهم لهذا السبب * ومن جهة اخرى اعترف فى هذا الفرمان ان فساد حال ديوان رومة هو السبب فى ايقاع الكنيسة فى تلك المصائب ووعد بانه سيبذل غاية جهده فى ازالة تلك المظالم والمفاسد بقدر ما تسوغه له مقتضيات الاحوال وترجى من امراء المانيا ان يعينوه فى اجراء ما يكون به ازالة الاعتزال الموجود فى بلادهم

مطلب
استدعاء مشورة الدييتة المنعقدة فى نورمبورغ بان تعقد مشورة قسيسية عامة لتتذاكر فى ازالة اسباب الاعتزال

فبعد أن قرأ ارباب مشورة الدييتة فرمان البابا اثنوا عليه فى نظير محبته للكنيسة وشكروه على حسن مقاصده واعتذروا له عن عدم اجراء امر الايمبراطور الذى صدر لهم فى مدينة ورمس بكونهم لا يسهل عليهم ذلك لكثرة احزاب لوتير وانصاره وبان ديوان رومة كان مبغضا عند الرعايا لشدة ظلمه وعدوانه فلذا كان اجراء ذلك الامر خطرا جدا بل كان من قبيل المستحيلات وابدوا انه يلزم الا ن اتخاذ احتراسات جديدة قوية لشفاء غليل اهل المانيا مما يشكون منه حيث ان شكواهم فى محلها لكونها مؤسسة على مظالم كبيرة لا تطاق كما سيعلمه البابا باطلاعه على الجدول الذى سيعرضه

سنة ١٥٢٤

عليه ارباب مشورة الديتة فكان راى ارباب هذه المشورة ان لا دواء يصلح لهذا الداء ويعيد الكنيسة الى قوتها الاولى الا جمع مشورة قسيسية عامة وبناء على ذلك اشاروا على البابا ان يستأذن الامبراطور ويجمع فى اقرب وقت تلك المشورة فى احدى المدائن الكبيرة ببلاد المانيا وكل من كان له حق فى الحضور بتلك المشورة يأتى اليها آمنا مطمئنا ويبدى رأيه كيف شاء والا فيخشى على الدين القديم من الضياع

مطلب
تحيل نائب البابا ويحاول لاجل منع انعقاد المشورة القسيسية

ولكن لما كان نائب البابا اروغ منه واكثر نباهة واعرف بمقاصد ديوان رومة وآرائه السياسية فزع حين سمع انهم يريدون جمع مشورة قسيسية عامة لانه كان يعلم انه من الخطر للكنيسة والبابا ان تجمع تلك المشورة فى ذلك الزمن اذ كان اغلب الناس حينئذ يبغضون البابا ويشكرون حكمه عليهم وقل عندهم احترامه واخذوا يخرجون عن طاعته فاستعمل جميع ما فى طاقته من التحيل والخداع ليحمل ارباب مشورة الديتة على مطاردة لوتير ويتركوا مقصدهم من عقد تلك المشورة العامة ببلاد المانيا ولكن حيث ادرك ارباب الديتة ان نائب البابا يريد بذلك مراعاة مقاصد ديوان رومة لا المحافظة على ابقاء الراحة فى الامبراطورية ولا على ابقاء الكنيسة الرومانية طاهرة منزهة عن الدنس والارجاس لم يتحولوا عن مقصدهم واستمروا على تحرير جدول يتضمن شكواهم ليعرضوه على البابا ولما خاف نائب البابا ان يوكلوه بحمل هذا الجدول ليوصله الى ديوان رومة وهو لا يحب ان ينقل الى الديوان مثل هذا الخبر المشؤم عجل بالخروج من مدينة نورمبرغ ولم يستأذنهم

مطلب
عرض مشورة الديتة على البابا جدولا مشتملا على مائة شكوى

فحرر امراء الاهالى ارباب المشورة جدولا مشهورا فى تواريخ المانيا يشتمل على مائة مادة يشكون منها ويعدونها من مظالم ديوان رومة واما امراء القسوس الذين كانوا بتلك المشورة فاقتصروا على عدم المعارضة فى هذا الشان لانهم رأوا انه لا يليق بهم استحسان ذلك والرضا به ولا يخفى ان اغلب هذه الشكاوى كان غير ما ذكر فى الجدول الذى حرر فى عهد الامبراطور

سنة ١٥٢٤م

مكسيمليان ولا نذكرها هنا تفصيلا خوف الاطالة وانما نقول انهم تشكوا من المبالغ التي كانت تضرب على العفو والبرآءة والغفران ومن المصاريف الكثيرة التي كان يغرمها من اقيمت له دعوى في ديوان رومة ومن مزية كانت للقسوس من انهم لا تجرى عليهم الاحكام المدنية كسائر الاهالي ومن الحيل والمخادعات التي كان يستعملها قضاة القسوس ليطلعوا على سائر الدعاوى المدنية ومن قبح سلوك معظم القسيسين وفساد اخلاقهم ومن عدة امور اخرى مستقبحة قد ذكرنا اغلبها في ضمن الاشياء التي اعانت على تقدم مذهب لوتير وقبول ارائه بين الناس وختم الامرآء هذا الجدول بقولهم ان لم يبادر البابا بازالة هذه الاشياء الذميمة المضرة فلا صبر لنا بعد ذلك بل نبذل في انقاذ انفسنا منها جميع ما ييسره الله تعالى لنا من القوة والطاقة

مطلب
حاصل ما انحطت عليه الارآء في مشورة الديئة في ٦ من شهر ادار سنة ١٥٢٣

ومع ان نائب البابا الح على ارباب الديئة ان يطاردوا لوتير واحزابه ويضيقوا عليهم كل التضييق صدر منهم امر لسائر اهالي الايمبراطورية ان يبقوا على ماهم عليه حتى تجتمع المشورة القسيسية العامة ولا ينبغي نشر شيء من العقائد والمذاهب الجديدة يكون مخالفا للمذاهب الكنيسة حتى تنعقد تلك المشورة القسيسية وتحكم بما تستصوبه وصدر ايضا امر بان سائر الخطباء والوعاظ لا يتصدون في خطبهم لذكر شيء من الامور الغامضة الجدلية وانما يقتصرون على ذكر حقائق الدين كما هي لمجرد افادة العامة

وكان لاحزاب لوتير نفع عظيم وفائدة كبيرة من هذه الاوامر الصادرة من مشورة الديئة وذلك انها تدل اوضح دلالة على الفساد الموجود في ديوان رومة وتدل ايضا على ان المغارم التي كانت تضربها القسوس على الناس كانت زآئدة عن الحد لا تطيقها الانفس وكان لهم في فرمان البابا ما يدل على صحة قدحهم وتشنيعهم على الكنيسة بالنظر للامر الاول وهو فساد ديوان رومة واما الثاني وهو ضرب المغارم المتجاوزة للحد فاقره وكلاء الجمعية الجرمانية في مشورة الديئة وكان انصار المذهب الجديد في تلك المشورة اكثر عددا من انصار الدين القديم واقوى منهم بأسا وشوكة وجعلوا

سنة ١٥٢٤

المظالم التى كان لوتير يشنع بها على الكنيسة الرومانية من جملة الامور التى كانت اهالى الايمبراطوريه تتشكى منها فلذلك صار لوتير واصحابه فى سائر المؤلفات الجدلية التى نشروها بعد ذلك بين الناس يستدلون بقول البابا ادريان والمائة شكوى التى حررها ارباب مشورة الديتة على صحة ما كانوا يقولونه فى اختلال ديوان رومة وظلم القسوس وطمعهم

مطلب ما كان يلام ادريان فعله

واما اهل رومة فرأوا ان سلوك ادريان بهذه المثابة مما يدل على حمقه وعدم حزمه لان ارباب ديوان رومة كانوا قد طبعوا على مثل خبث دواوين البابات وتعودوا على اتخاذ نفعهم نصب اعينهم فى سائر افعالهم ولا يراعون عدالة ولا حقا فتعجبوا كل العجب من البابا ادريان حيث عدل عن نهج الحزم الذى كان يتبعه البابات قبله واعترف بان الكنيسة لا تخلو عن الخلل والفساد واعجب من ذلك انه كان يستعين با راء اناس كان حقه ان يأمرهم بما شاء لا ان يستشيرهم فى اموره فكان ارباب هذا الديوان يخشون ان يستند لوتير واحزابه على قول ادريان فلا يزالون على اعتزالهم وعنادهم وربما أدى ذلك الى ضعف شوكة البابات وترتب عليه سد الابواب التى تأتى منها ايرادات القسوس واموالهم فلذا كانوا يحاولون منع ادريان عن التغيير والتبديل الذى كان يريد احداثه فى الكنيسة الرومانية فكان فى تعب شديد من جهتين مختلفتين الاولى عناد لوتير والاخرى قبح سلوك اهل ايطاليا وفساد اخلاقهم وطالما تأسف على زمن قضاه فى رياسة دير لوان وان كان هذا المنصب دون منصبه الآن لانه كان به فى راحة تامة لا يرى ما ينغص عليه عيشه ويمنعه عن تنجيز مقاصده الحسنى

مطلب الاحتراسات التى اتخذه كليمان لابطال مذهب لوتير

واما البابا كليمان السابع الذى تولى بعد موت ادريان فكان يفوقه فى السياسة وفى الحكم بقدر ما كان ادريان يفوقه فى حسن الاخلاق وصفاء النية فكان كبقية البابات يكره انعقاد مشورة قسيسية كل الكراهة خصوصا وكان لم يول منصب البابا الابطريق غير موافقة لقوانين فكان يخشى من

سنة ١٥٢٤

انعقاد تلك المشورة لانها ربما نازعت فى توليته فلاجل أن يخرج من تلك الحيرة التى اوقعه فيها عدم حزم آدريان الذى كان قبله لزمه ان يحاول كل المحاولة فى اجابة اهل المانيا عن الامرين اللذين كانوا يطلبونهما اعنى انعقاد المشورة القسيسية وازالة المظالم والمفاسد من ديوان رومة فانتخب رجلا حاذقا فطنا وبعثه ليكون نائبا عنه فى مشورة الدييتة التى انعقدت ثانيا فى مدينة نورمبرغ وهو الكردينال كمبيجيه الذى كان الباباوات قبل كليمان يفوضون له الامر فى انهاء مصالح جسيمة جدا وبت امور صعبة مهمة وكان يوفى بها حق التوفية

مطلب مداولة نائب البابا فى مشورة الدييتة المنعقدة ثانيا بمدينة نورمبرغ فى شهر سباط سنة ١٥٢٤

فلما حل الكردينال كمبيجيه بمشورة الدييتة لم يتعرض لذكر ما حصل فى المشورة السابقة بل وعظ الناس بخطبة طويلة موضوعها تحريض ارباب المشورة على اجراء الامر الصادر من الايمبراطور الى المشورة التى انعقدت بمدينة ورمس لانه لا يمكن منع اعتزالى لوتير الا بهذا الامر فاجابه ارباب المشورة بانهم يريدون اولا ان يعرفوا رأى البابا فى شأن ما عرضوه عليه وهو طلب عقد المشورة القسيسية وازالة المظالم التى ذكروها فى تقريرهم فحاولهم أن لا يجيبهم عن الغرض الاول وهو عقد المشورة القسيسية حيث اجابهم بكلام مجمل مبهم وهو ان غرض البابا البحث عما فيه المصلحة للكنيسة الرومانية واما الغرض الثانى وهو ازالة المظالم المذكورة فى تقريرهم فاجاب عنه بان التقرير لم يصل الى رومة الا بعد موت البابا آدريان وبناء على ذلك فهو لم يعرض على البابا الجديد حتى يظهر رأيه فى هذا الغرض ولكن قال امام ارباب المشورة ان هذا التقرير الذى ارسل الى البابا يشتمل على مواد فيها اساءة ادب فى حقه وان ارباب المشورة قد اساؤا الادب ايضا فى حق الكنيسة الرومانية حيث امروا بنشر تلك المواد بين الناس وختم كلامه بطلبه منهم ان يضيقوا على لوتير واتباعه كل التضييق ووافقه على هذا الرأى رسول الايمبراطور وافاد ان الايمبراطور يريد تشريف الكنيسة وابقاءها محترمة مبجلة ومع ذلك فكان حاصل مذاكرات هذه المشورة عين ما انحطت

الاراء

الآراء في المشورة المنعقدة قبلها ولم يرد عليه شئ من التشديد والتضييق على لوتير ولا على اتباعه واحزابه

وقبل أن يخرج الكردينال كمبيجة من بلاد المانيا نشر بين الناس بعض قوانين لطيفة كان غرضه منها استعطافهم واستمالة قلوبهم لان هذه القوانين كان فيها ازالة بعض اشياء من المظالم والمفاسد التي كان يرتكبها اسافل القسوس ولكن كانت قليلة فلم تشف غليل اتباع لوتير ولم تجد نفعا في تسكين غيظ الناس لان هذا الكردينال بفعله ذلك كانه انما قطع بعض فروع من شجرة خبيثة الاصل كان اهل المانيا يريدون قلعها واستئصالها من جذرها

(المقالة الرابعة)

من اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
آراء دول ايطاليا في شأن مصالح الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس

كان اهل ايطاليا يجزمون بانه بعد انهزام الفرنساوية وطردهم من دوقية ميلان ومن اراضي جمهورية جنويزة لابد من انقطاع الحرب بين الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس ولما رأوا انه لم يبق في ايطاليا بعد طرد الفرنساوية منها ملك ذو شوكة وقوة يمكنه ان يقاوم الايمبراطور صاروا يخشون من ازدياد قواه ونمو شوكته واخذوا يبذلون غاية جهدهم في ايقاع الصلح بين الفريقين وكان السبب الاصلي الذي دعاهم الى المعاهدة مع الايمبراطور هو أن يردوا الى الامير سفورس بلاده الوراثية فلما بلغوا هذا الغرض لاحت منهم علامات تدل على انهم لا يريدون من الآن فصاعدا اعانة الايمبراطور على خصمه الملك فرنسيس وانه قد حصل لهم باطنا غيرة من ظفر الايمبراطور وازدياد شوكته وصولته لاسيما البابا كليمان فانه كان يخاف كثيرا من طمع الايمبراطور وبذل غاية جهده في ان يغرس في قلبه حب القناعة وترك الطمع وان يستميله الى الصلح كما استدل على ذلك بمراسلاته التي حررها للايمبراطور وبكلام رسله الذين بعثهم اليه لهذا الغرض

سنة ١٥٢٤

مطلب
تصميم شرلكان على الهجوم على مملكة فرنسا

ولكن لنجاح الايمبراطور وشدة طمعه وتحريض الدوق دى بوربون اياه لانه كان يريد الانتقام لنفسه لم يلتفت الى قول كايمان بل اظهر انه صمم على الحرب وانه لا يمكن ان يرجع عن نيته وانه سيامر جيشه بان يسير من جبال البة ليهجم على اقليم پرونسة لانه غير حصين وحاول ارباب الخبرة والتجاريب من وزرائه ان يحولوه عن هذا القصد ويبدوا له انه صعب عليه لقلة عساكره ونفاد امواله فلم يجد ذلك شيأ لانه كان يؤمل ان ملك انكلترة سيعينه اتم اعانة وزيادة على ذلك كان الدوق دى بوربون يعده بانه بمجرد دخول جيشه فى فرانسا ينضم اليه طائفة كبيرة من احزابه واصحابه الذين كانوا فى قلق عظيم من طرده من المملكة وبعده عنهم فلذا استمر شرلكان مصمما على مقصده ولا يدرى انه فى غرور واماني باطلة وقد التزم الملك هنرى ان يدفع مائة الف دوقة (نوع من النقود) على سبيل الاعانة مدة اول شهر من الحرب وبعد هذا الشهر يكون مخيرا بين امرين اما ان يستمر على دفع هذا المبلغ فى كل شهر او يهجم على اقليم پيكردية مع جيش عظيم قبل فراغ شهر تموز والتزم الايمبراطور ان يهجم قبل فراغ الشهر المذكور على اقليم غينية مع طائفة كبيرة من العساكر فاذا نجح رد الى الدوق دى بوربون جميع اراضيه المسلوبة منه وولاه ملكا على اقليم پرونسة ويكون تحت سيادة الملك هنرى لانه هو الاحق بالتملك على فرانسا

ولم يحصل من هذه الامور كلها الا شىء واحد وهو الهجوم على اقليم پرونسة لان شرلكان لم تفتر همته ولم يرجع عن هذا القصد وان كان الدوق دى بوربون لم يراع الاحوال اذ ذاك وأبى ان يكون تحت سيادة الملك هنرى وان يقره بالملوكية على مملكة فرانسا فاتخذ الملك هنرى ذلك علة ورجع عن جميع الاشياء التى كان التزم بها وكان جيش الايمبراطور الذى اعده لهذا المشروع لا يبلغ الاثمانية عشر الفا وجعل الامير پسكير رئيسا عليه وامره ان يمتثل فى جميع حركاته واعماله لاوامر الدوق دى بوربون فسار هذا الامير واجتاز جبال البة ولم يجد من يقاومه ويصده عن الطريق فدخل اقليم

سنة ١٥٢٤

مطلب
دخول جيش الامبراطور في اقليم پرونسة في ١ من شهر آب

بروفنسة ووضع الحصار امام مدينة مرسيليا وكان مرام دي بوربون ان يسير
الى مدينة ليون لان اراضيه كانت بقرب تلك المدينة فيكون شوكته بها
اقوى وكلمته اكثر نفوذا ولكن كان الامير پسكير يعلم ان الامبراطور
شرلكان يرغب كل الرغبة في الاستيلاء على مينا مرسيليا لانه اذا استولى
عليها يسهل عليه ان يدخل مملكة فرانسا متى شاء فلم يمتثل تلك المرة لقول
بوربون ورأى ان اخذ مرسيليا هو الغرض الاصلي فلما ادرك الملك

مطلب
ما اتخذه الملك فرنسيس من الاحتراسات المبنية على الحزم والحذق

فرنسيس مقصد الامبراطور اخذ يدبر الوسايط والاحتراسات التي بها يمكنه
ان يفسد على الامبراطور مادبره وقصد تجهيزه لتخريب البلاد التي حول
مرسيليا لئلا يجد الاعداء فيها ما يقتاتون به وهدم ضواحيها وانشاء
تحصينات جديدة ووضع في المدينة طائفة كبيرة من المحافظين وجعل عليهم
ضباطا اهل خبرة ودراية وشجاعة عظيمة وانضم الى المحافظين تسعة آلاف
من اهل المدينة خافوا من الوقوع في ايدي اهل اسبانيا فلم يعبأوا بالاخطار
والاهوال وتسلحوا وتصدوا لدفع العدو ففاقت شجاعتهم ونشاطهم حقد دي
بوربون ومعارف پسكير العسكرية وفي اثناء ذلك سهل على الملك
فرنسيس ان يجمع جيشا عظيما تحت مدينة اوينون وسار به الى

مطلب
رفع جيش الامبراطور الحصار عن مدينة مرسيليا في ١٧ من شهر ايلول

مرسيليا وكان جيش الامبراطور قد مضى عليه اربعون يوما وهو يكابد
مشاق المحاصرة فتعب كل التعب وضعفت قوى العساكر بسبب
الامراض وكان قد اشرف زادهم على النفاد فرفعوا الحصار وفروا
الى ايطاليا

ولو هجم الامبراطور والملك هنري على مملكة فرانسا في مدة ما كان
الجيش في اقليم پرونسة حسبما اتفقا عليه لكانت تلك المملكة عرضة لاخطار
عظيمة الا ان الامبراطور وجد ان ايراده لا يكفيه في تتميم ما عزم عليه فاضطر الى
ابقاء نصف ما يبدون تتميم كما هي عادته من انه كان يصمم على امور كثيرة
ولا ينجزها كلها ولم يساعده الملك هنري في هذا المشروع لاسباب منها انه
حصل له غيظ من دي بوربون حيث أبى ان يقره بان يكون له الحق في ملوكية

سنة ١٥٢٤

فرانسا ومنها ان اهل ايقوسيا بتحريض ملك فرانسا اياهم عزموا على المسير الى انكلترة لشن الغارة عليها وزيادة على ذلك لا يخفى ان الوزير ولسى هو الذى كان يحث ملك انكلترة على اعانة الايمبراطور ليساعده فى نيل منصب البابا فلما تولى اثنان قبله على هذا المنصب ولم يعنه الايمبراطور كما كان وعده خاب امله فيه وفترت همته من جهته وصار لا يعتنى بمصالحه ولا يسعى فى نفعه حتى يهتم بحث سيده الملك هنرى على اعانته فى مشروعاته

مطلب اغترار الملك فرنسيس بهذا النجاح

ولو اكتفى ملك فرانسا بحفظ رعاياه وبلاده من تلك الاغارة المهولة التى ادخلت فى اعتقاد الافرنج ان قواه الداخلية عظيمة جدا حتى امكنها طرد جيش الايمبراطور وان كان معه الدوق دى بوربون واعانه اتم الاعانة وهو ذو شوكة عظيمة ومعارف غزيرة ويعرف مملكة الفرنساوية حق المعرفة لكونه منها لتم هذا الحرب باثبات الفخر والشرف له ولرعاياه لكنه لما كان شجاعا طماعا يغتر بمساعدة دهره وكان من دأبه الميل الى الخطر لا الى الحزم كان يفرح بما ناله ورماحه اوا ذا ظهر نجاحه ويغتر بظفره فى كل مشروع خطب يلزم له التثبت والجسارة فلما ساعده الدهر فى هذا المشروع تعلقت آماله بما فوق ذلك لا سيما وكان له اذ ذاك جيش جرار يعد من اعظم الجيوش التى سبق جمعها فى مملكة فرانسا فابت نفسه ان يسرح هذا الجيش قبل ان يظهر به فى حرب كبير وقوة على ذلك انه راى ان جيش الايمبراطور قد تعب من مشاق المحاصرة وفترت همته بعد الهزيمة وان دوقية ميلان لا تجد من يدافع عنها

مطلب عزمه على الهجوم على دوقية ميلان

وانه لا مانع من دخولها قبل ان يصل اليها پسكير مع من بقى معه من العساكر بعد الهزيمة وايضا لا تصل عساكر هذا الامير اليها الا وهم على غاية من التعب والمشقة من سرعة سيرهم لما داخلهم من الخوف والرعب فلا يكون لهم اقتدار على مقاومة عساكر عديدة لم تفتر همتها ولم يكل عزمها فتبادر دوقية ميلان الى التسليم بدون مقاومة كما حصل منها ذلك غير مرة نعم ان هذه الامانى فى حد ذاتها كانت مقبولة لا يستبعدها العقل

سنة ١٥٢٤

الا ان الملك فرنسيس لحبيته رآها من الامور اليقينية فحاول اولو الدراية من وزرآئه ونجـنرالاته ان يثنوه عن هذا المشروع وابدوا له انه خطر يصعب عليه تخبيزه وقتئذ اذ كان وقت شتاء وامطار لاسيما وكان معظم جيشه من السويسيين والالمانيين لا من رعاياه فلا مانع انهم يتخلون عنه فيكون عرضة لاخطار عظيمة ولما بلغ ذلك والدته لويزة عجلت بالسفر الى اقليم پرونسة لتمنعه عن هذا المشروع الخطر ومع ذلك لم يلتفت الى قول وزرآئه ولاجل ان لا يغضب والدته بعدم قبوله لنصحها سافر قبل ان تصل اليه ولكن حيث كان ذلك يخل بمقامها على كل حال ويدل على عدم اعتبار رايها جعلها قبل سفره نائبة على المملكة مدة غيبته هذا وينبغى لنا ان ننبه هنا على ان الامير بونيويطة قد بذل غاية جهده فى حث الملك فرنسيس على المسير الى ميلان لانه كان ذا حمية وشدة وكان بين طبعه وطبع الملك فرنسيس شبه كلي وزيادة على ذلك كان مدة حربه الاول فى دوقية ميلان قد عشق امرأة من نساء تلك الناحية فكان فى قلق من بعده عنها وكان يحب الاجتماع بها ويقال انه اخبر الملك فرنسيس عنها وبالغ له فى حسنها وجمالها حتى تعلق بها قلبه واشتغل بها خاطره ولبه وتشوق الى رؤيتها فانه كان بمكانة عظيمة بين العشاق

مطلب
اقامة نائبة فى المملكة مدة غيبة

فاجتاز الفرنساوية جبال الپه من جبل منها يسمى سينيس واسرعوا فى المسير لانهم كانوا يرون نجاحهم متوقفا على مبادرتهم ووصولهم الى ميلان قبل وصول پسكير مع عساكر الامبراطور اليها وكان پسكير قد سار من طريق اطول واصعب من الطريق التى سار منها الملك فرنسيس بجيشه فانه سار من طريق موناقو وطريق فينال فلما بلغه مقصد فرنسيس علم ان دوقية ميلان لا تنجو منه الا اذا لحقها بعساكره فحث السير حتى وصل الى دلبة يوم وصل الجيش الفرنساوى الى ورسية ولما كان الملك فرنسيس يعلم ان توانى بونيويطة وتأخره فى الحرب الاول هو السبب فى خذلانه وانهزامه لم يقف بل سار بدون تراخ ولا امهال الى

مطلب
الحرب الحاصل فى دوقية ميلان

مدينة ميلان فبمجرد ظهوره بجيشه العظيم امام تلك المدينة وقع الرعب والخوف فى قلوب اهلها حتى ان الامير پسكير حين دخل فيها مع اعظم عساكره واكبرهم شجاعة ومهارة تجزم بانه لا يمكنه ان ينجح فى المدافعة عنها ولا ان ينقذها من ايدى الاعداء بوجه من الوجوه فوضع فى القلعة طائفة من المحافظين وخرج من باب وكان الفرنساوية اذذاك يدخلونها من الباب الآخر سنة ١٥٢٤

فكانت سرعة سير ملك فرانسا سببا فى افساد ما دبره فريق الايمبراطور فى شأن المدافعة وصاروا بعد ذلك فى حيرة كبيرة ولم يسبق لاحد من رؤساء العساكر ما حصل يومئذ لرؤساء فريق الايمبراطور حيث كان يلزمهم مقاومة جيش جرار وهم على غاية من الضنك والضيق ثم ان دول الايمبراطور شرلكان كانت كبيرة واسعة لا يحكم على مثلها احد من ملوك الافرنج ولم يكن عنده من العساكر المستأجرة الا الجيش النبردية الذى كانت عدته ستة عشر الفا ولكن كانت شوكته ضعيفة وكلمته قليلة النفوذ فى دوله وكان لا يجوز له ان يضرب على رعاياه مغارم جديدة الا برضائهم وكانوا يظهرون التضجر والتظلم اذا ضرب عليهم مغرما جديدا غير المعتاد فكانت عساكره بدون ماهية وزاد وملبوس بل كان لا يمكن تحصيل المهمات والمواد الحربية اللازمة لهؤلاء العساكر فكان لا يقوم بهذا الخطب الجسيم الا ان يبذل الامير لانواى غاية حزمه وسداد رايه وان يظهر الامير پسكير غاية شجاعته ومهارته وان يجتهد الامير دى بوربون بقدر ما فى قلبه من البغض والحقد للملك فرنسيس وبدون ذلك لا يمكن منع عساكر الايمبراطور من الوقوع فى اليأس والقنوط ولا تحصيل المبالغ التى بها امكن لفريق الايمبراطور ان ينجو من تلك الاخطار ولا شك انه لم يبق للايمبراطور دول فى ايطاليا الا بسبب حزم هؤلاء الرؤساء الثلاثة واجتهادهم لا بكثرة رجاله وقواه العسكرية فرهن الامير لانواى ايراد مملكة نابلى وحصل بذلك ما صرفه على العساكر فى امورهم الضرورية وكان العساكر الاسبانيوليون يحبون الامير

پسكير

سنة ١٥٢٤

بسكير حبا بجانبهم على ان يلتزموا بخدمة الامبراطور فى هذا الخطب وان لا يطلبوا ماهياتهم ليقول الافرنج انهم يقاتلون لحسن المجد والشرف وذلك يجعلهم فى الاعتبار فوق العساكر المستأجرة فقبلوا منه ذلك عن طيب نفس ورهن الامير دى بوربون حليه وجواهره الثمينة واخذ بدلها مبلغا عظيما وسافر فورا الى بلاد المانيا وكان له بها شوكة عظيمة وكلمة نافذة لجمع منها طائفة كبيرة من العساكر لاعانة الامبراطور

مطلب
محاصرة فرنسيس لمدينة باويا

وقد اخطأ الملك فرنسيس خطأ كبيرا حيث امهل رؤساء عساكر الامبراطور حتى فعلوا ذلك كله لاسيما وكان عساكر الامبراطور قد فروا امامه وذهبوا الى مدينة لودى على نهر العدة وهى مدينة غير حصينة حتى كان الامير بسكير قد عزم على تركها بمجرد ظهور العساكر الفرنساوية ودنوهم منها ولكن استحسن الملك فرنسيس رأى الامير بونيويطة وان كان مخالفا لرأى بقية الرؤساء ووضع الحصار امام مدينة باويا الموضوعة على نهر تيزان وكانت تلك المدينة مهمة يسهل بالتغلب عليها الاستيلاء على جميع البلدان التى على شاطئ هذا النهر لكنها كانت حصينة منيعة فكان من الخطر الشروع فى حصارها فى مثل ذلك الوقت اى فى اثناء فصل الشتاء هذا وكان رؤساء عساكر الامبراطور يعلمون ما يترتب على تغلب الفرنساوية على هذه المدينة فجعلوا فيها لحفظها ستة آلاف من اقدم العساكر المتمكنين من فن العسكرية وجعلوا رئيسهم انتوان دوليوه وهو ضابط جليل القدر كبير الاعتبار له من الدراية والشجاعة الحظ الاوفر وله فى الادارة اليد الطولى ذو حزم وعزم يحب الشرف والفخار متعود على حسن القيادة والانقياد فكان يسهل عليه ان يتحمل جميع المشاق ويبذل ما فى وسعه لينجح ويربح

مطلب
تشديده فى تلك المحاصرة

وقد شدد فرنسيس فى هذه المحاصرة وبذل فى تتميمها فوق طاقته فلاجل التغلب على قلعة المدينة استعمل مهندسو ذلك العصر ما فى طاقتهم ولم يبق للعساكر عزم الا جادوا به ولا جهد الا بذلوه ولم يمكن للامير لانواى ولا للامير

سنة ١٥٢٤

يسكر ان يفعلا شيأ مع الملك فرنسيس بل مكثا في التجزى والصغار حتى شاع في رومة استهزآء بالايمبراطور وحزبه انه قد تعين جعل لمن يجد الجيش الايمبراطورى الذى ضل في شهر تشرين الاول وضاع في الجبال التى تفصل فرانسا من لومبردية ولم يقف له احد على جلية ولا خبر

مطلب
مدافعة المحصورين

ولما رأى الضابط انتوان دوليوه ان ابناء وطنه في حيرة عظيمة وكرب شديد ورأى انه لا يمكنهم مقاومة العدو خارج الحصون علم انه لا ينبغى له التعويل الا على تيقظه وشجاعته وعزمه ومهارته فابدى من ذلك ما يلايم عظم القلعة التى امن عليها اليدافع عنها فكثر ما خرج منها بعساكره وانقض على عساكر الفرنساوية بقلب ثابت وعزم قوى فعاقهم بذلك عن الدنو منها وما كانت تفتحه مدافعهم في الاسوار كان يجدده ورآءه استحكامات حصينة متينة كانت تظهر انها ليست دون الاستحكامات القديمة وكان يدفع الاعدآء المحاصرين بقوة عظيمة وعزم مكين وتأسى به في ذلك المحافظون وسكان المدينة فكانوا لا يكترثون بمكابدة المشاق ولا باقتحام الاخطار ومما اعان الهمام ليوه على مقاومة الاعدآ وابعادهم نوازل فصل الشتاء وما يحدث عنها ومن جملة ما فعله الملك فرنسيس ليتغلب على المدينة تحويله لمجرى نهر تيزان وكان كالحصن لها من احدى جهاتها الا ان هذا النهر فاض على حين غفلة فيضانا كبيرا فاضاع في يوم واحد ما جدده الملك فرنسيس في عدة اسابيع ومحا جميع الجسور التى بناها جيشه وصرف فيها اموالا جسيمة ومهمات عظيمة

مطلب
تخلى البابا عن الفريقين بموجب مشارطة عقدها

ومع بطء المحاصرة وما حصل للشهير ليوه بحسن مدافعته كان من المجزوم به انه لو بقيت الاحوال على ما كانت عليه لاضطرت المدينة الى التسليم ولو بعد حين لا سيما وكان قد تبين للبابا ان جيش الفرنساوية هو الغالب وكان يغار من الايمبراطور كل الغيرة فجعل ينقض المشارطات التى كانت منعقدة بينهما وبادر بعقد معاهدة جديدة مع الملك فرنسيس وكان البابا ليون العاشر قبله قد عزم على مشروع خطب وهو انقاذ بلاد ايطاليا من ايدى كل

سنة ١٥٢٤م

من الايمبراطور وملك فرانسا واما هو فكان يحترس غاية الاحتراس في جميع اموره فلصعوبة هذا المشروع عدل عنه الى مشروع آخر اسهل منه وهو اظهار الميل لاحد الفريقين وسلوك سبيل المداهنة ليضعف به قوى الفريق الآخر فاظهر ان احب الاشياء اليه هو استيلاء ملك فرانسا على دوقية ميلان ليقمع الايمبراطور حيث كان لا يوجد حينئذ ببلاد ايطاليا من له اقتدار على قمعه فبذل هذا البابا جهده في عقد صلح به يتم للملك فرنسيس اخذ بلاده في مملكة ايطاليا ولكن كان الايمبراطور شرلكان قوى العزم والقلب لا يرده شيء عن تصميم ما عزم عليه فسر غض عن قول البابا وتظلم منه حيث انه هو الذي دعاه الى الاغارة على دوقية ميلان قبل توليته منصب البابا فلما أبى الايمبراطور ان يقبل قول البابا عقد فورا مع ملك فرانسا مشارطة بانه لا ينصر احد الحزبين على الآخر وكانت جمهورية فلورنسة داخلة في ضمن تلك المشارطة بمعنى انها تخلت عن الفريقين

مطلب اغارة فرنسيس على مملكة نابلي

فبهذه المشارطة تخلى عن فريق الايمبراطور دولتان قويتان اعني البابا وجمهورية فلورنسة واذا بالملك فرنسيس ان يمر بجيشه من اراضيهما فلما رآى هذا الملك ان ذلك بعينه اتم اعانة عزم على شن الغارة على مملكة نابلي مؤملا انه يسهل عليه الاستيلاء عليها لانها ليست محصنة والايمبراطور غير ملتفت اليها ولو فرض انه لا يمكنه التغلب عليها فله في الهجوم عليها مآرب اخرى وهي ان عاملها اى نائب الايمبراطور فيها يطلب ان يحضر اليه فريق من العساكر الايمبراطورية الموجودة في دوقية ميلان وبناء على ذلك ارسل الى مملكة نابلي ستة آلاف من العساكر وجعل عليهم رئيسا الامير حنا ستوار وهو دوق البانيه ولكن ادرك الامير پسكير ان ذلك كله مشاغلة وملاهاة ورآى ان دوقية ميلان هي مركز العمل فاشار الامير لانواى بانه لا يلتفت الى ذلك ولا يغتر به لانه خداع ومحاولة بل يجعل قتال الملك فرنسيس مطمح نظره ولا يلتفت الى غيره حيث انه قد اضعف نفسه بنفسه اذ فرق جيشه بدون ثمرة يجزم بها وفصل عنه تلك السرية التي

سنة ١٥٢٤

ارسلها الى نابلى واستحق بذلك لوم الناس عليه من حيث ان عادته ان يخاطر بنفسه ويعزم على امور تعد من الامانى الباطلة

مطلب
مابذله كل من الامير بسكير والامير دى بوربون من عظيم الجهد والعزم

ولنرجع الى الكلام على مدينة باويا فنقول ان محافظيها كانوا فى كرب شديد وضنك عظيم حيث اخذت ذخائرهم ولوازمهم الحربية فى النقصان وكانت العساكر الالمانية منهم لم تصرف لها ماهياتها منذ سبعة اشهر كاملة فعصت وقالت انها تسلم المدينة الى العدو ان لم تدفع لها ماهياتها حتى ان الامير ليوه مع نباهته وحسن سياسته ونفوذ كلمته عليهم عسر عليه ان يمنعها عن العصيان فلما علم رؤساء عساكر الايمبراطورية انه فى كرب شديد بادروا بالمسير اليه ليعينوه وكان لا يمكنهم حينئذ ان يفعلوا احسن من ذلك فسار اليه الامير دى بوربون ومعه اثنا عشر الفا من الالمانيين وحث السير حتى وصل فى اقرب مدة الى بلاد لومبردية وانضم مع هؤلاء العساكر الى جيش الايمبراطور فكاد يساوى فى العدة جيش الفرنساوية بعد أن انفصلت عنه ستة الآلاف المبعوثة الى نابلى مع دوق البانية خصوصا وكان جيش الفرنساوية قد تعب وكلت همته لطول المحاصرة ومضار الشتاء ولكن كان جيش الايمبراطور كلما ازداد عددا ازداد فيه القحط واحتاج الى اموال ومصاريف كان لا يمكن تحصيلها فكان لا يتيسر تحصيل الاموال اللازمة لمصاريف العساكر بل ولا ما يلزم لنقل الاسلحة والمهمات الحربية والذخائر الا ان مهارة رؤساء الايمبراطور سدت مسد ذلك كله حيث ابدوا من العزم والحزم ما يجل عن الوصف وشرحوا صدور العساكر بمواعيد من خرفة مزينة حتى استمالوا قلوبهم وساروا بهم الى ملاقاة العدو من غير أن تدفع لهم ماهياتهم لاسيما وكانوا قد زخرفوا لهم القول حيث ابدوا لهم انهم سيسيرون بهم الى الاعداء بدون فتور ولا تراخ وانه ستكون لهم النصرة ويغتنمون مغنما عظيما من سلب جيش الفرنساوية ويأخذون ما يكافئهم حق المكافئة على تعبهم وبذل جهدهم وزيادة على ذلك كان العساكر يرون انهم ان عصوا وخرجوا من الجيش ضاعت عليهم ماهياتهم المتأخرة وكانوا

سنة ١٥٢٤

في قلق عظيم ليفوزوا بالكنوز الواسعة التي وعدهم بها الرؤساء فطلبوا باقسهم الحرب وملاقاة العدو واظهروا من القلق والجزع ما يصدر عادة ممن يتصدى للقتال لقصد السلب والنهب والاغتنام

مطلب
هجوم الجيش الامبراطوري على عساكر الفرنساوي في ٣ من شهر سباط

فلما طلب العساكر الحرب بانفسهم لم يمهلهم الرؤساء حتى تفترهممهم بل حاذروا ضياع تلك الفرصة وتوجهوا بهم فورا الى معسكر الفرنساوية فلما بلغ الملك فرنسيس ان جيش الامبراطور قادم اليه جمع رؤساء جيشه وعقد مشورة حرب للمذاكرة فيما يلزم عمله فانحط راى ارباب الدراية والخبرة من ضباطه على ان يسافر مع جيشه ولا يتصدى لقتال جيش تعضده سواعد اليأس والقنوط لان القائلين بذلك كانوا يرون ان رؤساء الجيش الامبراطوري اذا لم يجدوا احدا يحاربونه يختل نظامهم وتعصى عليهم العساكر بسبب عدم صرف ماهياتهم فيضطرون الى تسريحهم لانه لم يمنعهم عن العصيان الا تعلق آمالهم بأخذ سلب اعدائهم او ان العساكر لا يرون ما وعدوا به فيأخذون في العصيان ولا يلتفت رؤساؤهم الا الى ما يأمنون به على انفسهم وبالجملة فكان رأيهم هو ان اشاروا على الملك فرنسيس ان يتحصن في محل حصين حتى تأتيه العساكر الجديدة التي ارسل يطلبها من مملكة فرانسا ومن السويسة فانه حينئذ يمكنه بدون مشقة ولا سفك دم ان يتغلب على دوقية ميلان قبل فراغ فصل الربيع ولكن كان رأي الامير بونيويطة بخلاف ذلك فكأنه قد سبق في الازل انه لا يبدي مدة هذا الحرب رأيا الا ويكون رأي سوء وشؤم على مملكة فرانسا وذلك انه راى ان من العار للملك فرنسيس كونه يترك مدينة باويا بعد أن حاصرها مدة مستطيلة ويهرب من جيش اقل عددا من جيشه وقال ان الحرب اولى من ترك مشروع تثبت به للملك شهرة عظيمة تبقى مدى الدهور والايام لا سيما وكان الملك فرنسيس يحافظ على اسباب الشرف ويراعي مفاخر العرض وكان قبل ذلك قد اخبر غير مرة بانه اما ان يأخذ مدينة باويا او يهلك تحت اسوارها فرآى انه لا يليق به العدول عما عزم عليه ولم يصغ لقول من اشار عليه بالرحيل والالتجاء

سنة ١٨٢٥ في محل حصين بل مكث تحت اسوار ياويا ينتظر قدوم جيش الايمبراطور .

طلب واقعة باويا فلما وصل رؤساء جيش الايمبراطور بعساكرهم الى معسكر الفرنساوية وجدوه على غاية من التحصين والاحكام حتى انهم مع ما كان لهم من الاسباب التى تدعوهم الى الحمل على العدو بدون مهلة ولا تراخ مكثوا زمنا طويلا وهم فى تردد وحيرة لكنهم لما رأوا ان المحصورين بالمدينة قد ضاق بهم الحال واستولى على قلوبهم اليأس ورأوا ان الجيش قد ضجر من طول المدة خاطروا

٢٤ من شهر سياط بانفسهم وشرعوا فى القتال وتصادم الجيشان بحمية لم يسبق مثلها فى ميدان حرب ولم يسبق ان جيشين آخرين اظهرا من العزم عند اللقاء ما اظهره كل من هذين الجيشين ليثبت لنفسه النصرة على الآخر ولم تسبق واقعة ترتب عليها من نتائج النصرة والهزيمة ما يضاهى نتائج هذه الواقعة ولا واقعة اخرى كان الفريقان فيها يبذلان غاية جهدهما لما بينهما من الغيرة والحقد والبغضاء الملية وغير ذلك من الاسباب الاخرى التى تحمل الانسان على كونه يبذل ما فوق طاقته فمن جهة كنت ترى ملكا فى عنفوان شبابه تعضده ابطال الامراء والاشراف الذين يبذلون نفيس نفوسهم فى محبته ورعايا كانت حميتهم لا تزال فى نمو وازدياد من مقاومة العدو لهم وكان قتالهم لتحصيل الفخر وشرف العرض ومن جهة اخرى كنت ترى فريقا آخر مؤلفا من ابطال اعرف بفنون العسكرية من الفريق الاول ورؤساؤهم اكثر مهارة وحزما وكانوا جميعا يقاتلون مع الحمية التى تتسلطن على القلب عند اليأس والضرورة ومع ذلك لم يمكن لجيش الايمبراطور فى مبدء الامر أن يثبت امام جيش الفرنساوية حتى ان اعظم اورطة واحكمها انتظاما واصطفافا اخذت فى التزلزل والتقهقر الا ان الدهر أدبر عن الفرنساوية بعد الاقبال وتغير الحال فى الحال فان جميع العساكر السويسية الذين كانوا مع جيش الفرنساوية نسوا ما اكتسبته ملتهم من الشهرة والفخار بسبب الامانة والشجاعة وحملهم الجبن على ترك معسكرهم فعند ذلك خرج الامير ليوه مع عساكره من المدينة وحمل على ساقة الجيش الفرنساوى

سنة ١٥٢٥ حملة منكرة فاختل نظامها وتفرقت صفوفها وحمل أيضا الامير پسكير
مع خيالة الامبراطور على الخيالة الفرنساوية وكانت خيالة الامبراطور من
الالمانيين وكان الامير پسكير لحزمه وسياسته قد جعل فى خلال هؤلاء
الخيالة جماعة غفيرا من المشاة الاسبانيولية وكان هؤلاء المشاة متسلحين
بقربانات ثقيلة فاقتحم الامير پسكير صفوف الخيالة الفرنساوية بواسطة
طرق حربية جديدة لم تكن تخطر ببال الفرنساوية فانهزم عند ذلك جيشهم من
كل جهة حتى لم تحصل منهم مقاومة الا فى المحل الذى كان به الملك فرنسيس
وبالجملة فصار هذا الملك لا يقاتل لتحصيل الشرف ولا الفخر والنصر وانما كان
يقاتل لمجرد الذب عن نفسه فجرح عدة جروح اوهنت قواه وسقط من فوق
جواده بعد أن قتل تحته ومع ذلك لم يزل يقاتل ويدافع عن نفسه مع عزم
الابطال وبطش الرجال وكان قد اجتمع حوله من الضباط عدة افراد وابدوا
العجب العجاب وفدوا الملك بارواحهم لكنهم قتلوا حوله واحدا بعد واحد وكان
من جملتهم الامير بونيويطة الذى كان سببا فى تلك المصائب الكبيرة
فلم يتأسف احد على قتله وكاد الملك يكون وحده فى المدافعة عن نفسه وكلت
قواه من الطعن والضرب لاسيما والعساكر الاسبانيوليون الذين كانوا
محدقين به اشتد غيظهم وغضبهم من مدافعته وثباته امامهم وهم لا يستطيعون
القرب منه ولا يعرفون من هو فمر به حينئذ الامير پومپيران احد
البيكزادات الفرنساوية وكان قد دخل فى خدمة الامبراطور مع بوربون
وخرج عن طاعة الملك فرنسيس فلما راه متحيرا بين العساكر انقض عليه
ومنعهم عنه واقسم عليه ان يذهب معه الى الدوق دى بوربون لانه كان
قريبا منه فأبى فرنسيس وان كان فى خطب عظيم وكرب شديد ورآى
ان ذلك منقصة له وتدنيس لعرضه وموجب لشماتة عدوه لكنه رآى الامير
لانواى قريبا منه فناداه وسلم له حسامه على حسب العادة فخر لانواى
ليقبل يد الملك واخذ الحسام مع الادب والاحترام ثم اخرج حسامه ودفعه اليه
قائلا انه لا ينبغى لملك عظيم ان يبقى بدون سلاح امام احد رعايا الامبراطور

مطلب انهزام جيش الفرنساوية

مطلب اسر الملك فرنسيس

سنة ١٥٢٥

وقتل من الفرنساوية عشرة آلاف فى هذه الواقعة المعدودة من اكبر المصائب التى نزلت بمملكة فرانسا وهلك فيها معظم الاشراف والبيكزادات حيث آثروا القتل على الفرار الذى يورثهم الخزى والعار ويدنس عرضهم واسر مقدار جسيم من جملته هنرى دالبير الذى كان سابقا ملكا على نوار وفرت طائفة صغيرة من ساقة الجيش مع رئيسها الدوق دالنسون وحين وصل خبر انهزام الفرنساوية الى المحافظين الذين كانوا بمدينة ميلان تركوا المدينة وولوا مدبرين قبل أن يتعرض لهم احد وبالجملة فلم تمض خمسة عشر يوما بعد تلك الواقعة الا ولم يبق ببلاد ايطاليا احد من الفرنساوية

واما لانواى فكان يعامل الملك فرنسيس معاملة الملوك وابدى فى اكرامه ما يليق بمقامه ويلايم طبيعته لكنه كان يحفظه كل الحفظ ويلتفت اليه غاية الالتفات خوفا ان يفر منه او يقبض عليه عساكر الايمبراطور ويأخذوه رهنا عندهم حتى تدفع اليهم ماهيا تهم الباقية لهم ولاجل الاحتراس من هذين الامرين اخذ بيد الملك فرنسيس فى اليوم الثانى من الواقعة وادخله فى قلعة بيزيغيتون التى بقرب مدينة كريمون واناط بمحافظته الامير فرديننددالرسون سرعسكر المشاة الاسبانيولية وكان ذا مروءة كبيرة وعرض فعامل الملك بما تقتضيه جلالة قدره وشدد فى محافظته حتى كانه وديعة عزيزة يحاذر ذلك الامير أن يفرط فيها

ولكن لما كان الملك فرنسيس طيب النفس حسن الظن خطر بباله ان الايمبراطور شرلكان مثله متصف بهذه الاوصاف فكان يود ان يبلغه ماهو عليه من سوء الحال ظنا منه انه اذا علم بذلك رثى لحاله وخلى سبيله وكان رؤساء عسكر الايمبراطور يودون ايضا أن يخبروه بالنصرة العظيمة التى حصلت لهم ويستفهموا منه عما ينبغى لهم فعله وفى ذلك الفصل كان طريق البر اقرب الطرق وامنها فى توصيل الاخبار الى بلاد اسبانيا فاعطى الملك فرنسيس للامير باناوزه الذى ارسله لانواى الى الايمبراطور ورقة

طريق ليمر بها من ارض فرانسا بدون معارضة

مطلب
حالة الايمبراطور عند وصول الاخبار بظفر جيشه فى عشرة من آذار

فلما وصل هذا السفير الى الايمبراطور واعطاه الاخبار تلقاها مع التؤدة والسكون بحيث لو كان ذلك عن نية خالصة وطوية سليمة لاكسبه شرفا وفخرا اكثر من اعظم نصرة وذلك انه لم يفرح بظفر جيشه ولم يظهر منه امارات كبر وتعاظم ودلائل عظم وشماتة بل ذهب فورا الى الكنيسة ومكث ساعة كاملة وهو يدعو الله تعالى ويشكره ثم عاد الى ديوانه فرآه مشحونا من اكابر اسبانيا واعيانها ومن سفرآء الملوك والكل مجتمعون ليهنوه بالنصرة فقبل منهم التهنئة بوجه التؤدة والسكون واظهر التأسف على اسر الملك فرنسيس قائلا انه عبرة عظيمة للملوك والسلاطين تريهم انه لا ينبغى لاحد ان يأمن من صروف الزمان ونكبات الحدثان ومنع ان تقام مواسم وافراح او تجعل زينة فى مدآئن دوله وبنادرها قائلا انه لا ينبغى الفرح فى مثل هذا الحرب حيث انه بين الملل النصرانية وانما الفرح والسرور سيكون بعد النصرة على جيوش الاسلام وبالجملة فشوهد من حاله انه لم يفرح بتلك النصرة الا لكونه صار بها ذا اقتدار على تسكين بلاد اوروبا فى ظل الوية الصلح والامان

مطلب
مقاصده التى عزم عليها

ولكن كان شرلكان يضمر خلاف ما يظهر اذ كان الطمع نصب عينيه وكان خاليا عن الحلم والكرم والمروءة البشرية فانه بمجرد ما بلغه الخبر بانتصار جيشه فى واقعة باويا حصل له باطنا من الفرح والسرور ما يجل عن الوصف وتعلقت آماله بمشروعات جليلة ومقاصد عظيمة ولكن حيث كان يعلم انه يصعب عليه تتميمها رأى من اللازم الضرورى ان لا يظهر ما اضمره ما دام يأخذ اهبته ويجهز جميع المواد اللازمة ظانا انه بذلك يمكنه اخفاء اغراضه الباطنية وسترها عن نظر ملوك اوروبا

مطلب
غم اهالى مملكة فرانسا

هذا وكانت مملكة فرانسا فى غم جديد وحزن شديد لانهزام جيشها واسر ملكها حيث كتب الملك بنفسه الخبر بانهزامه فى كتاب ارسله الى والدته صحبة الامير باباالوزه وكان لا يشتمل الا على عبارة واحدة وهى (نفيد الوالدة اننا فقدنا كل شئ ما عدا الشرف والعرض) وقد حكى من فر من العساكر

سنة ١٥٢٥

ورجع من بلاد ايطاليا جميع ما حصل فى تلك الواقعة المشؤومة فحزن اهالى المملكة كافة مما وقع لعساكرهم وصاروا فى غم شديد وكانت مملكة فرانسا حين اسر ملكها الامال بجزآتها ولا عساكرها ولا ضباط يحسنون الادارة الحربية والسياسة العسكرية وكانت فى قبضة اعدآء عديدين حتى صارت على شفا جرف ولم ينقذها فى الواقع ونفس الامر من تلك النكبة الكبيرة الا معارف الاميرة لويزة ام الملك فرنسيس وعزمها وكانت نائبة عن الملك فيما كما سبق فقد انقذتها تلك المرة وان كانت عرضتها للخطر غير مرة ايثار الشهوتها وحظ نفسها وذلك ان هذه الاميرة المشهورة بالشفقة على ولدها لم تترك نفسها الاستيلاء الحزن والغم عليها حتى تفتر همتها بل اظهرت ايضا من السياسة الحكمة وحسن التدبير ما اعجب فحول الرجال فى السياسة وحير عقول ارباب الكياسة والرياسة فجمعت العساكر الذين سلموا من من واقعة باويا ودفعت فدآء الاسارى ودفعت لهم ما كان متأخرا لهم من ماهياتهم وامدتهم بجميع ما يلزم حتى صاروا مستعدين للحرب والقتال وجمعت عساكر جديدة وحصنت الضواحى والرساتيق وعرفت بحزمها وعزمها ان تحصل المبالغ اللازمة لتتميم هذه الاشياء الجسيمة وبذلت غاية جهدها فى استمالة هنرى ملك انكلترة الى حزبها فمن هذه الحيثية اخذ الرجاء ينعش قلوب الفرنساوية

مطلب
حسن سياسة الثانية فى المملكة

واما الملك هنرى فانه لما كان يتعاهد تارة مع الايمبراطور واخرى مع ملك فرانسا لم يتخذ له غرضا سياسيا تنتهى اليه مشروعاته ويكون مطمح نظره فى افعاله بل كان يقتصر عادة على فعل ما تقتضيه الاحوال ولكن قد حصلت وقائع عرف بها انه من اللازم الضرورى نصب ميزان تعادل بين قوى الفريقين المتشاخصين يعنى فريق الايمبراطور وفريق ملك فرانسا حتى انه رأى فيما بعد ان هذا الامر متعين عليه لا يقوم به غيره وانه لا ينبغى له اهماله فجعله مطمح لنظره وجعل ابقاء التعادل بين قوى الفريقين المذكورين نصب عينيه وذلك ان سبب معاهدته قبل ذلك مع الايمبراطور هو انه كان يظن انه يمكنه اخذ

مطلب
ما قام بنفس الملك هنرى الثامن بسبب نصرة الايمبراطور فى واقعة باويا

سنة ١٥٢٥ م

بعض اراضي من مملكة فرانسا كانت قبله للملوك انكلترة فباغترار بهذه الاماني من اخذ تلك البلاد تعاهد مع الايمبراطور وهم باعانته على الملك فرنسيس لكنه كان لا يظن ان ذلك يؤدي الى انهزام جيش الفرنساوية كل الانهزام كما حصل في واقعة باويا لان هذه الواقعة جرت الى ضعف قوى احد الحزبين بل محقها بالكلية ورأى ان هذه الواقعة يمكن ان تؤدي الى خدش المذهب السياسي الذي هو اصل في ابقاء التعادل بين ملوك الافرنج فتحير في امره وحصل له فزع كبير حيث رأى ان بلاد اوروبا صار يخشى عليها ان تقع في ايدي الايمبراطور شرلكان اذ هو بعد انتصاره على جيوش الفرنساوية صار عظيم الشوكة والبأس لا قدرة لاحد من ملوك الافرنج على مقاومته وصده عن المشروعات التي تضر بالملة النصرانية ثم انه بالنظر لكونه حليف الايمبراطور ومتعاهدا معه كان يسوغ له ان يؤمل مقاسمته في بلاد الملك المأسور لكنه كان يلاحظ ان الايمبراطور شديد الحرص والطمع فربما تكون القسمة بينهما ضيزى او انه لا يمكنه حفظ ما يخصه فيها وزيادة على ذلك رأى انه ان ترك الايمبراطور يفعل ما بدا له مع الملك فرنسيس واخذ من مملكة فرانسا بعض اراض عظيمة واضافها الى الممالك الكبيرة الواسعة التي كانت حينئذ تحت يده يزيد طغيانا وقسوة ويخشى منه على مملكة انكلترة اكثر من ملوك فرانسا الاقدمين الذين كانوا يشنون عليها الغارات في سائر الاوقات ويؤدي ذلك ايضا الى انعدام ميزان التعادل بين ملوك الافرنج مع ان هذا الميزان هو اصل شوكة انكلترة ومنشأ صولتها ونفوذ كلمتها بل وبدونه لا تأمن على نفسها وزيادة على ذلك رق الملك هنري لحالة فرنسيس في وقوعه في مثل هذه النكبة خصوصا وقد بلغه انه ابدى في واقعة باويا من الشجاعة ما لا مزيد عليه فازداد بذلك رأفة وشفقة عليه وكانت عادته الميل الى مكارم الاخلاق فطمع ان يثبت لنفسه الفخار بين ممالك الافرنج بكونه انقذ عدوا مهزوما هذا ولا يخفى ان وزيره ولسي كان يبذل غاية جهده في استمالته الى حزب الملك فرنسيس لان هذا الوزير لما خاب امله في نيل

منصب الپاپا ومولاه اثنان غيره مع ان الايمپراطور كان قد وعده بانه عند خلوه لا يولى عليه احد سواه غضب من الايمپراطور واعتقد انه هو السبب فى عدم توليته لذلك المنصب وكان ينتظر حصول فرصة تعينه على الانتقام منه فلما طرأت تلك الاحوال عدها من اعظم الاشياء موقعا لتنجيز ما كان عزم عليه لاسيما وقد ارسلت الاميرة لويزة والدة الملك فرنسيس الى هذا الوزير والى الملك هنرى تستعطفهما وتدعوهما الى اعانتها على الايمپراطور فوعدها الملك هنرى سرا بانه من الآن فصاعدا لا يعين الايمپراطور على ايذاء مملكة فرانسا واضرارها مادامت على حالتها المشؤومة التى آلت اليها بعد انهزام جيشها فى واقعة پاويا لكنه طلب منها ان تعده بان لا ترضى بتمزيق مملكتها وتشتيت بلادها عن بعضها ولو كان ذلك بقصد انقاذ ابنها من الاسر والرق

ولكن بسبب المعاهدة التى كانت بينه وبين الايمپراطور لزمه ان يسلك سلوكا بحيث لا تظهر عليه آثار ما وعدبه الاميرة لويزة فامر ان تجعل فى بلاده مواسم واعياد عامة لادخال السرور والفرح على كافة الناس لنصرة الايمپراطور حتى كانه يود ان تحصل فرصة تعينه على تخريب مملكة الفرنساوية وتدميرها بالكلية وبعث سفراء من طرفه الى مدينة مدريد كرسى اسبانيا بقصد تهنئة الايمپراطور بالنصرة وليذكروه بان الملك هنرى له الحق فى اقتسام ثمراتها لانه حليفه ومعاهده وكتب له ايضا ما معناه انه بموجب ما انحط عليه الرأى وتقرر فى المشارطة يلزم ان يسير الايمپراطور مع جيش عظيم ليتغلب على اقليم غيينة ويسلمه اليه وانه يريد ارسال بنته الاميرة مارية الى بلاد اسبانيا او الى مملكة البلاد الواطية لتكون تربيتها بمعرفة الايمپراطور حتى ينعقد نكاحها بموجب ما هو مقرر فى المشارطة ويطلب من الايمپراطور ايضا ان يبعث اليه الملك فرنسيس لانه بموجب المشارطة المنعقدة بمدينة ابروجه يجب على كل من المتعاهدين ان يسلم الى المظلوم من ظلمه اوتعدى على حقوقه * هذا مضمون ما كتبه الملك هنرى

الى

الى الايمبراطور وبعثه اليه مع السفراء المتقدم ذكرهم ولكن شركان يعلم انه سنة ١٥٢٥
لا يجيبه فى شىء من ذلك كله لانه يباين مزاج مصلحته بل ولا يستطيع الاجابة
لان ارباب دولته يمنعونه عن ذلك فلذا قيل ان الملك هنرى لم يطلب ذلك من
الايمبراطور الا ليرده فيتعلل عليه ويتعاهد مع مملكة فرانسا على حسب
ما تقتضيه الاحوال

مطلب ما قام بنفوس اهالى ايطاليا بسبب نصر الايمبراطور

ويمجرد ما بلغ دول ايطاليا ان جيش الايمبراطور قد انتصر فى واقعة باويا
حصل فيها فزع كبير وغم شديد لكافة الناس لان هذه النصرة ترتب عليها
اعدام تعادل قوى الفريقين وكان هذا التعادل نصب اعينهم فى جميع اداراتهم
وسياساتهم اذ هو اصل اطمئنانهم وامنهم على دولهم وبلادهم فبعد نصرة
الايمبراطور على الملك فرنسيس رأوا انهم صاروا عرضة اكثر من غيرهم
لان يلحقهم بطش الايمبراطور الذى كانت اطماعه دائما فى النمو والازدياد
خصوصا بعد هذه النصرة وقويت شوكته عما كانت عليه قبل ذلك لاسيما
وكان قد ظهر لهم فيه علامات كثيرة دلتهم على انه بوصف كونه ايمبراطورا
او ملكا على بلاد نابلى لا مانع أن يدعى دعوى عريضة بتطلبه لمعظم بلاد
ايطاليا ويسهل عليه ان يظفر بمرامه فيما يدعى به فيخشى منه أن يضر ببلادهم
كل الضرر وأوقعهم ذلك فى الحيرة والرعب فاخذوا يبحثون عن وسايط بها
يمكنهم ان يعرضوا له قوة عظيمة فيها كفاءة لمنعه وصده ولكن لم يسلكوا فى ذلك
مسالك الحزم وسداد الرأى فلم يحصل لهم فلاح ولا نجاح وذلك ان البابا كليمان
لم يجر على ما اتفق عليه مع اهل البنادقة فى شأن حفظ بلاد ايطاليا
وابقاء حريتها بل حمله الخوف من الامير لانواى اوغروره بالمواعيد
المزخرفة التى وعده بها على ان يعدل عما صمم عليه مع البنادقيين وعقد فى غرة شهر نيسان
مشارطة خصوصية بينه وبين هذا الامير والتزم فيها ان يدفع فى الحال مبلغا
جسيما من المال فى نظير بعض شروط طلبها فلما دفع اليه ذلك المبلغ وارسل تلك
المشارطة الى الايمبراطور أبى ان يقرها فاستوجب البابا سخط الناس
عليه بكونه آثر مصلحة نفسه على المصلحة العامة وبكونه ارتكب من

الدناءة مما اكسبه الخزى والعار من غير ان يعود عليه ثمرة من ذلك

مطلب
قيام جيش الايمبراطور وخروجه عن الطاعة

ومع ان هذا المبلغ قد اخذ من البابا بطريق التحيل والخداع الذى يدنس العرض ويورث المعرة لصاحبه نقول انه كان له عظيم نفع حيث ان وقوعه فى يد الامير لانواى قد وافق وقوع فتنة بين الجيش فصرفه على العساكر وسكن به هذه الفتنة فكان ذلك سببا فى نجاته من الخطر وذلك انه بعد انهزام جيش الفرنساوية ظن العساكر الالمانيون الذين دافعوا عن مدينة باويا حق المدافعة انه بفخارهم الذى اكتسبوه بشجاعتهم حق لهم ان يطغوا ويبغوا ويفعلوا ما لا ترضاه النفوس الشريفة من السفه والوقاحة فطلبوا وفاء ما كانوا وعدوا به قبل الحرب فحصلت لهم محاولة من جهة حكامهم فاستولوا على مدينة باويا وصمموا على ابقائها بايديهم على سبيل الرهن حتى تصرف لهم ماهياتهم وكان يظهر من باقى الجيش انه يجنح الى اعانتهم لا الى قمعهم ولكن سكن الامير لانواى هذه الفتنة بصرفه عليهم المبلغ الذى اخذه من البابا ولما رآى انه ربما يتعذر عليه فيما بعد ان يصرف لهم ماهياتهم شهرا بشهر بدون تعويق فيعصون عليه ثانيا ورآى من الجائز انهم حين عصيانهم ربما قبضوا على الملك فرنسيس الذى كان اسيرا عنده استحسن ان يسرحهم جميعا المانيين وايطاليين ولا يبقى منهم احدا فى خدمة الايمبراطور ومن العجيب وان كان ملايما لما كان جاريا فى معظم الممالك الافرنجية فى القرن السادس عشر ان اغلب ملوك الافرنج كانوا يخشون ان يهجم الايمبراطور عليهم ويأخذ بلادهم وكان هو فى الحقيقة مصمما على ذلك مع ان ايراداته كانت قليلة جدا بحيث لا تفى بمصاريف هذا الجيش الذى لا يزيد على اربعة وعشرين الفا

مطلب
مذاكرة الايمبراطور فيما يكون به تحصيل فوائد جليلة من نصرته على الملك فرنسيس

هذا ولا يخفى أن الايمبراطور شرلكان لم يبق على ما كان يتكلفه اولا من اظهار التؤدة وعدم اظهار الفرح حين بلغه نصرة جيشه بل عدل عن ذلك وصار يبذل غاية جهده حتى يستفيد من مصائب خصمه الفوائد الجليلة وقد اشار عليه بعض ندمائه وارباب ديوانه ان يعامل الملك فرنسيس معاملة اهل العفو والحلم وان يترك دأب الشامتين عند النوائب ولا يكافئ الملك

سنة ١٥٢٥م

فرنسيس بامور صعبة بل يطلقه لتكون بينهما روابط المحبة الاكيدة لان روابط حسن الصنيع اعظم واثبت من كل رابطة تكون ناشئة عن المواثيق التى تحصل بمحض الالزام والاكراه لكن ربما كان مثل هذا الحلم لا يوافق الاغراض السياسية خصوصا وكانت هذه الصفات لا تلايم طبيعة هذا الايمبراطور فمن ثم شق عليه ان يقبل نصح هذا الفريق واما الفريق الآخر وهو الجمهور فكان رأيهم موافقا لرأيه فلذا قبله منهم بدون توقف الا انه لم يجر فى مقاصده على منهج العزم والهمة وذلك انه فضلا عن كونه يبذل جهده ويدخل فى مملكة فرانسا مع العساكر الاسبانيولية وعساكر البلاد الواطية ويغير على دول ايطاليا قبل ان تفيق من الدهشة التى اوقعها فيها نجاح عساكره فى واقعة باويا سلك سبيل التحيل والخداع واضاع وقته فى المذاكرات والمداولات التى لا تجدى نفعا ولكن لم يكن الحامل له على سلوك هذا السبيل هو مجرد ميله الى ذلك بل الجأته اليه الضرورة ايضا وذلك انه لقلة امواله كان لا يمكنه تحصيل الموادو المهمات اللازمة لتجنيد جيش عظيم لاسيما وكان لم يذهب ابدا مع جيوشه فى الحروب والوقائع بل كان يجعل عليها اسر عسكر ينوب عنه فكان لا يميل الى الحرب كل الميل ولا يجل به وانما كان يعوّل على المذاكرات وآراء المشورات لانه كان فى ميدانها بمكانة عظيمة وزيادة على ذلك اغتر بنصرته فى واقعة باويا كل الغرور حتى كان يتراءى منه اعتقاد انه دمر قوى مملكة فرانسا وانقد خرآتها وانه عن قريب ستقع تلك المملكة بين يديه كما وقع ملكها

مطلب الشروط الصعبة التى طلبت من الملك فرنسيس

ولما كان غروره يزين له تلك الآمال صمم على ان لا يبيع حرية الملك فرنسيس الا باغلى ثمن وعزم على عدم اطلاقه من الاسر الا اذا املى عليه ما شاء من الشروط فامر القونتة روكس ان يذهب الى الملك فرنسيس فى محبسه ويخبره على لسانه انه لا يطلق من الاسر الا اذا قبل هذه الشروط وهى ان يرد الى الايمبراطور اقليم بورغونيا لانه اخذ من آبائه واجداده بمحض الافتيات والتعدى وان يتخلى عن اقليم پرونسة ودوقية دوفينة لتتكون منهما

سنة ٩٣٠ في

بمملكة مستقلة تعطى للدوق دى بوربون وان يسلم الملك انكلترة فى جميع
ما كان يطلبه منه وان يبطل من الآن فصاعدا جميع ما يدعى به من الحقوق
فى مملكة نابلى ودوقية ميلان وغيرهما من دول ايطاليا هذا وكان
الملك فرنسيس يظن ان الايمبراطور سيعامله معاملة الملوك ويطلقه على
أحسن الوجوه فلما عرضت عليه تلك الشروط غضب غضبا شديدا وسل
حسامه قائلا الاليق بالملك ان يموت هكذا واخذ يقتل نفسه واذا بالامير
الرسون قام فزعا وقبض على يد الملك حتى سكن غضبه وعاد الى عقله وافاد انه
يؤثر الاسر على شرآء حريته بهذا الثمن الذى يبخس بمقامه مدة حياته
ويدنس عرضه

ولما وقف الملك فرنسيس على حقيقة ما رب الايمبراطور اخذت آلامه
فى الزيادة وتوثق عليه ان يمكث اسيرا عند الايمبراطور ولولا ما كان يتسلى به ليئس
كل اليأس وجزم ان لا مناص وهو انه اعتقد ان الشروط التى عرضها
عليه القونتة روكس لم تكن صادرة من نفس الايمبراطور وانما حكم بها
ارباب ديوان اسبانيا وانه اذا قابل الايمبراطور بنفسه يطلقه من الاسر
بخلاف ما اذا كان الوزراء هم الواسطة بينهما فتطول عليه المدة وبناء على ذلك
طلب ان يسافر الى مدينة مدريد ليقابل الايمبراطور وان كان هذا يفضى به
الى ان يكون كاعجوبة يتفرج عليها الخاص والعام من الاسبانيوليين
فاقره الامير لانواى على ذلك بل رغبه فيه واراه كيف يسلك فى هذا الامر
وكان الملك فرنسيس فى قلق عظيم حتى أتى من عنده بالسفن اللازمة للسفر
لان الايمبراطور شرلكان لم يكن حينئذ له اقتدار على تجهيزه ونحوه ايام كانت
فسافر الامير لانواى مع الملك فرنسيس الى جنويرة ولم يخبر بقصده
الامير دى بوربون ولا الامير يسكير وانما تعلل بكونه يريد ان ينقل
فرنسيس الى نابلى فبمجرد ان اقلعت السفن امر الملاحين ان يتوجهوا
الى اسبانيا وكانت الريح مساعدة فقذفت السفن الى نواحى مملكة
فرانسا فصار فرنسيس يلتفت اليها مع التحسر والتأسف ويرجع ببصره

سنة ١٥٢٥
٢٤ شهر اب

واحشاؤه تتلظى وبعد ايام قليلة رسوا على مدينة برسلونة فصدر امر من الايمبراطور بوضع الملك فرنسيس فى السراية الملوكية التى بمدينة مدريد وامر الامير الرسون بحفظه وخفره فقام بذلك مع التيقظ الذى كان عليه فى السجن الاول وبعد وصول ملك فرانسا الى مدينة مدريد ببعض ايام علم انه لا ينبغى له ان يعتمد على حلم الايمبراطور وكرم نفسه وانما تسلى بالمشارطة التى انعقدت بين امه الاميرة لويزة والملك هنرى الثامن مؤملا ان يطلق بها من اسره وذلك ان الامور التى طلبها ملك انكلترة من الايمبراطور الغاها فى مدينة مدريد لان الايمبراطور لغروره بالنصرة صار لا يظهر لملك انكلترة الاحترام والتبجيل الذى كان يظهره له سابقا وكان الوزير ولسى متكبرا كسيده يحب من يتملق له ويداهنه فاغتاظ كل الغيظ من الايمبراطور حيث قطع المودة وعلائق المحبة التى كان يظهرها له سابقا وهذه الاسباب قوت الاسباب التى ذكرتها آنفا فحملت الملك هنرى على عقد مشارطة مع الاميرة لويزة التزم فيها بالمدافعة عن مملكة فرانسا وحمايتها من الايمبراطور وبذلك زالت جميع الاسباب التى كانت توجب العداوة بين انكلترة و فرانسا ووعد الملك هنرى ان يخلص فرنسيس من ورطة اسره

مطلب
المشارطة المنعقدة بـ
مملكة فرانسا وملك انكل
واعانة هذا الملك للمملـ
المذكورة

وبينما كان الايمبراطور فى حيرة عظيمة بسبب تخلى ملك انكلترة عن حزبه اذ حصلت حادثة اخرى مشؤومة زادت بها حيرته وذلك ان مورون قنجلير ميلان كان يدبر ويبرم فتنة كبيرة لاعدام حكم الايمبراطور من بلاد ايطاليا لان مورون وان كان يبغض الفرنساوية الا ان تلك البغضة زالت من قلبه بعد طردهم من بلاد ايطاليا وحصل له ايضا سرور من جعل الامير سفورس حاكما على دوقية ميلان لكنه اغتاظ حين توقف ديوان الايمبراطور فى تولية سفورس المذكور على دوقية ميلان وابدى عللا كثيرة فى عدم تعجيله بتولية هذا الامير وكانت هذه العلل ظاهرها المحاولة والمخادعة فظن مورون ان قصد الايمبراطور وارباب ديوانه من هذه

مطلب
الفتنة التى اوقعها مورو
لاعدام حكم الايمبراط
من بلاد ايطاليا

سنة ١٥٢٥

المحاولة أن يسلبوا من الامير سفورس دوقية ميلان مع انها اخذت من
ايدي الفرنساوية لاجله وكان البابا واهل البنادقة يظنون ذلك ايضا
فاراد شرلكان ان يزيل ذلك من قلوبهم فعجل باعطاء حكومة ميلان
للامير سفورس لكن بشروط صعبة واحتراسات بموجبها كان يرى ان الامير
المذكور صار من رعايا الايمبراطور لا من خراجي الايمبراطورية وصار اعتماده
على بقاء هذه الدوقية بيده متوقفا على ارادة سيد طماع اعنى الايمبراطور
فكان من الجائز ان الايمبراطور يأخذ منه تلك الدوقية وكان مورون يعلم
انه اذا اخذها وضمها الى مملكة نابلي يخشى على حرية بلاد ايطاليا
باجمعها بل ويخاف أن يفقد ما كان له حينئذ من الشوكة ونفوذ الكلمة وحيث
كانت هذه الامور المرجفة قائمة بذهنه لا تنفك عنه اخذ يدبر ما يكون به
انقاذ بلاد ايطاليا من حكم الايمبراطور وهذا الغرض كان يميل اليه
ارباب السياسة من اهل ايطاليا فى ذلك العصر وكانوا يرغبون فيه
كل الرغبة فرأى مورون انه اذا كان سببا فى خلاص مملكة نابلي من ايدى
اهل اسبانيا يثبت له فخر كبير وشهرة عظيمة لا سيما وقد كان سببا ايضا فى
طرد الفرنساوية من دوقية ميلان فبمجرد ما تعلقت آماله بتنجيز هذا الغرض
سنح بذهنه طريق يسلكه فى هذا المعنى فاستحسنه وصمم عليه وان كان صعبا
جدا الا انه كان جسورا ماهرا لا تعوقه خطوب ولا تصده اخطار

مطلب
مذاكرته مع الامير پسكير

هذا ولا يخفى ان كلا من الامير دى بوربون والامير پسكير كان قد حصل له
غيظ شديد من كون الامير لانواى توجه بملك فرانسا الى اسبانيا
من غير أن يخبرهما اما الدوق دى بوربون فخشى ان يحصل بين الايمبراطور
والملك فرنسيس عقد مشارطة تضر بمصالحه فسافر فورا الى مدينة
مدريد ليأمن من وقوع ذلك وبعد سفره بقى الامير پسكير وحده منوطا
بحكم الجيش فلم يمكنه أن يترك بلاد ايطاليا لكنه كان فى كل وقت يظهر
الغيظ من الامير لانواى ويتكلم فى حقه بامور تدل على بغضه وكراهته له
وبعث الى الايمبراطور كتابا يذكر فيه ان لانواى لم يتقع وقت الحرب ولم يظهر منه

سوى

سوى الجبن كما انه بعد الحرب لم يظهر منه سوى الوقاحة وقبح السلوك وزيادة سنة ١٥٢٥
على ذلك كثيرا ما كان الامير پسكير يتظلم من الامبراطور ويخبر انه لم يكافئه
ولم يجزه على خدمه واشغاله حتى ان موروون المتقدم اسمه كان شارعا
فيه على غيظ الامير پسكير وذلك انه كان يعلم ان طمعه زائد عن الحد وله
فضل شهير وباع طويل في الحرب والصلح وله نفس شريفة وهمة علية يقدم
على ما لا يمكن الاقدام عليه فيعود رافلا في حلل الظفر والنجاح وكان
معسكر جيش اسبانيا قريبا من مدينة ميلان فسهل على موروون
ان يتقابل مع الامير پسكير فقابله عدة مرات وفي كل مرة يتكلم معه في شأن
الحوادث التي اعقبت واقعة پاويا لان الامير پسكير كان يكثر دائما من
ذكر هذا المعنى فلما رأى موروون انه يظهر الغيظ والتظلم من فعل الامبراطور
اخذ يذكره جميع الامور التي يمكن ان تزيد في غيظه وغضبه فكان يبالغ له
في ظلم الامبراطور وعدم انصافه معه حيث آثر عليه الامير لانواي وفوض له
امر ملك فرانسا فاخذه وسافر به الى اسبانيا ولم يشاوره مع انه هو
السبب في نصرة جيش الامبراطور فكان حقه ان يفوض له لا لغيره امور الملك
فرنسيس مادام اسيرا وبهذا القول ظن انه قد قوى غيظ الامير پسكير
واخذ يفيده بطريق التلويح والتلميح ان الوقت يساعده اذا اراد الانتقام من
الامبراطور في نظير هذه الفعال القبيحة بل ويمكنه ان يثبت لنفسه فخرا مؤبدا
وفضلا مخلدا يبقى مدى الاعصار والدهور بكونه ينقذ وطنه من ظلم الغرباء
واجحاف الحكام الاجانب لا سيما ودول ايطاليا كانت قد سئمت من حكم
الاسبانيوليين لغلظتهم وسوء فعالهم فهي متأهبة لان تجتمع مع بعضها
وتطلب استقلالها واهاليها كلهم متطلعون اليه ولا يرون احدا سواه له عقل
ونهى وقريحة واسعة ودهاء يقدر على تنجيز هذا المقصد المهم وتتميمه مع النجاح
وابدى له ان تتميم هذا الغرض موقوف على ارادته حيث ان الامبراطور ليس له
من العساكر في بلاد ايطاليا الا طاقة من المشاة الاسبانيولية فاذا اوزعهم
في قرى ميلان يقتلهم الاهالي في ليلة واحدة لانهم في غيظ شديد منهم بسبب

سنة ١٥٢٥

ظلمهم وافعالهم القبيحة وبعد ذلك يمكنه بدون صعوبة ان يستولى على كرسى مملكة نابلى واوقع فى ذهنه ان الدهر اعد له تاج هذه المملكة مكافأة له على انقاذه لبلاد ايطاليا من ايدى الغرباء لاسيما والبابا الذى هو سيد مملكة نابلى حيث انه طالما تصرف فيها البابات قبله كيف شاؤا يحصل له غاية السرور من جعله ملكا عليها وافاده ان اهل البنادقة و فلورنسة ودوق ميلان بلغهم هذا الخبر وانهم سينضمون الى مملكة فرانسا ويقومون مع الفرنساوية باثبات حق الملوكية له فى نابلى وان اهل نابلى انفسهم يودون ان يكونوا تحت حكمه لانه من ابناء وطنهم ويعزونه كثير الفضله ومعارفه وان نفوسهم قد سئمت من حكم الغرباء الذين اتعبوهم بظلمهم وشدة قسوتهم وان الايمبراطور اذا ظهر له ذلك على حين غفلة يقع فى الورطة والارتباك ولا يمكنه مقاومة هذه العصبة الكبيرة لاسيما وهو قليل الاموال والرجال

وفى مدة هذه الحكاية كان الامير پسكير يصغى الى قول مورون وهو فى عجب زائد من صعوبة هذا المشروع كانه يفكر فى امور جمة ومقاصد مهمة فكان من جهة ينفر من قول مورون حيث كان يحثه ويدعوه الى القيام على الايمبراطور وقد استأمنه وجعله رئيسا على عساكره وكان من جهة اخرى تحسن له نفسه اتباع مورون حيث كان يغره بقوله انه هو الذى يتولى ملكا على بلاد نابلى فمكث پسكير مدة وهو يتردد بين هذين الامرين ثم جنح الى ما يكسبه العزة منهما وحسنت له نفسه الطماعة ان يغدر بالايمبراطور ليستولى على مملكة نابلى وكثر ما حصل ان اناسا عند تخييرهما بين ما فيه نفعهم وما فيه شرف عرضهم يؤثرون الاول لكنه اراد قبل خيانته وغدره ان يبحث له عن علة يتعلل بها وحجة يستند اليها فالزم مورون ان يسأل بعض علماء الدين هل يجوز لشخص من الرعايا ان يعصى ملكه الذى فوقه مباشرة ليطيع من له الحق والسيادة فى الدولة التى هى الغرض من العصيان والخروج فاجابوا بالجواز واستمرت من ذلك الوقت المداولات والمذاكرات بين مورون

سنة ١٥٢٥

مطلب
غدر بسكير بالفنجليه موورون وقبضه عليه

والامير بسكير حتى بذل كل الجهد فى تحصيل ما يلزم لتنجيز هذا الغرض المهم

ولكن الامير بسكير اما لكونه استعظم هذا الامر وارتعدت فرائصه من الغدر بسيده الذى له عليه خيرات جزيلة اولكونه رأى ان الدهر لا يساعده فى ذلك وتيقن عدم النجاح اخذ يفكر فيما يتعلل به فى نقض الشروط التى انعقدت بينه وبين موورون وكان اذ ذاك الامير سفورس قد اعتراه مرض ظن انه يفضى به الى الهلاك فرأى الامير بسكير انه ان كشف سر هذه الفتنة وقبض على موورون الذى يريد ايقاعها يسر منه الايمبراطور ويجعله حاكما على دوقية ميلان مكافأة له على امانته وصدقه وان هذه الوسيلة اكثر حزما واقرب للنجاح مما اذا بحث عن اخذها بطريق الغدر والخيانة الا ان هذه النية الجأته الى ارتكاب امور قبيحة تزرى ايضا بالمروءة وتدنس العرض وكان للايمبراطور المام بامر هذه الفتنة حين اخبره بها بسكير فظهر منه انه قد حصل له غاية السرور من هذا الامير لامانته وصداقته وأمره ان يستمر على ما هو عليه من المذاكرة مع البابا والامير سفورس حتى يختبرهما ويعرف بواطنهما ويمسك عليهما ادلة واضحة تثبت خيانتهما ولما كان بسكير يعلم من نفسه ان مذاكرته اولا لم تكن عن خلوص طوية بالنسبة للايمبراطور وان سكوته على ذلك مدة لا بد وأن اوقع فى قلوب اهل ديوان مدريد سوء الظن به واتهامه بالخيانة وعد الايمبراطور بتنجيز ما امره به ليبرئ نفسه عند الناس حتى لا يسوء الظن به فلذلك اضطر الى ارتكاب ما يدنسه مدى الايام والدهور وهو مداهنة قوم للغدر بهم واذا التفت الانسان الى سعة قرائح من خادعهم بسكير راى ان مداهنته لهم ليست فى الصعوبة دون ما نشا عنها من تدنيس العرض ومع ذلك سلك فيها مسلكا غريبا حتى امكنه ان يدخل حيله وخداعه على موورون وكان بمكان من الذكاء والفطنة وذلك ان موورون لما كان يعتقد صدق الامير بسكير ويثق به ذهب اليه فى قصر نورو ليتمم معه ما اتفق عليه فى هذا الخصوص فتلقاه بسكير بمحل كان الامير ليوه حينئذ مختفيا فيه

سنة ١٥٢٥

ليسمع قول موروون مع پسكير ويكون شاهدا عليه فبعد ان قضى موروون امره وهم بالخروج من القصر ليرجع الى داره اذ فزع فزعا شديدا وتحير فى امره حين راى الامير ليوه قد قبض عليه بطريق النيابة عن الايمپراطور وذهب به الى قلعة مدينة پاويا وبعد ان كان پسكير شريكه فى الفتنة صار يسأله ويقضى فى دعواه وصدر امر من الايمپراطور بحرمان الامير سفورس من جميع حقوقه فى دوقية ميلان لانه كان من ارباب الفتنة وامر باخذ جميع قلاع دوقية ميلان ومدنها فاخذها پسكير ماعدا مدينتى كريمون و ميلان لان الامير سفورس بادر بالمدافعة عنهما وبادر عساكر الايمپراطور بحصارهما

مطلب
ما قاساه فرنسيس من سوء المعاملة فى بلاد اسبانيا

ثم ان هذه الفتنة التى كان الغرض منها تجريد الايمپراطور عن اراضيه التى ببلاد ايطاليا لم تنجح بل ترتب عليها تكثير اراضيه فى البلاد المذكورة ومع ذلك رآى الايمپراطور ان من الضرورى اللازم له ان يتفق مع ملك فرانسا ويصالحه ويخلى سبيله وانه ان لم يفعل ذلك عادى سائر دول اوروپا وتتعصب عليه لما رآى منها انها كلها قد فزعت من نجاح جيشه فى واقعة پاويا ويحافظهم من شدة الطمع والشره حيث كان لا يتكلف اخفاء ما كان قائما بنفسه وكان الى ذلك الوقت لم يعامل فرنسيس المعاملة اللائقة بالملوك بل ولم يحترمه الاحترام اللائق بمقامه فعوضا عن كونه يسلك معه ما تسلكه الملوك العظام مع المصاب بالنكبات سلك معه مسلك ارباب الصيال وقطاع الطرق الذين يطمعون انهم باسائة من وقع فى ايديهم يجبرونه على فدآء نفسه منهم بما تملكه يده وذلك انه سجن الملك فرنسيس بقصر عتيق ووضع عليه خفرا كان يشدد عليه كل التشديد حتى تنغص عيشه وسئمت نفسه وعند الفسحة كان لا يؤذن له الا بركوب بغلة وتحدق به خيالة متسلحة ولم يذهب اليه الايمپراطور بل تعلل بانه لا يمكنه ان يغيب عن المشورة العامة المنعقدة بمدينة طليطلة وذهب بديوانه الى تلك المدينة قاصدا بذلك ان لا يقابل الملك فرنسيس فمضت عدة اسابيع من غير ان يذهب اليه فى السجن مع ان فرنسيس كان

سنة ١٥٢٥

مطلب
اشراف فرنسيس على الهلاك

يطلب ذلك بنفسه ويجد فى طلبه فبهذه الفعال القبيحة التى لا تطيقها نفوس الملوك نمت تعس الملك فرنسيس ولحقه غم شديد حتى كره الدنيا وما عليها لما انه كان ذا شمم وشرف تعس وفقد الميل الى اللذات وزالت بشاشته الطبيعية وبعد ان مكث زمنا طويلا وهو آخذ فى الضعف والهزال اصيب بحمى شديدة حتى اشرف على الهلاك وفى شدة مرضه كان لا يشكى الا من تشديدهم عليه وسوء معاملتهم اياه وكان يلهج غالبا بقوله ان الامبراطور سيحصل له غاية السرور من كون عدوه مات فى السجن تحت قبضته من غير ان يتفضل عليه بعيادته ولو مرة واحدة فلما عجز الاطباء عن معالجته ويئسوا من حياته اخبروا الامبراطور بانه لا يرجى له شفاء من هذا المرض الا اذا انعم عليه بما يتمناه ويلهج به فى اغلب اوقاته وهو ان يذهب لعيادته وكان الامبراطور يود حفظ حياة الملك فرنسيس حتى تتحقق له الفوائد الجليلة التى كان يأملها بعد انتصار جيشه فى واقعة ياويا فجمع فورا وزراءه ليتذاكر معهم فى شأن ما ينبغى فعله وكان اعظمهم علما ودراية القنجليير غاتيناره فابدى للامبراطور انه من عدم المروءة ان يعود الملك فرنسيس ان لم يكن عازما على التساهل معه وتخلية سبيله بموجب شروط مقبولة وافهمه ان من العار فى حقه أن يعوده لمجرد الطمع والحرص على عدم ضياع مصالحه حيث انه قبل مرضه واشرافه على الهلاك طالما طلب منه ذلك مع الالحاح فلم يجد ذلك شيأ واما الامبراطور فكان دون هذا الوزير فى المروءة والعرض فلذا لم يلتفت لقوله وسافر الى مدريد لمجرد تطلع أسيره ومقابلته لكن لم يمكث معه الا برهة يسيرة لان الملك فرنسيس لشدة مرضه كان لا يستطيع التطويل فى المحادثة الا ان الامبراطور فى تلك البرهة التى مكثها معه خاطبه مع الاحترام والتعظيم ووعده ان يعامله المعاملة اللائقة بالملوك وانه يخلى سبيله عن قريب ولو كان هذا القول من الامبراطور صادرا عن صدق وخلوص نية لكفاه ذلك شرفا وفخرا الا ان فرنسيس كان فى حالة رديئة من شدة مرضه فاعتقد صدق قول الامبراطور وداخلته العافية لانشراح صدره بما وعده به ومن وقتئذ اخذ

مطلب
مقابلة الامبراطور مع الملك فرنسيس فى ٢٨ شهر ابلول

سنة ١٥٢٥

في الانتعاش والشفاء حتى استقامت صحته بعد مدة قليلة ورجعت له قواه

مطلب
وصول الدوق دي بوربون الى مدينة مدريد

ولكن بعد أن شفي وتنبه داخله الندم والحسرة حيث اعتقد صحة كلام الايمبراطور واغتر بزخرف قوله مع ما سبق له منه هذا واما الايمبراطور فانه بعد خروجه من عند فرنسيس توجه فورا الى مدينة طليطلة وأحال الامور على وزرآئه فصار الملك فرنسيس من تشديد الخفرآء عليه في ضنك وضيق اكثر مما كان فيه اولا وحصلت حادثة اخرى ازدادت بها آلامه واحزانه وهي ما حصل من المراعاة ومزيد الاحترام لاحد اتباعه وذلك ان الدوق دي بوربون حين دخل بلاد اسبانيا قابله الايمبراطور بالتبجيل والاحترام ومزيد التعظيم والاكرام مع انه اى فرنسيس مكث مدة طويلة وهو لا يرضى ان يعوده في سجنه وذهب لمقابلة الدوق دي بوربون خارج مدينة طليطلة وعانقه معانقة الاحباب وجعله على يساره وسار معه في محفل عظيم وموكب مبتهج حتى وصل به الى قصره فاودع ذلك في قلب فرنسيس حسرة كبيرة الا انه تسلى بحادثة اخرى اعقبت تلك الحادثة وهي ان ظهر له ان مروءة اهل اسبانيا مباينة لطبع سيدهم وذلك انهم كانوا يبغضون الدوق دي بوربون لخيانته حتى ان اشراف تلك الملة كانوا يتباعدون عنه ويتجنبون معاشرته والمخاطبة معه وان كان ذا معارف جليلة ونفع وطنهم كل النفع في مواطن مهمة وقد حصل ان الايمبراطور التمس من الملتزم ويلونة ان يسكن بوربون في قصره مدة اقامة الديوان الايمبراطوري بمدينة طليطلة فاجابه الملتزم المذكور مع الادب بانه لا يستطيع مخالفة الايمبراطور لكن المأمول منه ان لا يعجب اذا احرق القصر بعد خروج بوربون منه وجعل عاليه سافله لان البيت اذا تدنس بسكنى اهل الغدر والخيانة فيه لا ينبغي ان يسكنه احد من اهل شرف العرض والامانة

١٥ من شهر تشرين الثاني

مطلب
جعل بوربون سر عسكر الجيش الايمبراطوري الذي كان ببلاد ايطاليا

ومع ذلك لم يعبأ الايمبراطور بذلك بل ما زال مصمما على مكافأة بوربون على خدمه حق المكافئة الا انه كان متحيرا فيما يكافئه به وكان بوربون يطلب من

الايمبراطور

سنة ١٥٢٥
الايمبراطور ان يوفيه بما وعده به وهوان يزوجه اخته اليونورة ملكة البورتغال وقال له ان هذا الامر هو الذى دعانى الى القيام على الملك فرنسيس وكان فرنسيس المذكور قبل سفره الى بلاد ايطاليا قد طلب ان يتزوج بهذه الاميرة منعا للتزوج الدوق دى بوربون بها وكانت الاميرة المذكورة تؤثر ان يتزوجها ملك ذو صولة وشوكة على الزواج برجل من رعيته مطرود عن بلاده فلذا كان الايمبراطور متحيرا فى امره لايدرى مايصنع الا انه
شهر كانون الاول
فى اثناء ذلك مات الامير بسكير عن ست وثلاثين سنة بعدان اشتهر وعد من اعظم جنرالات عصره واشهر ارباب السياسة فى دهره فكان موته سببا فى انقاذ الايمبراطور من تلك الحيرة وذلك انه قام مقامه الدوق دى بوربون حيث جعله رئيسا على جيش ايطاليا وزيادة على ذلك جعله حاكما على دوقية ميلان بدلا عن الامير سفورس واشترط عليه ان لايطلب التزوج بالاميرة اليونورة ملكة البورتغال وكان الدوق دى بوربون لايستطيع مخالفته فرضى بذلك

مطلب المذاكرة التى حصلت فى شأن تخلية سبيل الملك فرنسيس
واعظم الاشياء التى كانت تمنع من تخلية سبيل الملك فرنسيس هوانه كان لايرضى ان يعطى اقليم برغونيا للايمبراطور وكان الايمبراطور يشدد فى ذلك ويظهر انه لايخلى سبيله الا بعد رضائه بهذا الشرط وكان الملك فرنسيس يظهر انه لايرضى بذلك ابدا لان فيه تمزيق مملكته وانه ان نسى مايجب عليه من حيث كونه ملكا وقبل هذا الشرط فقوانين مملكته تنابذ ذلك كل المنابذة وانما رضى انه من الآن فصاعدا يترك حقوقه فى بلاد ايطاليا والبلاد الواطية للايمبراطور ولاينازعه فيها ابدا ووعد ايضا انه يرد الى الدوق دى بوربون سائر الاراضى التى اخذت منه وانه يتزوج بالاميرة اليونورة وان يدفع مبلغا عظيما فى فداء نفسه لكن لم يحصل بينهما اتفاق بل صار كل منهما من وقتئذ لايراعى الآخر ولايثق به ونزع ذلك من قلوبهما الى الابد ونشأت بينهما العداوة والبغضاء ولم تزل متمكنة من قلوبهما حتى فارقا الحياة وفى تلك المدة لازالا فى جدال ونزاع وعرض ونقض حتى ترائى للناس ان لا انتهاء لتلك المذاكرة

سنة ١٥٢٥ م

وانه لا يحصل توافق بين الجانبين فان احدهما كان طماعا مصمما على ان ينتهز هذه الفرصة ويغتنم فيها بجميع ما يساعده عليه دهره من الفوائد والمصالح واما الجانب الآخر فكان على غاية من الاحتراس لما سبق له وعهده من خصمه وكانت الدوقة دالنسون اخت الملك فرنسيس قد ذهبت اليه لتعوده فاذن لها الايمبراطور ودخلت عندا خيها فى السجن وبذلت غاية جهدها فى فكه من ربقة الاسر بشروط سهلة لطيفة لا تزرى بالعرض كالاولى واعتنى بذلك ايضا هنرى ملك انكلترة لكن لم ينجعا فى ذلك حتى ان الملك فرنسيس يئس كل اليأس وعزم على ان يخلع نفسه من مملكته ويتنازل عن حقوقه وينقلها الى ابنه ويمكث هو فى السجن حتى يقضى الله امرا كان مفعولا ورأى ان ذلك اوفق به من كونه يفدى نفسه بشروط لا تليق بالمقام الملوكى فكتب حجة بهذا الامر ووضع عليها امضاءه وامر اخته ان تذهب بها الى مملكة فرانسا لتقيد فى دفاتر دواوين المملكة ويعمل بمقتضاها واخبر الايمبراطور بذلك وترجاه ان يعين لسجنه محلا ويعمل له بيتا لائقا بمقامه ليقضى فيه ما بقى من عمره

مطلب
حيرة الايمبراطور

فاثر ذلك تأثيرا عظيما فى قلب الايمبراطور واوقعه فى حيرة كبيرة فخشى انه بتشديده فى الشروط يخيب سعيه ولا يظفر بمرامه ويؤول الامر الى كونه يرى بين يديه ملكا لا بلاد له ولا ايراد لاسيما وقد حصل فى اثناء تلك المدة ان بعض اتباع ملك نوار بذل جهده حتى اخرج سيده خفية من السجن الذى وضع به بعد واقعة باويا فخشى الايمبراطور ان الملك فرنسيس او اتباعه يمكنهم بالرشوة او غيرها ان يخرجوا ملكهم من السجن مع تيقظ الضباط المأمورين بحفظه واذا حصل ذلك خابت آماله وضاعت جميع فوائده فلهذه الاسباب رأى ان الاحسن والاوفق للصواب والحزم ان يتساهل فى المشارطة ولا يلزمه بشروط صعبة هذا ما كان من امر الايمبراطور واما الملك فرنسيس فكان قد سئم من السجن وطول المدة وكان قد اتت اليه اخبار من بلاد ايطاليا بان هناك من يدبر امر عصبة كبيرة على الايمبراطور فصمم على ان يتساهل

سنة ١٥٢٥ ايضا فى المشارطة ويقبل ما يلزمه به الامبراطور وبعد ان يتخلص من السجن
سنة ١٥٢٦ ويخلى سبيله يمكنه ان يأخذ ثانيا جميع ما سلم فيه بطريق الاكراه
والقهر

مطلب المشارطة المنعقدة بمدريد

وبهذه الاسباب تساهل كل من الملكين فى اشياء وانعقدت مشارطة اطلاق الملك فرنسيس بمدينة مدريد فى اربعة عشر من شهر كانون الثانى سنة ١٥٢٦ من الميلاد واما اقليم بورغونيا الذى كان سببا فى تأخير عقد المشارطة الى ذلك الوقت فانحط الرأى على ان الملك فرنسيس يتركه الى الامبراطور مع سائر ما يتعلق به من الاراضى والبلدان ولكن حيث رضى الامبراطور باطلاق الملك فرنسيس وتخلية سبيله قبل وضع يده على هذا الاقليم وغيره مما تضمنته المشارطة وقع التراضى ايضا على ان الملك فرنسيس يسلم للامبراطور على سبيل الرهن اكبر اولاده الذى هو ولى عهده وابنه الثانى دوق اورليان او ابنه الاكبر واثنى عشر من امراء فرانسا يختارهم الامبراطور ويعين اسماءهم ويبقون تحت يده حتى يوفى الملك فرنسيس بما حوته المشارطة وكان فى تلك المشارطة شروط اخرى صعبة جدا وان كانت دون الشروط المذكورة فى الاهمية منها ان الملك فرنسيس يترك دعواه فى شأن بلاد ايطاليا ويترك حقوقه الملوكية فى بلاد الفلمنك واقليم ارتوازه وانه بعد اطلاقه بستة اسابيع يرد الى الدوق دى بوربون وسائر احزابه واصحابه جميع املاكهم وامتعتهم وعقاراتهم ويعطيهم اشياء عظيمة فى نظير الاشياء التى تلفت عليهم بسبب اخذ املاكهم وامتعتهم منهم ويجبر الامير هنرى دالبرطه على ان يترك دعواه فى حق الملوكية على بلاد نوار وان لا يعينه من الآن فصاعدا على الاستيلاء على تلك المملكة وان يكون بين الامبراطور والملك فرنسيس محبة اكيدة ومعاهدة لا تنقض على مدا الدهور والايام وان يعين كل صاحبه عند الحاجة ولاجل تمكين تلك المحالفة وتقويتها انحط الرأى على ان الملك فرنسيس يتزوج بالاميرة اليونورة اخت الامبراطور شرلكان ملكة البورتغال والتزم فرنسيس ان يضع

سنة ١٥٢٦

على تلك المشارطة مع ما تضمنته من الشروط اقرار ارباب مشورة وكلاء مملكة فرانسا ويقيدها في سائر دواوين مملكته والتزم الايمبراطور ايضا انه يجيز دوصول هذا الاقرار اليه يخلي سبيل ولدي الملك فرنسيس المرهونين عنده ولكن يرسل اليه بدلا عنهما الامير كرلوس دوق انغوليم ثالث ابن الملك فرانسا ليتربى في ديوان الايمبراطور ويكون به تمكين المحبة ودوامها بين ابيه الملك فرنسيس والايمبراطور ووعد فرنسيس وأكد وعده بالقسم انه ان لم يوف بما تضمنته المشارطة في المدة المعينة يرجع ثانيا الى بلاد اسبانيا فيمكث اسيرا تحت يد الايمبراطور كما كان

مطلب
ما قارن هذه المشارطة من مقتضيات الاحوال

فظن الايمبراطور شرلكان انه بتلك المشارطة قد ارغم انف عدوه وسد عليه كل باب حتى لا يمكنه ان يعود الى صولته الاولى فيخشى بأسه ولكن ادرك اعظم ارباب السياسة من اهل عصره ان هذه المشارطة لا يمكن العمل بمقتضاها وان الملك فرنسيس بعد اطلاقه وتخلية سبيله تستنكف نفسه ان يعمل بموجب شروط رفضها عدة مرات ولم يقبلها الا لضيقه من السجن واسره فقالوا ان الطمع وا لحقد يحملانه من غير شك على نقض تلك الشروط التي لم يقبلها الا بمحض القهر والاكراه ويسهل عليه تحصيل ما يستند اليه في هذا المعنى ويبرهن به على انه لا يجب عليه الوفاء بشيء مما ذكر في المشارطة لانه انما قبلها بالاكراه والاجبار لا بالطوع والاختيار ويجد من يعضده اذا اعتذر حيث ان الضرورات لا يقاس عليها ولو اطلع على ما اضمره فرنسيس حين عقد المشارطة لقيل ان هذا الرأي في محله وانه عين الصواب لا محالة لان الملك فرنسيس قبل ان يضع امضاءه على المشارطة المذكورة ببعض ساعات جمع من كان معه من ارباب ديوانه ومشورته بمدينة مدريد وحلفهم ان يكتموا

مطلب
انكار الملك فرنسيس للمشارطة المنعقدة قسرا

اسره ولا يفشوه ابدا ثم قص عليهم ما فعله الايمبراطور معه من الحيل بقصد مخادعته وسوء المعاملة التي لا تليق بالملوك لتهديده وتخويفه وبناء على ذلك فهم من الشاهدين على ان المشارطة التي هو مطالب بوضع امضائه عليها ليست صحيحة بوجه من الوجوه ولا يعمل بها لانها بمحض الالزام والاكراه * وبهذه

الطريقة

١٥٢٦ ة الطريقة التي ليست من شروط الصدق وخلوص الطوية ولا يقبل اعتذاره فيما ابداه من مخادعة الامبراطور له واساءته اياه ظنا انه قد فعل ما فيه شرفه ورضاء نفسه فلم يضع امضاءه على المشارطة الا وهو مصمم على نقضها وعدم العمل بها

ولكن كان كل من الامبراطور والملك فرنسيس يظهر لصاحبه الصداقة والمحبة التامة فكانا يخرجان مع بعضهما امام العامة والخاصة ويكثران المحادثة والمسامرة ويسافران معا في عربة واحدة وكانت نزهتهما وحظوظهما واحدة الا انه في اثناء ذلك كان الامبراطور مشغول البال موسوس الخاطر فانه مع تجهيز الشروع في اشهار نكاح الملك فرنسيس للاميرة اليونورة عقب المشارطة لم يرض الامبراطور بتتميم هذا الزواج بل ابقاه حتى يأتي اقرار المشارطة من مملكة فرانسا واما الملك فرنسيس فكانه لم يخلص من أسره بالكلية بل كان الخفر ملازما له في سائر الاوقات فكانوا يراعونه ويكرمونه بوصف كونه صهرا للامبراطور وكانوا يحترسونه ويلاحظونه كل الملاحظة بوصف كونه اسيرا ومن ثم ادرك الحازمون من ارباب السياسة والفطنة ان تلك المحبة ليست صادقة ولا دوام لها حيث انها من مبدئها مشوبة بالغش والخيانة

مطلب اقرار المشارطة ببلاد فرنسا

وبعد مضي شهرات المشارطة من مملكة فرانسا عليها اقرار الملكة لويزة ام الملك فرنسيس وكانت حينئذ نائبة عنه في المملكة ولحزم الملكة المذكورة آثرت في هذه الصورة المصلحة العامة على مصلحة نفسها حيث ارسلت تخبر ولدها فرنسيس بانها عوضا عن ارسال الامراء الاثنى عشر المذكورين في المشارطة قد ارسلت الدوق دورليان واخاه الى بلاد اسبانيا لما رأته من ان المملكة لا تتوقف مصالحها على غيبة ولد صغير وتعطل امورها وتبقى بدون من يقوم بحمايتها والذب عنها اذا غاب عنها الابطال والخبراء اولو الفضل والمهارة الذين عينهم الامبراطور في المشارطة ليأخذهم عنده رهينة عوضا عن الدوق دورليان

سنة ١٥٢٦

مطلب
اطلاق الملك فرنسيس

وبعد ذلك كله وقع الوداع بين الملك فرنسيس والامبراطور وكانت وسوسة دا آنما في ضمير حوارزمياد حتى انه لاجل تأكيد المشارطة اشترط شروطا جديدة وقبلها الملك فرنسيس بدون توقف وعطفها على الاولى ولا حاجة الى بيان مالحق فرنسيس من السرور والفرح حين خروجه من مدينة مدريد لانه غنى عن الوصف وانما يكفي التأمل فيما لحقه بتلك المدينة من الضنك والضيق فيعرف به مقدار كراهته لها ودرجة سروره حين خروجه منها ثم سافر فرنسيس ومعه جماعة من الخيالة تخفره وكان رئيسهم الامير الرسون فكان هذا الامير كلما قرب من اطراف مملكة فرانسا يزداد التفاته وتنبهه للملك فرنسيس فلما وصل به الى نهر بيداسواه الفاصل بين مملكة فرانسا وبلاد اسبانيا رآى على الشاطئ الآخر من هذا النهر الامير لوتريك ومعه جماعة من الخيالة تساوى في العدد الجماعة التي معه وكان هناك سفينة خالية واقفة في وسط النهر فاصطف الجماعتان امام بعضهما على الشاطئين وتقدم الامير لانواى من شاطئ الاسبانيوليين ومعه ثمانية من البيكزادات وتقدم الامير لوتريك من شاطئ الفرنساوية ومعه ايضا ثمانية وكان الملك فرنسيس في سفينة لانواى وكان ابنه البكري وابنه الثاني وهو دوق دورليان في سفينة لوتريك فتلاقى السفينتان عند السفينة الخالية فعند ذلك عانق فرنسيس ولديه ثم وثب من سفينة لانواى الى سفينة لوتريك وانتقل ولداه الى سفينة لانواى وانفصل السفينتان حينئذ وتوجهت كل سفينة منهما الى حيث أتت فبمجرد ان وصلت سفينة الملك فرنسيس الى شاطئ فرانسا وثب منها طائرا من الفرح وركب فرسا تركيا وركضه وهو يطوح بيده فوق رأسه وصاح عدة مرات وهو يقول (ها أنا الآن ملك) ووصل في اقرب مدة الى مدينة سنجاندولوز ولم يستقر بها بل توجه الى مدينة بايونة *وقد وافق حصول هذا الامر الذى كان يتمناه الفرنساوية كما كان يتمناه الملك نفسه الثامن عشر من شهر ادار بعد واقعة باويا بسنة واثنين وعشرين يوما

سنة ١٥٢٦

مطلب
تزوج الامبراطور بالاميرة ايزابيلا البورتغالية

واما الامبراطور فبمجرد ان ودع الملك فرنسيس واذن باطلاقه توجه الى مدينة اشبيلية ليتزوج بالاميرة ايزابيلا بنت المتوفى ايمنويل ملك البورتغال واخت الملك حنا الثالث الذى خلف ايمنويل المذكور فى الملك وكانت الاميرة المذكورة نادرة فى جنسها ذات جمال فائق وبهاء رائق وكانت بمكان من الفضل والمعارف وكانت ارباب مشورة مملكة قسطيلة ومملكة اراغون منذ زمن طويل يحثون الامبراطور على الزواج فلما اختار تلك الاميرة ليتزوج بها وكانت من نخبة العائلة الملوكية الحاكمة بمملكتى اراغون و قسطيلة استحسن الرعايا رأيه واستصوبوه وفرح البورتغاليون كل الفرح بتزوج الامبراطور لاميرتهم وكان اعظم ملوك الافرنج فاعطوها جهازا اعظميا يساوى تسعمائة الف كورون (نوع من النقود تقدم ذكره) وبالنظر لحالة الامبراطور اذ ذاك كان لهذا المبلغ موقع عظيم عنده فانعقد النكاح وانتشرت المسرات والافراح وعاش الامبراطور فى ارغد عيش واحسن مثواها وابدى لها ما لا مزيد عليه من المعزة والاكرام والتعظيم والاحترام

مطلب
مصالح بلاد المانيا

ولما كان الامبراطور شرلكان مشتغلا بهذه الامور فى بلاد اسبانيا كان لا يمكنه ان يلتفت حق الالتفات الى مصالح الامبراطورية الالمانية مع انها وقتئذ كانت ممزقة كل ممزق بما حدث فيها من الفتن والتعكيرات حتى كان يخشى ان تفضى بها الى عواقب مشؤمة تضر بها كل الضرر لان القوانين الالتزامية والرسوم السيادية كانت اذ ذاك باقية على اصلها فى تلك الامبراطورية فكانت

مطلب
الحالة السيئة التى كانت عليها الفلاحون

الاراضى والضياع ملكا للبارونيين وكانوا يعطونها لاتباعهم ويكلفونهم بامور تشمئز منها النفوس وكان باقى الملة فى حالة سيئة لا فرق بينها وبين حالة الرق والاستعباد حتى انه فى بعض بلاد المانيا كان رعاع الناس فى استرقاق شخصى ومنزلى بمعنى ان اشخاصهم ومنازلهم وما ملكت ايمانهم ملك لساداتهم وفى بعض بلاد اخرى منها لاسيما اقليم بوهمية وهى چه واقليم لوزاس كان الفلاحون تابعين لاراضى ساداتهم بمعنى انهم يعدون فى ضمن

الارض ان انتقلت ببيع او غير ملتزم آخر وفي اقليم سوابيه وغيره من الاقاليم سنة ١٥٢٦
التي على شواطئ نهر الرين كان يجب على الفلاحين مع انهم في تلك البلاد
احسن حالة من غيرهم ان يدفعوا الى ساداتهم وملتزميهم محصولات الاراضي
بتمامها بل وكانوا اذا اراد احد منهم أن يغير مسكنه او يحترف بحرفة اخرى غير
الزراعة والفلاحة لا يرخص له في ذلك الا اذا دفع لسيده او ملتزمه مبلغا معلوما
واما الفلاحون الذين كانت تعطى لهم بعض اراض فكانوا لا ينتفعون بها
الا مدة حياتهم ولا تنتقل بعدهم الى ذراريهم بل كان للملتزم بعد موتهم الحق في
اخذ ما شاء من امتعتهم وأثاثهم وكان ورثتهم اذا ارادوا أن يتقرروا في تلك
الاراضي دفعوا مغرما جسيما ومع ذلك كان الفلاحون لا يشكون ولا يتظلمون
من هذه المظالم الكبيرة لانهم كانوا قد تعودوا عليها وتمكنت من طباعهم لكن لما
حصل التقدم في التمدن والرفاهية وتغيرت الاحوال وصارت الحروب تستلزم
مبالغ جسيمة اتسعت مصاريف الدول واضطر الملوك الى ضرب مغارم كبيرة على
رعاياهم لاسيما وكانت اغلب تلك المغارم على البوظة والنبيذ وما اشبههما مما تكثر
الحاجة اليه فضج الناس من ذلك حيث اشتدت ازمتهم وساءت حالتهم وكان
اهل السويسة قبل ذلك اي في القرن الرابع عشر قد سئمت نفوسهم من مثل
هذه المغارم فخرجوا عن الطاعة وابتنوا لانفسهم بشجاعتهم الحرية التي يتمتعون
بها الآن وبتلك الاسباب خرج الفلاحون عن طاعة ساداتهم في عدة اقاليم
اخرى من بلاد المانيا في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن
السادس عشر نعم لم يترتب على عصيانهم ما ترتب على عصيان اهل السويسة
الا انه لم يمكن اطفاء تلك الفتنة الا مع مشاق كبيرة وسفك دماء كثيرة تفوق
على ما حصل في عصيان السويسيين

مطلب عصيان الفلاحين في سوابة

ولكن بعد قمع الفلاحين في تلك المرة لم تفتر همتهم بل كانت آمالهم لم تزل متعلقة
بانقاذ انفسهم من الظلم والجور لاسيما وكان الظلم يتجدد كل يوم فعيل صبرهم
وهموا بالعصيان ثانيا وحملوا اسلحتهم وقد بلغ منهم الغضب منتهاه فانتشرت
في سنة ١٥٢٦ اعلام الفتنة باقليم سوابة قريبا من مدينة اوله فبادر

اليها

سنة ١٥٢٤

اليها الفلاحون افواجا افواجا من سائر البلاد التي حولها ليغتنموا تلك الفرصة ويتقذوا انفسهم من المظالم الكبيرة التي هم بها في ضنك وكرب شديد منذ زمن طويل وانتقل خبر هذه الفتنة من اقليم الى آخر حتى انتشر في سائر بلاد المانيا وتعصب جميع الفلاحين بتلك البلاد وصاروا يطوفون في البلاد الالمانية كالمجانين وكلما دخلوا بلدة نهبوا اديارها وكنائسها وخربوا اراضي الملتزمين وهدموا قصورهم وذبحوا من وقع تحت ايديهم منهم

ولما ظنوا انهم بهذه الفتن قد اوقعوا الخوف والرعب في قلوب الملتزمين والحكام الذين كانوا يظلمونهم اخذوا في السكون والهدء وصاروا يبحثون عن الوسايط التي يأمنون بها في المستقبل من المظالم والجور وتعدي الملتزمين والحكام فحرروا لهذا الغرض تقريرا مشتملا على الامور التي يتظلمون منها وذكروا فيه انهم لا يلقون السلاح الا اذا انصفهم الاعيان طوعا او كرها في هذه الامور كلها وكان اعظمها هو طلبهم الحرية في شأن الدوربين بحيث يكون لهم حق انتخابهم وان لا يدفعوا الاعشار الا في محصولات القمح فقط وان لا يكونوا كالارقاء للملتزمين وان لا يباح لهم صيد البر والبحر كاصحاب الشرف فلا تكون الغابات والاجمات من خصوصيات الاشراف والملتزمين بل يكون لسائر الناس حق فيها وان يرفع عنهم ما حدث من المغارم وان تجتنب الاغراض في الحكم والقضاء ويتساهل فيه عن الحالة التي هو عليها وان لا يفتات الملتزمون على الغيطان والخلوات وعلى حقوق الجمعيات البلدية

مطلب تسكين الفتنة السابقة

ولا شك ان طلبهم لاغلب هذه الاشياء كان في محله وكان منهم جم غفير حاملا للسلاح حتى كانت حالتهم تقضي بانهم لابد أن يفوزوا بما طلبوه لكن كان هؤلاء الفلاحون لا ضبط ولا ربط عندهم ولا معرفة لهم بفن الحرب وكانوا متشتتين عن بعضهم في عدة محال فكانوا في قتالهم خالين عن الانتظام وكان رؤساءهم من رعاع الناس لا معرفة لهم بفن الحرب ولا مجال لهم في الوسايط التي توصلهم الى مقاصدهم فلم يكن قتالهم الا محض الخشونة خاليا عن الانتظام

سنة ١٥٢٦

وحسن الترتيب بجمع أشراف سوابة واشراف البلاد التي على اسفل نهر الرين اتباعهم وساروا لقتال هؤلاء العاصين الذين كانوا يخربون الاقاليم فهجموا على بعض هؤلاء الفلاحين في السهول وانقضوا على البعض الآخر في المحال التي كان كامنا بها فهزموهم ومزقوهم كل ممزق وبددوا شملهم وبعد أن خرب الفلاحون جميع البلاد الغير المحصنة وهلك منهم في القتال اكثر من عشرين الفا رجعوا الى مساكنهم وهم في القنوط واليأس لا يرجون فكاكا من شقوتهم وكروبهم

مطلب الفتنة الحاصلة في اقليم طورنجه

وكان مبدء هذه الفتن في الاقاليم الالمانية التي كان مذهب لوتير لم يتمكن منها كغيرها وحيث كانت اغراض الفلاحين من هذه الفتن سياسية محضة كما ترى لم يتعرضوا الى شئ من الاحكام الدينية التي كان النزاع حاصلا فيها اذ ذاك بين لوتير والكنيسة الرومانية ولكن لما حصلت الفتن في البلاد التي كان مذهب لوتير قد تمكن منها ازداد غضب اهل تلك البلاد حتى تجاوزوا الحدود لان النسخ الديني كان كلما دخل في بلدة يطبع الجسارة والمخاطرة في قلوب اهلها فتتشوق نفوسهم الى احداث امور جديدة ولا تفتر لهم همة ولا شك ان من تجاسر على ابطال مذهب الكنيسة مع علو شأنه واحترامه لا يخشى صولة ولا يخاف بطشا وذلك انهم لما كانوا يرون انفسهم حكاما عدلا في المواد الدينية المهمة وتعودوا على رفض ما يظهر لهم خطأوه في الدين كان لا يصعب عليهم التعرض الى اصول الحكومة وازالة ما يستقبحونه منها او يرونه من قبيل الظلم والجور بل لجسارتهم رأوا ان ذلك من حقوقهم لاسيما وكانوا قبل ذلك قد ازالوا مظالم الدين وما يستقبحونه فيه من غير ان يستعينوا بالحكام المدنية فقويت بذلك قلوبهم حتى شرعوا في ازالة المظالم السياسية كما فعلوا بالمظالم الدينية

مطلب ازدياد الفتنة الحاصلة باقليم طورنجه

وبناء على ذلك لما ظهرت الفتنة في اقليم طورنجه وكان عليه منتخب سكس وكان اهله قد تمسكوا بمذهب لوتير وتمكنت آراؤه من قلوبهم كل التمكن صارت تلك الفتنة كبيرة مهولة لم يسبق مثلها الاسيما وكان توماس مونسير احد اصحاب لوتير مستوطنا بهذا الاقليم وصار له موقع عظيم في قلوب اهله وكان

سنة ١٥٢٦

قد طبع في عقولهم عقائد باطلة وآراء عاطلة الا انها كانت تستلزم الحث على العصيان وايقاع الفتن حيث كان يعظهم بقوله (اعلموا ان اضرار لوتير بالدين اكثر من نفعه فانه وان انقذ الكنيسة من مظالم البابات ومفاسدهم الآن مذهبه يعين على فساد الاخلاق حسبما يشهد به انهما كه على المعاصي والمحارم فينبغي للناس لاجل منع ذلك ان يسلكوا في معيشتهم مسالك التقشف والتخشن وان يكون الانسان على هدى وتقوى ملازما للتؤدة لا يتكلم الا بقدر الحاجة ويلبس الملابس الخشنة ولا يضحك ولا يمزح ويراعي شعائر الزهد والتقشف في جميع اموره الظاهرة فمن فعل ذلك طهر قلبه وباطنه ورآى الله معه اينما توجه وافاض عليه من بحار جوده وحلمه فاذا جرّده عن نعمته وهو على تلك الحالة فله ان يبث اليه الشكوى ويرجو وجهه الكريم في ايفاء ما وعده به وازالة البؤس عنه فيقبل الله شكواه ويحقق رجاءه ويحفظه بقدرته كما حفظ الانبياء السالفين وينبغي لنا ان نحافظ ونحذر كل الحذر حتى لا نستوجب سخطه بذنوبنا وسيء اعمالنا وظلمنا لانفسنا الا ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس على حد سواء فيستوى عنده الغنيّ والفقير والخطير والحقير فليرجع الناس الى تلك الحالة التي هم عليها من اصل الفطرة ولتكن جميع الاموال والخيرات الموجودة في الكائنات مشتركة بينهم على سبيل الشيوع لا يختص بها انسان دون آخر وليعيشوا اخوانا مع بعضهم حتى لا يكون فيهم اعلا وادنى انتهى كلامه)

ثم ان هذا الكلام وان كان من بعض الوجوه من قبيل الهذيان الا انه يلايم الطباع البشرية ولذا كان له موقع عظيم في قلوبهم واثر في عقولهم كل التأثير حتى انهم لم يصمموا على مجرد قمع الاشراف وخفض شوكتهم بل رأوا ذلك امرا واهيا لا يستحق ان يهتموا به فصمموا على ازالة درجات التفاوت في الجمعية حتى يكون الناس جميعا على حد سواء وان يبطلوا حق التملك على العقارات والاراضي حتى يعود الناس الى ما كانوا عليه من التساوي من اصل الفطرة وتكون الاراضي مشتركة بينهم على وجه الشيوع لا يختص احد بها دون آخر بل

سنة ١٥٢٦

كل انسان يستخرج منها ما يحتاج اليه من اسباب المعيشة وافهمهم موفسير المتقدم ان الله سبحانه وتعالى يريد منهم ذلك حيث رآى فى المنام انه جل وعلا وعده بالنجاح والظفر فعند ذلك زاد تصميم الفلاحين على مقصدهم وابوا الا تتميمه وتنجيزه وكان هنالك بون بعيد بين حميتهم وحمية الفلاحين الذين عصوا فى بلاد اخرى من الامبراطورية الالمانية حيث كانت حميتهم ناشئة عن تولع دينى فعزلوا القضاة والحكام فى سائر المدائن التى تغلبوا عليها واستولوا على اراضى الاشراف وجبروا من وقع فى ايديهم من هؤلاء الاشراف والملتزمين على ان يلبسوا ملابس الفلاحين ويتنازلوا عن جميع خصوصياتهم ومزاياهم والقابهم ويكتفوا من الالقاب بما كان يقال اذ ذاك لبقية الاهالى فكنت ترى من كل جهة افواجا من الناس يبادرون الى الدخول فى هذا القتال الا ان مونسير الذى كان كاهنهم وقائد كتائبهم لم يكن مستكملا للشروط اللازمة لمن حقه القيام بقيادة العساكر والرياسة عليهم نعم انه كان جامعا لضلالات اهل البدع وخزعبلاتهم لكنه لم يكن موصوفا بشجاعتهم وثبات قلوبهم وعسر عليهم ان يفهموه انه لابد من البروز الى الاعداء ومحاربتهم فلم يزل فى تردد واهمال حتى احاطت به فرقة من الخيالة يقودها الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة والامير دوق برونسويك مع ان عساكره كانوا ثمانية آلاف ولكن حيث كان هؤلاء الامراء الثلاثة لا يهون عليهم سفك دماء رعاياهم لكونهم لم يخرجوا عن الطاعة من تلقاء انفسهم بل اغراهم على ذلك رجل لا عقل له بعثوا اليهم احد البيكزادات يعرض عليهم انهم ان القوا السلاح وقبضوا على من كان سببا فى الفتنة عفى عنهم فلما عرض عليهم ذلك ووقف عليه مونسير فزع كل الفزع واخذ يعظهم مع الحماسة التى هى عادته فى الوعظ ان لا يصغوا الى قول هؤلاء الظلمة الجبارين وان لا يحجموا عن شئ اراده الله وبه تكون نجاة الملة النصرانية وتثبت حريتها

مطلب انهزام الفلاحين

ولكن خوف هؤلاء الفلاحين من الاخطار التى كانت قريبة الوقوع بهم أثر فيهم اكثر من قارع وعظ مونسير وتصحيح بيانه فبينما كانوا يترددون

في هذا

في هذا المشروع ولا يستطيعون الاقدام عليه اذ سطع في السماء قوس من النور كان قد رسم الفلاحون المذكورون صورته على بيارقهم فاعاد ذلك مونسير على احياء قلوبهم حيث رفع يديه ورأسه حالا الى السماء قائلا باعلى صوته هاهي العلامة القاطعة التي اظهرها الله لنا كي نطمئن ونتحقق انه خصنا بالنصر على اعدآئنا وانهم هم المغلوبون الاشقياء فعند ذلك صاح الفلاحون فرحا وسرورا حتى كأن النصر ثبت لهم لا محالة وقتلوا الامير الذي أتى اليهم بالعفو من طرف الامرآء وطلبوا التوجه الى الاعدآء فغضب الامرآء والاشراف من ذلك حيث انه مخالف لقوانين الحرب ورسومه وبعد أن اخبروهم بانهم قادمون عليهم ساروا والتقائهم ولكن لم يظهر الفلاحون في هذا الحرب من الشجاعة والحمية ما كان يظن بهم حيث لم يمكنهم لعدم معرفتهم بالعسكرية ان يقاوموا عساكر الامرآء والاشراف الذين هم متعودون على الحروب ولهم في العسكرية باع طويل ودراية عظيمة فقتل منهم في ميدان الحرب اكثر من خمسة آلاف وفر الباقي وتشتت شمل جيش الفلاحين وهرب رئيسهم مونسير امامهم وقبض عليه في اليوم الثاني من الواقعة وحكم عليه بالقتل فقتل وهو يبدي من امور الجبن ما دنسه واورثه الخزي والعار وبعد موته سكن الفلاحون وانقطعت الفتن التي كانت بها بلاد المانيا في فزع عظيم وانقلاب ورعب واضطراب غير ان ما نشره مونسير بين الناس من الاوهام الباطلة لم يزل باقيا على حاله حتى نشأ عنه فيما بعد امور اكبر واشهر من هذه الامور السابقة

سنة ١٥٢٦

١٥ من شهر ادار

مطلب حزم لوتير وحذقه

وفي اثناء هذه الفتن كان لوتير يسلك في اموره مسلك الحزم والحذق فكان يشق عليه حصول تلك الفتن التي هي مصائب للنصارى الذين كان يعتبرهم كعائلة واحدة وهو ابوها فاخذ يدبر ما يكون به اصلاح حال الفريقين فبين للاشراف والامرآء ان ظلمهم هو الداعي لقيام الفلاحين وبين للفلاحين انهم قد اخطأوا في قيامهم وخروجهم عن الطاعة وذلك انه كتب الى الاشراف يقسم عليهم بالله ان يعاملوا رعاياهم بما تقتضيه المروءة والشفقة ولين الجانب

وان يتركوا مظالمهم المعتادة وكتب الى الفلاحين يعظهم ان يصبروا القضاء الله سنة ١٥٢٦
تعالى ولا يضجروا مما ابتلاهم به وان يحملوا المشاق التي هم بها تحمل
الصابرين وانهم ان بحثوا عما يكون به خلاصهم وانقاذ انفسهم من هذه
المشاق فليكن ذلك بمقتضى القوانين والاحكام ولا يعدلون عن سنن
الشريعة

وفي تلك السنة تزوج لوتير بامراة عابدة راهبة يقال لها كاترينة بورية
وهي من عائلة عريقة في الحسب والنسب كانت رفضت الرهبانية وفرت من
الدير وقد حصل التوقف في اقرار هذا الزواج فكان اعداء لوتير يعدون
هذا النكاح من قبيل الزنا والفواحش المنابذة للدين والشريعة وكان احبابه
واحزابه يرون انه لا يليق منه ذلك في زمن كانت مصائب وطنه فيه شتى فادرك
لوتير ان هذا النكاح قد اغضب الناس الا انه لما كانت عادته التحمل والصبر
صبر على لوم احزابه وقدح اعدائه

هذا وقد مات ايضا في تلك السنة الامير فريدريق منتخب سكس الذي
كان يدافع عن مذهب لوتير ويحمي حماه الا انه خلفه اخوه الامير حنا
وكان ذا مهارة وجسارة فتظاهر بحماية مذهب لوتير واخذ يعضده بالدليل
والقوة نعم لم يكن في المعارف مثل اخيه الا انه كان اعظم منه جسارة
وبأسا

٥ من شهر ايار وقد حصل ايضا ببلاد المانيا في اثناء ذلك الزمن حادثة عظيمة جديرة
بالبحث عن اسبابها واصولها وحاصلها انه بينما كانت عقول الافرنج
في اضطراب مدة القرن الثاني عشر والثالث عشر بسبب تولعهم بالحروب
الصليبية اذ ترتبت عدة طوائف دينية شوالرية كان الغرض من ترتيبها حماية
دين النصرانية من الاسلام وكان من اشهر هذه الطوائف الطائفة
التوتونيقية التي ترتبت في بلاد المانيا وكان رجال تلك الطائفة
قد امتازوا كل الامتياز في جميع مشروعاتهم وغزواتهم في اخذ ارض القدس
فلما طردوا فيما بعد من الاراضي التي كانت لهم ببلاد المشرق جبروا على

سنه ١٥٢٦ م

مطلب
اخذ اقليم البروسيا من الطائفة التوتونيقية

العود الى اوطانهم لكنهم لشجاعتهم وحميتهم انفت نفوسهم ان يمكثوا زمنا طويلا بدون غزوات وحروب فتعلقوا بامور واهية غير مقبولة وتغلبوا على اقليم البروسيا وكان اهله الى ذلك الوقت جاهلية لم يدخلوا فى النصرانية فبعد أن استولوا عليه بتمامه فى اثناء القرن الثالث عشر مكث بايديهم عدة سنوات بوصف كونه التزاما تابعا لتاج بولونيا وهى بلاد له وفى اثناء تلك المدة حصلت منازعات شديدة بين رؤساء الطائفة المذكورة وملوك له حيث كان الرؤساء يطلبون الاستقلال وملوك له يمانعون عن حقوقهم ويحافظون على ابقاء اقليم البروسيا تابعا لهم وكان من جملة هؤلاء الرؤساء الامير ألبرطه وهو امير من عائلة برندبورغ جعل رئيسا على تلك الطائفة سنة ١٥١١ وكان له مدخل عظيم فى هذه المنازعات حتى حصل حرب طويل بينه وبين ملك له المسمى سجسموند الا ان هذا الامير كان على مذهب لوتير فتلاشت رغبته فى تحصيل مصلحة طائفته شيأ فشيأ فلما وقعت الفتن فى الامبراطورية وغاب عنها الامبراطور انتهز هذا الامير تلك الفرصة وعقد مشارطة مع الملك سجسموند ولم يراع فيها الا مصلحة نفسه وبموجب هذه المشارطة اتفق على أن ما كان للطائفة التوتونيقية من اقليم البروسيا يصير دوقية وراثية ويعطى للامير ألبرطة بشرط ان يكون على تبعية ملوك له وبعد عقد هذه المشارطة امر ألبرطة اهل اقليمه كافة ان يتمسكوا بالدين الجديد ويتبعوا مذهب لوتير فتزوج باميرة من بلاد دانيمارقة فتشكى اهل الطائفة التوتونيقية من افعاله المنكرة وخيانته المنفرة حتى انه نفى من الامبراطورية الالمانية لكن لم يزل الاقليم المتقدم بيده حتى انتقل بالوراثة الى ذريته ثم انتقل فيما بعد الى فرع مخصوص من عائلته يقال له الفرع الانتخابى وخرج هذا الفرع عن طاعة ملوك له وصار مستقلا بنفسه غير تابع لتلك المملكة وحكم امرآء عائلة برندبورغ اقليم البروسيا بوصف كونهم ملوكا مستقلين وصاروا من اعظم امرآء المانيا بل وعدوا من اكبر ملوك بلاد الافرنج

سنة ١٥٢٦

مطلب
الاحتراسات التى اتخذها ملك فرنسا حين رجوعه الى مملكته

ولما رجع الملك فرنسيس الى مملكته صار مطمح نظر ملوك الافرنج والتفتوا الى حركاته واطواره كى يعلموا ماسيفعله فيما بعد فلم يمكثوا على ذلك زمنا طويلا حتى عرفوا اما كان يضمره وذلك انه بمجرد وصوله الى مدينة بايونة كتب الى هنرى ملك انكلترة يشكره على صنيعه معه واعانته له فى مدة سجنه واعترف بان له الفضل والمنة عليه فى انقاذه من الاسر وفى اليوم الثانى من وصوله الى تلك المدينة دخل عليه رسل الايمبراطور وطلبوا منه أن يأمر بما هو لازم فى اجرآء ماتضمنته المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد فاجابهم فرنسيس مع عدم الاكتراث بانه مصمم على تنجيز ماتعهد به حرفا بحرف ولكن فى تلك المشارطة بنود كثيرة لاتتعلق به وحده بل تتعلق ايضا بالمملكة الفرنساوية ولايمكنه انهاء شئ فى شأنها الابعد رضاء مشورة وكلاء المملكة وقال لهم ايضا انه يلزم لذلك مدة طويلة حتى يمكنه ان يحيل على الاهالى ويستميلهم الى قبول الشروط الصعبة التى وقع الاتفاق عليها بينه وبين الايمبراطور وبهذا الجواب ظهر انه مصمم على المحاولة فى اجرآء ماتضمنته المشارطة وظهر ان قصده من ادآء الشكر الى ملك انكلترة انما هو استمالته الى حزبه ليعينه فى الحرب الذى سيحصل بينه وبين الايمبراطور لعدم عمله بمقتضى المشارطة المنعقدة بينهما بمدينة مدريد وزيادة على ذلك كان فرنسيس يكاتب سرا وزرآء اغلب ملوك ايطاليا ويفيدهم انه مصمم على ان لايعمل بمقتضى المشارطة فعلم ارباب السياسة من اهل ذلك العصر انهم لم يخطئوا فيما فهموه من حاله اولا من انه انما رضى بما تضمنته تلك المشارطة لينقذ نفسه من الاسر لاغير وانه مصمم فى الباطن على أن لايوفى بها حيث اتضح لهم انه لايريد تنجيز ماذكر فى المشارطة وانما ينتظر فرصة ينتقم فيها من الايمبراطور فى نظير الامور السيئة التى حملته على اظهار قبول تلك المشارطة هذا ولايخفى ان البابا كليمان وان كان من دأبه التكاسل والخمول الا انه خالف فى تلك المرة عادته حيث اظهر الميل الى حزب الملك فرنسيس وذلك ان هذا الملك لما اظهر انه مصمم على نقض ماحصل الاتفاق عليه بينه وبين الايمبراطور قوى قلب البابا

المذكور

المذكور حتى كان لا يخشى للامبراطور بأساً لاسيما وكانت حالة ايطاليا سنة ١٥٢٦
اذذاك لا تسوغ لهذا البابا أن يضيع زمناطويلا في المذاكرة في هذا الخصوص
وذلك ان الامير سفورس كان يحصره عساكر الامبراطور في قلعة ميلان
وحيل بينه وبين الامير موزون الذى كان يقوى قلبه ويرشده الى ما ينبغى فعله
وزيادة على ذلك كان الامير سفورس في كرب شديد حيث لم تبق له وسيلة
في المدافعة فكتب الى البابا واهل البنادقة يخبرهم انه سيسلم عن قريب
ان لم يسعفوه بمدد يستعين به هذا وكان عساكر الامبراطور منذ واقعة باويا
باقين في دوقية ميلان يعيشون من اموال اهلها لانهم كانوا الى ذلك الوقت
لم تصرف لهم ماهياتهم فكانوا يأخذون في كل يوم خمسة آلاف دوقة كما ذكره
المؤلف غيشاردين وكان من المجزوم به ان هؤلاء العساكر بعد تسليم قلعة
ميلان لا يستطيعون الاقامة في الدوقية المذكورة حيث انها افتقرت
بسبب الحرب بحيث صارت لا تفى بمؤنتهم بل ينتقلون الى بلاد البابا وبلاد
البنادقة ويستوطنون بها لانها كانت الى ذلك الوقت ذات ثروة لم تلحقها
مصائب الحروب ومضاره وبناء على ذلك كان بدون اعانة ملك فرانسا لا يمكن
انقاذ الامير سفورس ودوقية ميلان من عساكر الامبراطور ومظالمهم
الشديدة

مطلب العصبة المتحزبة على الامبراطور

فلهذه الاسباب رأى البابا واهل البنادقة والامير دوق ميلان انه لابد
من المعاهدة مع ملك فرانسا وكان هذا الملك ايضا يرغب في المعاهدة
معهم لتقوى شوكته وصولته ويكون له اقتدار على مقاومة عدوه وبناء
على ذلك انعقدت المشارطة بينهم بمدينة كونياقة في اليوم الحادى
والعشرين من شهر ايار ومكثت تلك المشارطة مدة لا يعلمها احد وبنودها
الاصلية هى ان يكره الامبراطور على اطلاق ولدى ملك فرانسا ويأخذ
في فدائهما المبلغ اللازم ويكره ايضا على اعطاء دوقية ميلان للامير
سفورس واتفق المتعاهدون على انه ان أبى الامبراطور قبول هذين الامرين
يوجهون الى دوقية ميلان جيشا قدره خمسة وثلاثون الفا وبعد اخذ هذه

سنة ١٥٢٦

الدوقية وطرد الاسبانيوليين منها بتوجه الجيش المذكور الى الاغارة على مملكة نابلي وسمى ملك انكلترة حامى العصبة وسميت هذه العصبة بالعصبة المقدسة لان البابا كان رئيسها ولاجل استمالة الملك هنرى وربطه مع تلك العصبة باسباب أأكد من ذلك اتحد الرأى على أن يعطى له فى مملكة نابلى اقليم ايراده السنوى ثلاثون الفا من الدوقات ويعطى لوزيره ولسى من الاراضى حصة يكون ايرادها فى السنة عشرة آلاف دوقة

مطلب
حكم البابا ببراءة ذمة الملك فرنسيس من اليمين التى حلفها أن يفعل بمقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد

وبمجرد انعقاد تلك المشارطة ووضع القرار عليها صدر حكم من البابا ببراءة ذمة الملك فرنسيس من اليمين التى حلفها ان يعمل على مقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد ولاشك ان هذا الامر الذى يدعى البابات انه من حقوقهم لكونهم خلفاء المسيح على ملته وعصمتهم عن الخطا مخل باصول الديانة وخلوص الذمة المبنى عليه المعاملات البشرية فلما رآى الناس ان البابا له براءة على ان يحكم بنقض مثل تلك العقود والالزامات التى توجب الاصول المرعية احترامها والعمل بمقتضاها وانه مهما اراد شيا حكم به وان لم يوافق اصول دين النصرانية اعتقدوا لكثرة تلك الاحكام ومافيها من المصلحة للمحكوم له واخذهم اياها قضية مسلمة أن له أن يحلل امورا ترى فى حد ذاتها من قبيل المحظورات ويقر ما هو من حيز المنكرات

مطلب
تأسف الايمبراطور

ولما علم الايمبراطور ان الملك فرنسيس مصمم على المحاولة فى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد لحقه من ذلك غم شديد وتواردت على فكره امور شتى وتأسف على كونه اساء معاملته مدة اسره واستوجب لنفسه اللوم والتشنيع لاسيما وقد ظهر طمعه بموجب المداولات التى حصلت بينه وبين فرنسيس حين كان فى قبضته فعلم ان سائر دواوين ممالك اوروبا تكثر من توبيخه واللوم عليه ولم يعد عليه من ذلك ثمرة حتى يعذره اهل السياسة فى ذلك العصر ويروا ان تشديده كان لقصد مصلحة او ثمرة تعود عليه فيقلوا من اللوم الا انه كان يرى ان فرنسيس قد خلص من يديه ولم يظفر بشئ من الفوائد التى قصدها من اطلاقه وتخلية سبيله فندم كل الندم بحيث اعتمد على قول هذا

الملك وخلى سبيله مع ان عقلاء وزرآئه اشاروا عليه بخلاف ذلك وعلم انه قد اخطأ فى تدبيره حيث اطلقه لقصد منع عصبة تحدث فلم يجد ما دبره نفعا بل رأى ان العصبة لابد من وقوعها وان فرنسيس يكون مشيرها وهو عدوه الاكبر فكانما خلى سبيله ليقوى به عضد المتعصبين وبالجملة فكان الايمبراطور فى ندم عظيم على ما فرط منه وفى قلق وحيرة كبيرة مما سيقع الا انه كان من دأبه العزم والحزم وعدم العدول عما صمم عليه فرأى انه ان عدل عن شئ مما تضمنته مشارطة مدريد فكأنه اظهر العجز والخوف وهذا لا يليق بمقامه فصمم على التشديد فى اجرآء مشارطة مدريد وعدم التساهل فى شئ منها او قصد الامهال لا الاهمال ولو حصل ما حصل خصوصا رد دوقية بورغونيا اليه فانه لا يرجع عن ذلك ولو اعطى خزائن الدنيا وكنوزها

مطلب
طلب الايمبراطور من الملك فرنسيس أن يعمل بمقتضى المشارطة

ولما صمم على ذلك بعث الامير لانواى والامير الرسون رسولين الى مملكة فرانسا يطلبان من فرنسيس ان يعمل بمقتضى ما تضمنته المشارطة حيث ان الكذب والاخلاف لا يليق بالملوك او يعود الى مدينة مدريد ليقيم بها اسيرا كما كان حسبما التزم به فلم يجبهما الملك فرنسيس بشئ وانما جمع وكلاء اقليم بورغونيا امامه بحضرتهما وسألهم فى هذا المعنى فأجابوه مع الادب والوقار انه قد تعدى طوره من حيث كونه ملك فرانسا اذ وعد الايمبراطور أن يرد اليه هذا الاقليم مع انه حالف اهله قبل ذلك ان يبقيه معه على ما هو عليه وان لا يفرط فيه ابدا فشكرهم الملك فرنسيس على رغبتهم فى حفظ حقوقه والتمس منهم بدون تشديد أن يراعوا الشروط التى اتفق عليها مع الايمبراطور وبموجبها يجب عليه ان يسلم اليه اقليم بورغونيا فعند ذلك اظهروا انهم لا يطيعون له امرا مخالفا لاصول المملكة وقوانينها وانه اذا اجبر الى تسليم اقليمهم للايمبراطور يدافعون عن وطنهم بانفسهم او يهلكون ولا يدخلون تحت حكم ملك اجنبى فلما سمع ذلك منهم التفت الى رسولى الايمبراطور

مطلب
جواب فرنسيس للرسولين المبعوثين من طرف الايمبراطور

وقال لهما انى لا يمكننى التسليم بوجه من الوجوه فى اقليم بورغونيا وحيث كان كذلك فاقوم بدفع مليونين من الريالات للايمبراطور ولكن لما ادرك رسولا

سنة ١٥٢٦

الايمبراطور ان ما قاله الوكلاء متواطئون عليه مع الملك قبل ذلك افادوه ان سيدهما اعنى الايمبراطور مصمم على ان لا يتساهل فى شئ قل اوجل مما اشتملت عليه المشارطة وخرجا لوقتهما وقبل سفرهما من مملكة فرانسا انتشرت الاخبار بالعصبة المقدسة المتحزبة على الايمبراطور

مطلب
تأهب الايمبراطور للحرب

ولما وقف الايمبراطور على خبر انشاء تلك العصبة استعد بما فى وسعه وشنع على الملك فرنسيس قائلا انه ملك كذاب لا عرض له وتظلم ايضا من البابا كليمان وسعى فى ترغيبه والبعد عن تلك العصبة فأبى فرماه الايمبراطور بالخيانة والغدر والطمع الفاحش الذى لا يليق بمقامه من حيث كونه ابا النصارى كافة ولم يقتصر على تهديده وتخويفه باظهار الحقد له والتصميم على الانتقام منه بل امر بعقد مشورة قسيسية عامة لهذا الغرض فاودع فى قلب البابا كليمان الرعب والخوف حيث ان بابات رومة كانوا يخشون بأس هذه المشاور القسيسية ومع ذلك فقد رأى الايمبراطور ان التهديد واللوم لا يكفيان فى مثل هذه الصورة ولا يحميانه من العصبة الكبيرة المتحزبة عليه فابدى امرا تعجب منه الخاص والعام حيث ارسل عساكر جديدة الى بلاد ايطاليا وبعث من الاموال مبالغ جسيمة واما المتعاهدون اى ارباب العصبة فكانت همتهم

مطلب
ضعف همة المتعاهدين

فى هذا الحرب دون ما كان يترآى من حميتهم حين تعاهدوا مع بعضهم ودخلوا فى العصبة المقدسة فكان يظن ان الملك فرنسيس يبذل غاية جهده ليتأسى به بقية ارباب العصبة لان هزيمته فى واقعة پاويا كانت قد حطت بمقامه وازرت بشرفه فلابد وان يبذل جهده فيما به يرقى الى مقامه الاول بين ملوك الافرنج لاسيما وكان الايمبراطور شرلكان قد اساء معاملته وفعل معه امورا كثيرة تنفر منها النفوس فكان يظن ان ذلك يحمله على انه ينتهز من تلك العصبة فرصة عظيمة وينتقم من عدوه حق الانتقام وزيادة على تلك الاسباب كان الملك فرنسيس ذا حدة جبلية وحمية طبيعية فظن الناس ان هذا الحرب يكون افظع من الحروب التى حصلت من قبل بينه وبين الايمبراطور ولكن لم يتحقق ظنهم لان الشدائد والكروب التى كابدها الملك

فرنسيس كانت قد انطبعت فى نفسه وتمكنت منه حتى كان لا يأمن من الدهر سنة ١٥٤٦
وصروفه بل ولا يأمن من نفسه على نفسه فكان يأبى أن يرغب الا فى الراحة
والصلح وترك اهوال الحرب وشدائده وكان غاية مرامه أن يدفع الى الامبراطور
مبلغا من الدراهم ليطلق له ولديه ويقطع النظر عن اقليم بورغونيا ولو سلم له
الامبراطور فى هذين الامرين لما التفت الى اعانة الامير سفورس ولا الى اثبات
حرية بلاد ايطاليا حتى انه لم يكن قصده من تلك العصبة الا ايقاع الخوف
والرعب فى قلب الامبراطور فيرضى بما يعرضه عليه فيما بعد من الشروط المقبولة
الصحيحة لاسيما وكان اهل العصبة ممن يرغب فى مصالح نفسه ولا يفى بوعده فخشى
انه اذا ارسل جيشا من عنده لانقاذ دوقية ميلان وهزم جيشه عساكر
الامبراطور وطردهم من هذه الدوقية يتخلى عنه اهل العصبة ويصير فريدا
فلا يعود عليه من سعيه الثمرة المقصودة له ولنرجع الى حصار قلعة ميلان
فنقول ان عساكر الامبراطور شددوا علما فى الحصار كل التشديد حتى لم يبق
للامير سفورس حيلة ولا وسيلة وكان اهل البنادقة والبابا يظنون ان الملك
فرنسيس يعينهم اتم الاعانة فوجهوا عساكرهم الى ميلان ليعينوا الامير
سفورس وكان اهل ميلان يحبون سفورس لانه من عائلتهم الحاكمة
ويبغضون عساكر الامبراطور لما فعلوه معهم من الامور الفاحشة والمظالم
التى تنفر النفوس فصمموا على اعانة المتعصبين فى مشروعاتهم الا ان جنرالهم
الدوق اوربين كان يبغض عائلة سيديسيس من قديم الزمان فابت نفسه
ان يفعل شيأ يكون به ازدياد شوكة البابا كليمان او يثبت له به الفخار لان هذا
البابا كان من العائلة المذكورة فكم لاحت فرص واوقات يسهل بها شن الغارة
على عساكر الامبراطور والظفر بهم فتغافل عنها هذا الجنرال قصدا لانه كان
من دأبه التردد والتراخى
وبسبب هذا التراخى والامهال امكن للامير الدوق دى بوربون أن يجهز ٢٤ من شهر تموز
عساكر جديدة لتعينه وحصل المبالغ التى كان يحتاج اليها وبعد ذلك صف
جيشه وشدد فى الحصار حتى اضطر الامير سفورس الى تسليم القلعة وفر هاربا

سنة ١٥٢٦

الى مدينة لودية وكانت بايدى ارباب العصبة وبعد هروبه بقى الدوق دى بوربون حاكما فى دوقية ميلان لان الامبراطور كان وعده بتوليته عليها كما تقدم

مطلب حيرة اهالى بلاد ايطاليا

فعند ذلك ادرك اهل ايطاليا ان معاهدة الملك فرنسيس معهم ليست الا من باب المخادعة ورأوا أنه قد تلاعب بعقولهم وان كانوا مشهورين اذ ذاك بالحزم فى الامور السياسية بل وكانوا يظنون انهم مختصون بذلك لا يشركهم فيه احد وذلك ان الملك فرنسيس كان الى ذلك الوقت قد حملهم اثقال الحرب واناطهم بازماته وشدائده واغتنم فرصة ما بذلوه من مجهوداتهم حيث عرض على ديوان مدريد أن يطلق له ولديه نظير امنه أن الامبراطور لرعبه وخوفه من العصبة يصطلح معه على شروط غير الشروط المذكورة فى مشارطة مدريد المتقدم ذكرها فشنع البابا واهل البنادقة على الملك فرنسيس فى نظير هذه الامور ووجهوا اليه اللوم والتوبيخ عساه يتجنب الاهمال ويبادر باعانتهم على عدوهم فلما لم ينفع معه تحريضهم ولا توبيخهم فترت همتهم بالتدريج حتى صاروا امثاله وتأسف البابا كليمان كل التأسف واشهد على نفسه انه قليل الحزم والادارة وعاد الى ما فطر عليه من التردد والخمول

مطلب الاحتراسات التى صدرت من طرف الامبراطور

واما الامبراطور فانه لما كانت اموره كلها صادرة عن نفسه كانت احكم واتقن من امور اعدائه وكانت تزداد احكاما واتقانا ولو كانت ايراداته اذ ذاك تكفيه حق الكفاية الا انه استعان فى ذلك بالدسائس والسياسة وذلك ان العائلة الكولونية التى هى اقوى عشائر رومة واعظمهم شوكة وصولة كانت من حزب الجبليين اى الحزب الامبراطورى فى مدة المشاجرات الطويلة التى وقعت بين البابات والاباطرة ومكثت نيرانها مضطرمة بين الفريقين عدة قرون كاملة ونشأ عنها تعكير بلاد ايطاليا والامبراطورية الالمانية وكانت الاسباب التى اوجبت هذا الشقاق قد زالت بالكلية ولم يبق لها اثر الا ان العائلة الكولونية كانت لم تزل تميل الى الامبراطور وترغب فى رواج مصالحه لانها كانت ترى انها مادامت تحت حماية الامبراطور تكون آمنة على اراضيها وعن اباها الاسيا

وكان كبير هذه العائلة اذ ذاك هو الكردينال بومبه كولون وكان رجلا سنة ١٥٢٦
طماعا ماهرا معروفا بايقاع الفتن والدسائس وكان من قبل ذلك العهد عدوا
مبينا للبابا كليمان وذلك انه كان يطمع في منصب البابا وتحبب الى الامبراطور
رجاء انه يعينه على نيل هذا المنصب ويؤثره على كليمان فلما خاب امله بسبب
عدم نجاحه الى كليمان ودسائسه حقد عليه من ذلك الوقت وان كان لم يظهر
ذلك حتى انه كان من جملة من انحط رأيهم على تولية كليمان بل لاجل اخفاء
ما في ضميره بالكلية اخذ له وظيفة عند البابا كليمان المذكور واستخدم
في ديوانه لكنه كان في الباطن يود فرصة تعينه على الانتقام منه * وكان
الامبراطور قد ارسل الامير هوغس مونكاد الى رومة بوظيفة الجي وكان
هذا الامير يعرف ما بقلب بومبه كولون من البغضة للبابا كليمان فلما
ارسل البابا عساكره الى بلاد لنبردية وبقيت رومة بدون خفر اخذ
الالجي المذكور يفيد الامير بومبه كولون ان هذا الوقت يعينه على الانتقام
لنفسه من البابا وانه بذلك تزداد محبة الامبراطور اياه فقبل منه بومبه ذلك
وصمم على ان يوقع فتنة تفضي بالبابا الى الانحطاط غير ان هذا البابا لوسوسته
كان لا يغفل ابدا عن حركات اعدائه واطوارهم فادرك قصدهما من مبدء الامر
واحضر عنده طائفة كبيرة من العساكر فخاب امل الامير بومبه كولون
وفسد تدبيره الا ان الالجي هوغس مونكاد لحزمه وسياسته عرف كيف
يشاغل البابا ويستولي على عقله بمواعيده المزخرفة واظهار الصداقة له حتى انه
ازال ما بقلبه من التهمة وسوء الظن ومنعه أن يحترس بالاحتراسات اللازمة
لأمنه وبذلك امكن للامير بومبه كولون مع ثلاثة آلاف رجل أن يتغلب على ٢٩ من شهر ايلول
احد ابواب رومة وكان البابا اذ ذاك في أمن واطمئنان ويرى انه لا تصعب
عليه مقاومة هذا العدو فاكسبه ذلك من المعزة ما لا مزيد عليه حيث كان
ذا قوة عظيمة وشوكة كبيرة وكان مشهورا بالسياسة والكياسة وكان الرومانيون
لا يخشون أذى من عساكر بومبه كولون فتركوهم يدخلون رومة
ولم يتعرضوا لمنعهم فلم تمض مدة يسيرة الا وتشتت خفر البابا كليمان بل فر هو

سنة ١٥٢٦

ايضا لما داخله من الرعب ورأى ان كل الناس قد تخلوا عنه وذهب الى قلعة سنتانج وهو يتحسر على عدم احتراسه وعلى اعتماده على ما لا يعتمد عليه فاقام الاعداء حصارها فورا ووقع النهب والسلب فى قصر واتيكان وكنيسة مارى بطرس وبيوت وزراء البابا واتباعه واما بقية المدينة فلم يلحقها ادنى ضرر ولما لم يكن عنده ما يقدر به على المدافعة عن نفسه بل ولا ما يتقوت به اضطر الى التماس التسليم بعد مدة قليلة ودخل الايلجى هوغس مونكاد قلعة سنتانج وهو فى ابهة الغالبين والزمه بشروط صعبة فلم يمكنه ردها ولا مناقضتها وكان اعظم هذه الشروط ان البابا يعفو عن العائلة الكولونية واحزابها وينظر اليها بعين الرضا والاعتبار وان يفصل بدون تراخ عن جيش المتعاهدين المتعصبين على الايمبراطور جميع العساكر الذين كان ارسلهم من طرفه

مطلب
تغلب حزب العائلة الكولونية على مدينة رومة

وكان قصد العائلة الكولونية أن تعزل البابا وتولى بدله على الكنيسة الرومانية قريبها پومپه كولون فتظلمت من هذه المشارطة حيث تجعلهم فى قبضة البابا يتصرف فيهم كيف يشاء لكن كان قصد الايلجى هوغس مونكاد مجرد مصلحة سيده الايمبراطور فلم يلتفت الى شكوى تلك العائلة لانه بلغ مقصوده من ايقاع الفشل والشقاق بين المتعاهدين وتشتيت قواهم

مطلب
ازدياد جيش الايمبراطور

وبينما كان جيش المتعاهدين يضعف ويقل عدده فى ذلك الوقت بسبب انفصال عساكر البابا عنه اذا أتى الى جيش الايمبراطور طائفتان عظيمتان احداهما طائفة تبلغ ستة آلاف رجل أتت من اسبانيا وكان عليها رئيسان وهما الامير لانواى والامير ألرسون والطائفة الاخرى اتت من بلاد المانيا وكان رئيسها جرجى فروندسبرغ وهو امير المانى شهد حروب ايطاليا وكان له فيها شهرة عظيمة وصار له حظوة ونفوذ كلمة بين ابناء وطنه حتى انهم فى هذا الوقت كانوا يأتون اليه افواجا ويدخلون تحت الويته لينقذوا انفسهم من جور الكنيسة والمظالم الدينية فاجتمع عنده من العساكر اربعة عشر الفا الكل واحد منهم ايكو (ريال) لا غير وانضم اليهم الفان من الخيالة بجعلهم

الامير

سنة ١٥٢٦م

الامير فرديننده من بلاد اوستروسيا فكثرت عساكر الامبراطور ولكنه لم يكن عنده مايكفيهم من المصاريف وذلك ان ايراداته المعتادة كانت قد نفدت وكانت التجارة اذذاك لم تتسع دائرتها فلم تكن كلمة الملوك نافذة كل النفوذ بالنسبة للاقتراض والاخذ والعطا ونحو ذلك وطالما تحيل الامبراطور على مشورة القورطس بمملكة قسطيلة واحدث بعض تغييرات فى قوانين هذه المشورة لعله يحصل بذلك مايطلبه من الاهالى فلم يجد ذلك نفعا فان المشورة المذكورة أبت أن تقره على اخذ اموال غير المعتادة فمن ثم كان كلما كثر عدد جيش الامبراطور ازدادت حيرة الجنرالات والرؤساء لاسيما الدوق دى بوربون فانه كان فى خطب عظيم لهذا السبب ولم يبق منه الا بعد أن بذل غاية جهده وجميع مافى وسعه وذلك ان العساكر الاسبانيولية التى كانت فى دوقية ميلان كان لها عدة اشهر لم تأخذ ماهيتها فلما دخل الامير فروندسبرغ ومعه عساكره الالمانية المتقدمة وكانوا على غاية من الاحتياج لايملكون شيأ طلب عساكر اسبانيا أن تدفع لهم ماهياتهم وطلب العساكر الالمانية المذكورون أن يصرف لهم ماوعدوا باعطائه عند دخولهم دوقية ميلان وصار كل من العساكر الاسبانيولية والالمانية يشدد فى الطلب كل التشديد فلما رأى الدوق دى بوربون انه لايمكنه تسكين غضبهم اضطر الى ارتكاب امور ظلمية تخالف طبعه من الحلم والمروءة وذلك انه قبض على اكابر دوقية ميلان وهددهم واذاقهم العذاب الاليم حتى حصل منهم مبلغا جسيما واخذ من الكنائس جميع ماكانت مزينة به من انواع المعادن الثمينة ومع ذلك فلم تكف هذه المبالغ الا انه لما وزعها على العساكر امكنه أن يسكن غضبهم بتحيله وخداعه وان كانوا لم يستوفوا جميع استحقاقهم

مطلب نفاد اموال الامبراطور

ولما كان الدوق دى بوربون لم يزل محتاجا كل الاحتياج اطلق الامير مورون من السجن وكان وضع فيه منذ ظهور الفتنة التى كان يدبرها فاخذ منه عشرين الف من الدوقات وخلى سبيله مع ان القضاة الاسبانيوليين الذين انيطوا بتحقيق دعواه كانوا قد حكموا بقتله فانظر كيف كان عقل هذا الامير وتحيله

مطلب اطلاق الدوق دى بربون للامير مورون

حيث كان يستميل اليه كل من دنا منه حتى انه انتقل من وصف كونه اسيراً ذليلاً الى وصف كونه محبا صادقا للدوق دى بوربون حتى كان يشاوره فى اهم المصالح ولا شك انه هو الذى بحيله وخداعه افهم هذا الدوق ان الايمبراطور لم يقصد أن يجعله حاكما على دوقية ميلان وان الامير ليوه وغيره من الامرآء الاسبانيوليين لم يكن ارسالهم من طرف الايمبراطور عن طيب نفس وصدق نية لقصد اعانته على تميم مقصده وهو استيلاؤه على دوقية ميلان وانما ارسلهم عيونا يتجسسون عليه ويلاحظونه فى حركاته وافعاله وكان مورون المذكور فى سن الثمانين ومع ذلك كان جسورا كأنه فى عنفوان شبابه فلا مانع أن يكون هو السبب فى تحريض الدوق دى بوربون على المشروع العظيم الذى هم بتنجيزه بعد ذلك بمدة قليلة ولم يكن يتوقع من مثله

ثم ان العساكر الموجودين فى ميلان لم يزالوا يشددون فى طلب استحقاقهم وزيادة على ذلك كان لا يتيسر تحصيل ما يقوم بمصاريفهم ومؤنتهم فلزم البحث عن واسطة يكون بها الخلاص من تلك الورطة وكان مالهم من الاستحقاق يزداد كل يوم ومع ذلك كان الايمبراطور لا يرسل الى رؤسائهم شيأ من الدراهم فبذل هؤلاء الرؤساء غاية جهدهم فلم يمكنهم تحصيل شئ من البلاد التى كانوا بها لانها كانت قد خربت ونفدت اموالها فكان لا ينقذهم من هذه الشدة الا احد شيئين اما اطلاق الجيش او السير به الى بلاد العدو ليتقوت منها وكان اقرب البلاد اليهم البنادقة الا ان البنادقيين لما كانت عادتهم التبصر فى العواقب حصنوا بلادهم حتى صارت آمنة من هجوم العدو فبذلك تعين تسيير العساكر الايمبراطورية لتهجم على بلاد البابا او بلاد فلورنسة وكان البابا كليمان بافعاله السابقة قد استوجب أن ينتقم منه الايمبراطور انتقاما شديدا خصوصا وكان البابا بمجرد دخول عساكره فى رومة بعد قيام العائلة الكولونية لم يراع المشاورطة المنعقدة بينه وبين الايلجى هوغس مونكاد فعزل الكردينال پومپه كولون ونفى بقية العائلة الكولونية وتغلب على جميع قلاع تلك العائلة وحصونها وخرب اراضيها وديارها وبعد ذلك

مطلب
تفكر الدوق دي بوربون فيما ينبغي له فعله

سنة ١٥٢٦

وجه عساكره الى مملكة نابلى وكانت تعينه الدونمة الفرنساوية فتغلب منها على بعض بلاد مع السهولة وكانت جنرالات الامبراطور لعدم الاموال لا يمكنها أن تقاوم حق المقاومة

سنة ١٥٢٧

مطلب توجه الدوق دي بوربون للهجوم على اراضي البابا

فلما صدر ذلك عن البابا اتخذه الدوق دي بوربون حجة بنى عليها مقاصده التى حمله عليها الضرورة وكانت الاحوال اذ ذاك لا تساعده فاستدلوا على انه كان فى يأس عظيم وانه صاحب معارف غزيرة حتى امكنه أن يظهر على تلك الموانع الكثيرة الصعبة وذلك انه بعد أن سلم حكومة ميلان الى الامير ليوه توجه فى شدة القر والبرد ومعه جيش يبلغ خمسة وعشرين الفا مختلفين فى الملل والاخلاق واللغات ولم يكن معه مال ولا ذخائر ولا اسلحة ولا مهمات وبالجملة فلم يكن معه شيء من الامور اللازمة لهذا الجيش الكبير بل ولا لسرية صغيرة من العساكر ولا يخفى ان البلاد التى كان متوجها اليها مشحونة بالجبال والانهار ومسالكها غير مطروقة وزيادة على ذلك كان جيش العدو اكثر عددا من جيشه بحيث يمكنه أن يلاحظه فى جميع حركاته ويغتنم كل فرصة لاحتياله ولكن لقيام شغله كان عساكره قد سئموا من الشدائد التى حلت بهم فكان غاية مرامهم معرفة عاقبتهم او ما تؤول اليه ليخلصوا من العذاب الاليم الذى كانوا به لاسيما وكانوا يطمعون أن يغنموا مغنما عظيما فلم يلتفتوا للمشاق التى كابدوها فى الطريق وساروا مع الدوق دي بوربون منشرحى الصدر وكان قصد هذا الدوق ان يبتدئ بالتغلب على مدينة بليزنسة وينهبها ويعطى اموالها للعساكر لكن تيقظ جنرالات جيش المتعاهدين افسد عليه هذا المقصد فقصد حينئذ التغلب على مدينة بولونيا فلم ينجح ايضا لان هذه المدينة كان بها من المحافظين من يكفى فى حمايتها من جيش لا ذخائر معه ولا اسلحة فلما لم ينجح بوربون فى هذين المقصدين يئس من أن يمكنه التغلب على مدينة من المدائن الكبيرة واستمر على المسير بجيشه ولكن كان قد مكث شهرين كاملين وهو يجد

مطلب عصيان عساكر الدوق دي بوربون

السير حتى تعب العساكر كل التعب من طول السفر وشدة الشتاء وعدم الذخائر وكانوا قد اغتروا قبل ذلك بمواعيد وعدوا بها فلما خاب املهم منها وداخلهم

القنوط واليأس فترت همتهم وسئمت نفوسهم واخذوا يتضجرون ويتظلمون حتى اظهروا العصيان واخذ بعض الضباط فى تسكينهم فقتلوه بل لم يمكن للدوق دى بوربون أن يظهر أمامهم فى شدة غضبهم واضطر الى الفرار والخروج سرا من معسكره لكن بعد ذلك سكن غضبهم بالتدريج وكان لهذا الدوق براعة عظيمة فى ادارة العساكر وتأليف قلوبهم فتحيل عليهم وغرهم بالمواعيد المزخرفة وفعل معهم جميع ما رآه لازما لتشجيعه وتسليتهم على المشاق والكروب التى كانوا بها فكان يمشى على رجليه ويغنى معهم الاشعار التى كانوا ينشدونها ويأتون فيها بمدحه بالشجاعة ويسخرون به من حيث الفاقة والفقر وكانوا اذا امروا بقرية يأذن لهم بنهبها حتى يشرح صدورهم ويقولوا انه مصمم على الوفاء بوعده ولما كان يتحيل عليهم بهذه المثابة نسوا آلامهم ومشاقهم واستمروا على المسير معه ايما توجه وصاروا لا يشكون ابدا

مطلب
تحول البابا وعدم تبصره

ولكن كان الدوق دى بوربون لا يظهر مقاصده حتى ان رومة و فلورنسة لما كانا لا يعلمان الى اين توجهه مكثا فى حيرة عظيمة وكانت حيرة البابا كليمان اعظم من حيرتهما لانه كان يحافظ على ابقاء هاتين المدينتين فى الامن والاطمئنان لما له فى ذلك من المصلحة وحين كانت الاخطار التى كان عرضة لها تستدعى أن يحترس بما فى وسعه كان يضيع الوقت فى مذاكرات لا تجدى نفعا او يصمم على امور ثم يعدل عنها لان قريحته وان كانت تدرك دقائق المشكلات الا انه كان يعجز عن ادراك ما يكون به ازالتها فكان تارة يصمم على بقائه فى زمرة المتعاهدين وبذل وسعه فى الحرب مع الايمبراطور وتارة يصمم على انهاء الحرب بالتى هى احسن حتى حمله الجبن والخوف على عقد مشارطة مع الامير لانواى

مطلب
المشارطة المنعقدة فى ١٥ من شهر ادار بين البابا ونائب الايمبراطور فى مملكة نابلى

كان من جملة بنودها الاصلية ان تعقد هدنة ثمانية اشهر بين عساكر البابا وعساكر الايمبراطور وان البابا يعطى ستين الف ايكو (ريالا) لتصرف على الجيوش الايمبراطورية وان يعفو عن العائلة الكولونية ويرد اليها اراضيها ومناصبها وان يذهب الامير لانواى الى رومة ويمنع الدوق دى بوربون عن الهجوم عليها وعلى مدينة فلورنسة وأنت ترى أن البابا بهذه

سنة ١٥٢٧

المشارطة قد حرم نفسه من اعانة المتعاهدين من غير أن يترتب عليها ثمرة يعتمد عليها في الامن على نفسه ومع ذلك ظن انه قد خلص من جميع الاخطار التي كان عرضة لها فسرح عساكره ما عدا من كان يلزم لخفره وحراسته وكان الماهر غيشاردين يومئذ مع جيش المتعاهدين بوظيفة كونه وكيلا عن البابا فامكنه بعلو منصبه وكثرة معارفه أن يدرك أن البابا في غرور عظيم وتعجب حيث راى البابا آمنا مطمئنا في تلك المرتع ان دأبه الخوف والوسوسة لكن لم يعلم ان ذلك سببا الاعمى البصيرة الذي يقضي به الله على من اراد خسارته وكان ذلك امرا مقضيا

مطلب
عدم التفات دي بوربون الى هذه المشارطة

والظاهر ان الامير لانواي كان مقصده أن يعمل بمقتضى المشارطة المنعقدة بينه وبين البابا وذلك انه بعد أن استمال البابا كليمان وفصله عن حزب المتعاهدين اراد ان الدوق دي بوربون يتوجه بجيشه الى اهل البنادقة لانهم هم الذين اظهروا البغضة للامبراطور اكثر من جميع الامم التي كانت تحاربه اذ ذاك وبعث لاجل هذا الغرض رسلا الى الدوق دي بوربون ليخبره بالهدنة التي عقدها البابا باسم الامبراطور لكن كان لهذا الدوق مآرب اخرى وكان مصمما على مشروعه كل التصميم وكان يخشى أن يظهر للعساكر العدول عن مقصده وزيادة على ذلك كان يبغض البابا بغضا شديدا فلم يسمع قول لانواي واستمر على تخريب دول البابا وعلى السير الى فلورنسة ولما قاربها ازداد رعب البابا كليمان وعظمت حيرته وكبرت مصيبته وطلب من الامير لانواي أن يمنع عنه الدوق دي بوربون فسافر لانواي لمقابلة الجيش لكنه لم يستطع الدنو منه وذلك ان عساكر دي بوربون بمجرد أن بلغهم خبر الهدنة داخلهم الغضب والغيظ وطلبوا انجيز ما وعدوا به حتى كان لا يمكن للدوق دي بوربون أن يسكن غضبهم فرأى اهل رومة انه لا محيص عن هذا الخطب وانه لا ينفعهم احتراس ولا تدبير واما البابا كليمان فانه رجع الى ما كان عليه من الامن والاطمئنان لان الدوق دي بوربون خادعه واظهر له انه لا يريد الا الصلح

مطلب ١
قدوم دي بوربون الى مدينة رومة

ولا يخفى ايضا أن الدوق دي بوربون كان متحيرا في أمره وذلك انه لم ينجح

سنة ٩٢٧ ١٥

في هجومه على بعض المدن وكان قد اراد الهجوم على مدينة فلورنسة فرآها قوية على المقاومة ولما وصل اليها من العساكر مع الدوق اوربان فاضطر الى العدول عن مقصده الى مقصد آخر وصمم على مشروع صعب جعله اهل عصره من قبيل الكفر وذلك انه عزم على اخذ رومة وبيان انه كان هناك عدة اسباب تحمله على ذلك منها اغاظة الامير لانواى حيث كان يريد ابقاء هذه المدينة آمنة مطمئنة بالمشارطة التي عقدها مع البابا ومنها انه كان يرى أن الايمبراطور يحصل له حظ عظيم من اذلال البابا كليمان لكونه هو السبب في العصبة التي تحزبت عليه ومنها انه كان يطمع انه اذا اخذ هذه المدينة واعطى سلبها للعساكر ازداد حبهم فيه وارتباطهم به واعانوه على مقاصده ويحتمل وهو الاقرب انه كان يؤمل انه ان اخذ المدينة المذكورة التي هي اعظم مدائن النصارى امكنه أن يجدد لنفسه مملكة مستقلة وينفصل عن الايمبراطور ويصير ملكا على بلاد نابلي اوغيرها من ممالك ايطاليا

وعلى كل فقد نجز مقصده مع السرعة العجيبة وذلك أن عساكره لما رأوا غنيمتهم نصب اعينهم نسوا ما لحقهم من مشاق الجوع وصاروا لا يشكون من عدم صرف ماهياتهم لهم فلما رآى البابا انهم جاوزوا اقليم طوسكانه وتقدموا جهة رومة علم ان آماله من قبيل الاماني الباطلة واستيقظ من غفلته لكن كان الوقت لا يساعده لضيقه ولو فرض انه كان ثم بابا غيره اعظم منه جسارة وأسرع في انهاء الامور وتتميمها لما امكنه أن يحترس باحتراسات نافعة يدافع بها عن بلاده وبالجملة فقد حكم كليمان على الكنيسة الرومانية لم ينفك عنها الاختلال والحيرة ومع ذلك فقد جمع من كان باقيا في مدينة رومة من العساكر الذين سرحهم وسلح الصنائعية وخدم الكردينالات واصلح ما كان باسوار المدينة من الخلل والشروم المهدومة وانشأ تحصينات جديدة وحكم بكفر دى بوربون وعساكره وسب الالمانيين بتسميته اياهم لوتيرية يعني اتباع لوتير والاسبانيوليين بتسميتهم مسلمين وعول على هذه الامور التي لا تجدي نفعا ظنا منه ان حكمه على هؤلاء العساكر بالكفر يزجرهم و يردهم عن مقاصدهم

مطلب
ما استعد به البابا للمدافعة عن نفسه

سنة ١٥٢٧

ولا يعلم انهم كانوا يحتقرون ذلك ولا يعبأون به بل كانوا لا يريدون الا الغنيمة في الحرب فاشار عليه ارباب ديوانه أن يخرج من المدينة فأبى أن يصغي لقولهم وصمم على المكث بها حتى يأتي اليه العدو

مطلب
الهجوم على مدينة رومة

وكان دي بوربون يرى انه لا ينبغي له أن يهمل في ذلك طرفة عين حيث أن مقاصده قد ظهرت وعرفها الخاص والعام فخب السير حتى سبق جيش الدوق اوربان بعدة مراحل ونزل بجيشه في سهول رومة في مساء اليوم الخامس من شهر ايار واخذ يرى عساكره القصور والكنائس الموجودة بهذه المدينة التي مكثت عدة قرون وهي تبتلع اموال بلاد اوروبا بدون أن تمسها يد عدو من الاعداء وحسن لهم ان يستريحوا مدة الليل ليستعدوا الاخذ المدينة عنوة في الغداة ووعدهم أن يعطيهم في نظير ما لحقهم من المشاق جميع الخزائن الموجودة بها

وكان دي بوربون قد صمم على تخليد ذكره بهذه الواقعة اما بنجاحه او بموته ففي صباح اليوم الثاني ظهر أمام عساكره متسلحا بجميع ادوات القتال ولابسا فوقها ثوبا ابيض لكي تتمكن من رؤيته اعداؤه واحبابه وحيث كان يعلم أن جميع ذلك يتوقف على الشدة عند الهجوم سار فورا بعساكره ليصعد اسوار المدينة واخذ من الملل الثلاثة التي كانت بجيشه ثلاث جماعات جماعة من الالمانيين وجماعة من الاسبانيوليين والثالثة من الايطاليين وفرق بينها فامر كل جماعة أن تهجم على محل مخصوص وتبع هذه الجماعات الثلاثة باقي الجيش ليعينها ويعضدها على حسب ما تقتضيه الاحوال فثار النقع وانعقد الغبار وهم يتقدمون جهة المدينة فلم يزالوا مختفين عن النظر حتى وصلوا الى شاطئ الخندق الذي كان حول ضواحي المدينة ووضعت السلالم في اسرع وقت وصعدت كل جماعة على الاسوار مع الشدة العظيمة والحمية التامة فكأنها كانت تغار من بعضها لكونها من ملل مختلفة فقابلهم اهل رومة اولا بعزم كعزمهم واظهر السويس الذين كانوا يحترمون البابا وكذلك العساكر الذين جلبهم من الشجاعة والشهامة ما جعلهم اهلا للاعتماد عليهم في المدافعة عن

سنة ١٥٢٧

اعظم مدن الدنيا واشهرها حتى انه بعزمهم وثباتهم لم يمكن لعساكر دى بوربون أن يقدموا عليهم مع شدتهم وحميتهم بل اخذوا فى التقهقر والرجوع على اعقابهم فلما رأى الدوق دى بوربون ان هذا الوقت هو وقت النصرة او الانهزام نزل عن جواده وتقدم أمام العساكر الهاجمة واخذ سلما من واحد من العساكر واسنده الى الحائط واخذ يصعد عليه وهو يقوى قلوب عساكره ويصيح عليهم أن يتبعوه فاصابته من جهة السور رصاصة ثقبت صلبه فادرك ان بر حه قاتله لكن لم يغب عقله فاوصى من كان بقربه أن يستروا جسمه ببرنس حتى لا تفتر همة العساكر اذا رأوه ميتا وبعد لحظة قليلة مات وهو فى همة عالية تكسوه حلة البهاء والابهة بحيث لو كان قتل فى المدافعة عن بلاده لا رئيسا على جيش اعداء وطنه لكان ما اظهر من الهمة عند الموت يكسبه اعظم فخر اكتسبته الرجال وتزينت به سير الابطال

مطلب
قتل دى بوربون

ولكن لم يكن اخفاء هذا الخبر مدة طويلة لانه كانت عادته أن لا يغفل بل كان يتنقل من جهة الى اخرى ويبادر الى الجهات الخطرة ليقتحم اهوالها وخطوبها فلما غاب عن اعين العساكر عرفوا انه قد مات لكن لم تفتر همتهم بل ازدادوا حمية وجنونا وصاروا يلهجون بلفظ دى بوربون من صف الى آخر ويقرنونه بقولهم عليكم بالدم واخذ الثار فبعد مدة قليلة كلت قوى العساكر الذين كانوا يدافعون عن الاسوار وظهر عساكر دى بوربون من فوق اسوارهم ودخلوا مدينة رومة كسيل العرم يزيل ما صادفه فى طريقه

وكان البابا كليمان مدة القتال تحت محراب كنيسة مارى بطرس يبسط الاكف بدعاء غير نافع ويطلب من الله النصرة على اعدائه فلما اتاه الخبر ان عساكره قد رجعوا على أعقابهم وركنوا الى الفرار ومن العجيب انه لم يخرج من باب غير الباب الذى دخل منه الاعداء حتى لا يصادفه احد بل ذهب هو وثلاثة عشر من الكرد ينالات ورسل الممالك الذين كانوا عنده الى قلعة سنتنج ولم يرتدع عما حصل له بها حين التجأ فيها قبل ذلك فعند ذهابه الى هذه القلعة راى عساكره يفرون أمام الاعداء وهم لا يرثون لحالهم وسمع صياح اهالى مدينته ونواحهم

وراى

سنة ١٥٢٧

ورأى بعينه المصائب التي كان سببها قبح ادارته وعدم تبصره

ولا يمكن وصف ما لحق رومة من المصائب والاهوال التي اعقبت هذه الحادثة لما انه تقصر عنه العبارة ويجل عن أن يتصوره عقل او يحصره وصف

مطلب نهب رومة

فحصل لسكان رومة ما يحصل لمدينة اخذت عنوة بعساكر كالمجانين خلت قلوبهم عن المروءة والرأفة فاصابتهم قساوة الالمانيين الذين هم كالوحوش الكاسرة وطمع الاسبانيوليين وسفاهة الايطاليين وحصل النهب في الكنائس والقصور والبيوت ولم يحترموا شيوخا ولا اعيانا ولا نساء بل لحقت افعالهم القبيحة كل الناس وعم الكردينالات والقسوس والاشراف والنساء والبنات قساوة هؤلاء المتبربرين الذين كانت قلوبهم خالية عن الشفقة والمروءة ولا يخفى انه في العادة متى اخذت مدينة عنوة لا تستمر فيها الفواحش والمظالم من طرف المتغلبين بل تبطل بمجرد سكون غضب العساكر الا ان عساكر الامبراطور مكثت عدة اشهر بمدينة رومة وهي تظلم الاهالي ولم يسكن غضبها بل ولم ينقص عن الحالة الاصلية وكان ما غنموه من النقود يبلغ مليونا من البنادقة وما اخذوه في الفدا او بطريق الظلم والنهب يزيد على ذلك ثم ان رومة كان قد تغلب عليها عدة مرات الامم الشمالية الذين هزموا الامبراطور في القرن الخامس عشر والسادس عشر الا ان هؤلاء الامم الكفرة الفجرة الذين كان منهم امة الهونيين والونداليين والقوطيين لم يفعلوا بها كما فعل هؤلاء العساكر الذين هم متدينون بدين النصرانية ومحكومون بملك قاثوليقي

مطلب حصر البابا في قلعة سنتانج

وبعد موت دي بوربون تولى قيادة الجيش الامبراطوري الامير فليبير دوشالون وكان من عائلة اورنجه الملوكية فشق عليه جدا وقت النهب أن يأخذ بعض العساكر ليحاصر قلعة سنتنج فلما اقاموا حصار هذه القلعة ادرك البابا كلمان انه لا حزم عنده ولا ادارة حيث التجأ بنفسه في قلعة خالية عن المهمات وادوات المدافعة ولكن كان يرى ان عساكر الامبراطور ملتفتون الى النهب في المدينة وليسوا معتنين بحصار القلعة فسولت له نفسه انه يمكنه المقاومة حتى يأتي اليه الدوق اوربان فيعينه وينقذه من اعدائه وكان هذا الدوق قادما

على رومة بجيش من عساكر البنادقة واهل فلورنسة والسويسة وكانوا جميعا مستأجرين على طرف مملكة فرانسا وكان هذا الجيش كبيرا بحيث يمكنه انقاذ البابا كليمان من الخطر الذى كان به ولكن كان الدوق اوربان يبغض عائلة مدسيس وكان كليمان من تلك العائلة فآثر الانتقام لنفسه من هذه العائلة على ما يكتسبه من الفخار بانقاذه لتخت الممالك النصرانية ولرئيس الملة المسيحية فزعم أن انقاذ تلك المدينة خطر جدا وانه لا قدرة له عليه ولاجل أن يفهم البابا انه انما فعل ذلك لينتقم منه ومن عائلته قرب من مدينة رومة حتى رآه البابا من قلعة سنتنج ثم رجع فيئس البابا من النجاة واضطر مدة حصره فى هذه القلعة حتى اكل لحم الحمير وبعد ذلك سلم وقبل الشروط التى الزمه بها الامير فلبيردوشالون فرضى أن يدفع الى جيش الايمبراطور اربعمائة الف بندق وأن يسلم الى الايمبراطور جميع القلاع والحصون الموجودة فى اراضى الكنيسة وأن يعطى رهائن ويمكث مسجونا حتى يعمل بمقتضى ما تضمنته المشارطة وأمر الامير الرسون بخفر البابا مدة سجنه لانه بتشديده على الملك فرنسيس حين كان اسيرا اظهر انه يصلح لهذه الوظيفة غاية الصلاحية فانظر الى المقادير حيث ان هذا الامير تولى خفر حبس ملكين عظيمين لم يقع مثلهما فى الاسر ببلاد اوروبا منذ عدة قرون

مطلب
سلوك الايمبراطور فى هذا الخصوص

ولما وصلت الاخبار بهذه الحادثة الى الايمبراطور تعجب كل العجب وحصل له غاية السرور الا انه اخفى ما فى ضميره عن رعاياه لانهم كانوا فى حنق شديد مما فعله ابناء وطنهم مع البابا الذى هو سيد النصارى كافة ولاجل أن يسكن غضب اهالى اوروبا اظهر انه لا دخل له فى خراب رومة حيث انه لم يأمر بالهجوم عليها وكتب لسائر الملوك الذين كانوا متعاهدين معه انه كان لا يعلم مقاصد الدوق دى بوربون ولبس علامة الحزن والبسها لارباب ديوانه وابطل المواسم والزينة التى كان امر بها لولادة ابنه فيلبش ومن نفاقه الذى لم يكن يخفى على احد امر أن تقام دعوات وصلوات فى جميع بلاد مملكة اسبانيا لاطلاق البابا من ربقة الاسر مع انه لو ارسل الى جنرالاته ورؤساء عساكره امرا باطلاقه لاطلقوه بمجرد

وصول الامر اليهم

سنة ١٥٢٧

وفى ذلك الزمن كان الدهر يساعد عائلة اوستروسيا فى مملكة اخرى من ممالك اوروبا وذلك ان السلطان سليمان كان قد دخل بلاد المجار مع جيش يبلغ ثلاثمائة الف رجل وكان لويز الثانى اذذاك ملكا على المجار وعلى بوهيمه فلعدم ادارته وقلة تجاربه ذهب لقتال هذا السلطان مع جيش لا يزيد على ثلاثين الفا ولعدم حزمه جعل بولص طوموري مطران غرلوكز رئيسا على هذا الجيش فسار هذا الجنرال القسيس أمام الجيش وهو متزى بزى الرهبان متمنطق بالحبل الذى تتمنطق به طائفته الفرنسيسكانية وكان يعجب بنفسه ويرى انه لا شئ يصعب عليه وكان عساكره لا يبالون باقتحام الاخطار وانما يشق عليهم طول المدة فالحوا عليه حتى شرعوا فى الحرب مع سليمان أمام مدينة موهاكز وفى تلك الواقعة قتل الملك لويز وابطال البهلوان الاشراف وهلك اكثر من عشرين الفا وكان منشأ ذلك كله بجهل المطران الذى تقلد قيادة الجيش وبعد انهزامهم تغلب السلطان سليمان على القلاع الموجودة بالاقاليم الجنوبية من مملكة المجار وخرب ماعداها من البلاد واسر اكثر من مائتى الف نفس ولما كان الملك لويز اخر الذكور من عائلة ياجولون ادعى الارشدوق فرديننده انه الحق فى تاجى المجار وبوهيمه وكان مستندا فى ذلك الى امرين احدهما ان عائلة اوستروسيا كانت تطلب فيما سبق حق الملوكية على هاتين المملكتين والامر الآخر انه كان متزوجا باخت الملك لويز المتوفى ولكن كانت القوانين الالتزامية والرسوم السيادية باقية على اصلها فى مملكتى المجار وبوهيمه حتى كانت ملوكية هاتين المملكتين بالانتخاب ولولا ان الامير فرديننده كان معضدا بقوى عظيمة لما اجيب الى ماطلبه ونال الملوكية ولكن كان له فضل ذاتى وكان الناس يحترمونه ايضا مراعاة لاخيه لانه كان يومئذ اعظم ملوك النصرانية وكان يلزم تولية امير مثله قوى الشوكة حتى انه بانضمام عساكره الى عساكر رعاياه تصير بلاد المجار فى أمن من الدولة العثمانية وكانت اخته متزوجة بالملك المتوفى فغلبت هذه الاسباب

مطلب
دخول السلطان سليمان فى بلاد المجار

مطلب
انهزام المجار مع ملكهم

سنة ١٥٢٧

مطلب انتخاب الامير فرديننند ملكا

على قلوب اهل المجار فرضوا بتوليته عليهم وان كانوا قبل ذلك يتوقفون بالنظر لكونه اجنبيا منهم ليس من ابناء وطنهم نعم كان ثم حزب عظيم يريد تولية امير ترنسلوانيا وهي الاردل لكن الغي قولهم وصار الامير فردينند ملكا على بلاد المجار وتبعها اهل مملكة بوهيمه فالبسوه تاج ملكهم الا انهم لاجل عدم ضياع مزاياهم الزموه قبل تنصيبه أن يضع امضاءه على وثيقة مضمونها اقرار نامة اقر فيها فردينند ان تاج مملكة بوهيمه لم يعط له بحق قديم وانما اعطى له بانتخاب الملة واختيارها وصارت هذه الممالك فيما بعد وراثية لعائلة اوستروسيا فكانت اصلا فى ازدياد قوتها وجعلها من ذلك الوقت مهابة محترمة عند سائر ممالك المانيا

مطلب تقدم الفسخ فى الدين وازدياده

وهذه الاشياء التى اوجبت الشقاق بين البابا والايمبراطور كانت تعين كثيرا على نجاح لوتير وانتشار مذهبه بين الناس وذلك انه لما غضب الايمبراطور شرلكان من فعال البابا اشتغل بما يدافع به عن نفسه العصبة التى تحزبها عليه البابا فلم يلتفت الى ابطال مذهب لوتير الذى كان آخذا فى التقدم والانتشار والتمكن من قلوب الناس فى بلاد المانيا وانعقدت مشورة الدييتة ٢٥ من شهر حزيران سنة ١٥٢٦ الايمبراطورية فى مدينة اسبيرة لتختبر الحالة التى كان عليها الدين اذ ذاك فلم يلزم الايمبراطور فى هذه المشورة امراء المانيا بشئ الا بمجرد الانتظار والصبر وأن لا يفعلوا شيأ يقوى به احزاب لوتير حتى تنعقد المشورة القسيسية العامة التى طلبها من البابا فاتفق ارباب مشورة الدييتة المذكورة على أن عقد المشورة القسيسية العامة هو الاليق والاحسن فى نسخ مظالم الكنيسة وفواحشها الا انهم شددوا فى أن يكون انعقادها فى المانيا وأن يكون اربابها من اهل تلك الايمبراطورية لتكون اعظم ثمرة من المشورة العامة التى طلبها الايمبراطور وافادوا أن ما قاله لهم الايمبراطور من انهم لا يفعلون ما يوجب تعضيد مذهب لوتير لم يلتفتوا اليه بل ضربوا عنه صفحا قبل انقضاء مشورة الدييتة من مدينة اسبيرة حتى ان العلماء التولوجية الذين اتبعوا منتخب سكس وامير هيسة كسيلة كانوا يعظون الناس

ويحصونهم

ويخصونهم الاسرار الدينية بموجب اصول الدين الجديد لاسيا وكان الايمبراطور
لا يحترم البابا والكهنة وذلك لشدة غيظه من البابا لاسيما وكان
قد كتب منشورا اذاعه بين الناس وبرهن فيه على أن ما فعله في محله وأن سلوكه
حسن فاشتد غيظ الايمبراطور وورد عليه بجواب اطنب فيه واغرب وبدأ
تعداد الجزئيات التي تدل على غدر البابا وخيانته وطمعه وقلة ديانته وتشكى
من ذلك وشنع عليه كل التشنيع وختمه بايجاب عقد جمعية قسيسية عامة وكتب
ايضا الديوان الكردينالات يتشكى من عدم انصاف البابا كليمان ومن
تحامله وعصبيته وحرضهم أن لا يهملوا في عقد تلك المشورة القسيسية ولو أبى
البابا كليمان عقدها واراد تأخيرها الى وقت آخر لان تلك المشورة فيها
اصلاح حال الكنيسة النصرانية فان اهمل فيها البابا وجب عليهم أن يعقدوا
مشورة قسيسية عامة باسمهم وانتشر جواب الايمبراطور في جميع بلاد المانيا
ولم يكن في التشنيع والحط على البابا دون تأليف لوتير وقرأه جميع الناس
خاصة وعامة وأثر في سائر القلوب حتى ازال منها ما كان قد انطبع فيها مما نشره
هذا الايمبراطور وقبل ذلك من منع الدين الجديد

تم الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان
ويليه الجزء الثاني ووافق ذلك الثاني عشر من شهر رجب سنة ١٢٦٠
ستين ومائتين بعد الالف من هجرة من له العز والشرف
صلى الله عليه وعلى آله والتابعين على منواله
امين

بيان الخطا والصواب من الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الامبراطور شرلكان

خطا	صواب	صحيفه	سطر
فى عمره الثمانية	فى عمر الثمانية	١٥	٤
الحومة	الحكومة	١٨	٦٣
ساعات كان	ساعات وكان	٢٠	٢٣
قوس	ثوس	٢٣	١١
وكان يعلم	وكان يعلم	٢٥	١٣
غزاولينوس	غراولينوس	٧٦	١١
ويعتبرونه	ويعتبروه	٩١	١٠
اذا كان	اذ كان	٩٧	٢
فى دواقعة	فى واقعة	١٤٤	بالهامش
فى معاقبته	فى معاقبة العاصين	١٥٢	بالهامش
الامرين	الاميرين	١٦٠	٣
نهيته	نهبته	١٦٩	١
الدخلى	الداخلى	١٧٦	٢٠
قام مقامه	اقام مقامه	٢٣٣	٩
رى البابا	رأى البابا	٢٤٩	١٧
اقطّع	اقطع	٥٢	٢٤

5614
51A